كتابي

الكتاب الشهري لتلخيص الكتب العالمية

١٢ قرشا



حلمي مراد

لوحة "حسناء الغابة".. فيم تفكر؟ للفنان الاندونيسي "بازوكي عبدالله"

كتابي

كتاب شهري لتلخيص الكتب العالمية

يصدر أول كل شهر - صاحبه ورئيس تحريره: حلمي مراد

عدد خاص

عن الآداب الاسيوية والافريقية

الكتاب الثالث والتسعون (السنة الثامنة)

الاشتراكات والأعداد السابقة : التفصيلات بالداخل

الادارة : عمارة الجندول (١٤ شارع ٢٦ يوليو بالقاهرة

تليفون ٥٩٥٥٦

محتويات الكتاب

مجموعة كتابى

(الكتاب الشهرى لتلخيص الكتب العالمية)

صدر منها ثلاثة وتسعون كتابا ، يضاف اليها كتاب جديد فى أول كل شهر .

مطبوعات كتابى

(الترجمة الكاملة الأمينة لشوامخ الكتب العالمية)

صدر منها ستة وخمسون كتابا (ومجلدان خارج السلسلة يحتويان على الترجمة الكاملة لقصة « دكتور جيفاجو ») ، وتطلب قائمة بأسماء الكتب جميعا من الادارة .

الاشتراكات

• تطلب الاعداد السابقة من كل من المجموعتين من :
ادارة « كتابى » : ١٤ شارع ٢٦ يرليو (فؤاد سابقا) بالقاهرة

• الاشتراكات عن ١٢ عددا من كتابى فى ج.ع.م والسودان والمملكة السعودية والاردن ولبنان وليبيا والعراق .١٤٠ قرشا سنويا خالصة أجر البريد المسجل ، وما عداها من البلاد العربية الاخرى والبلاد الاجنبية فالاشتراك السنوى .١٨٠ قرشا سنويا خالصة أجر البريد المسجل .

ولمن شاء أن ترسل له الاعداد بالبريد الجوى المسجل ، أن يدفع فرق الرسوم .

• ترسل قيمة الاعداد والاشتراكات فى مصر باذن بريد عادى . وللمشتركين فى البلاد الاخرى أن يرسلوا القيمة بشيك على أحد بنوك القاهرة ، أو تحويلات مصرفية ، أو كوبونات بريد دولية فئة .٤ مليما ، على أن يتحقق المرسل من امكان صرفها فى مصر . علما بأن سعرها فى مصر ٣٧ مليما ، ومن الممكن لمن فى السودان أن يرسل القيمة بحوالة بريدية .

مجتمع العاملين .. لا الخاملين !

عزيزى القارىء ..

منذ قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ – وكان « كتابى » يومئذ فى الشهر السادس من عمره – وكاتب هذه السطور يتابع بالاعجاب والتعليق – فى كل مناسبة – خطواتها الجبارة وجهود قائدها الملهم الرئيس جمال عبد الناصر ، فى سبيل خلق مجتمع جديد يؤمن بالعمل والكفاح كوسيلة لكسب العيش .. **مجتمع للعاملين المجدين ، الجادين ، لا الخاملين « العاطلين بالوراثة »** ، كما أبدع فى وصفهم قائد الثورة فى خطبته المشهورة عام ١٩٥٩ ..

ذلك أن محرر « كتابى » كان ولا يزال يفخر بأنه يعمل ، وانه لا يعيش الا من عمله ، وكده المتواصل ، مستمدا القوة على هذا الكد من ايمانه برسالته الثقافية التى وهب نفسه وحياته من أجل تحقيقها ، والتى لم ولن يألو جهدا فى سبيل النهوض بها على أكمل وجه ، ما استطاع .. **حتى لقد صار « كتابى » رمزا للكفاح الطويل الشاق الذى يستعذب كل جهد وعرق فى سبيل المحافظة على مستواه الادبى ، بل الارتفاع بهذا المستوى تدريجا – ورفع القارىء العربى اليه** – لا النزول بنفسه وبمادته الى المستوى السطحى الغث الذى يحقق له الرواج الاوسع والكسب الرخيص ..

وعلى ضوء هذه النظرة ، وهذا الايمان ، ينتهز « كتابى » فرصة صدور القوانين الاشتراكية الاخيرة ليشارك الشعب ترحيبه بها ، **من أجل خلق مجتمع جديد يعيش كل فرد فيه – من رئيس الجمهورية الى أصغر عامل – من ثمرة عمله ، وكده ، وكفاحه ..**

والله ولى التوفيق

حلمى مراد

٧ أيام حافلة .. فى الاقليم السورى

زرت الاقليم الشمالى ثلاث مرات ، قبل هـذه المرة ..

لكنى أعترف بأنى لم أر وأتعرف واستمتع ـ خلال تلك الزيارات الثلاث ـ بعشر ما رأيته وتعرفت عليه واستمتعت به فى هذه الزيارة الشائقـة التى دعانا اليها المجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب في الاسبوع الاخير من شهر يونيـه المنصرم ..

وذلك لعدة أسباب ..

منها أننى فى زياراتى السابقة لم أر من الاقليم السـورى غير مدينة **دمشق** ، ومصيفها الجبلى **بلودان** .. أما فى هذه المرة فقـد اتسعت الزيارة وامتدت من دمشق ـ وغوطتها الفيحاء ، ومصايفها الجبلية جميعا : (بلودان ، والزبدانى ، وبقين ، ونبع بردى .. الخ) ـ الى مدن ومحافظات الاقليم الاخرى الهامة : حمص ، وحماة ، ومعرة النعمان ، وحلب ، والسويداء ، ودرعا ، وبصرى الشام ، واللاذقية ، وكسب .. الخ

اكثر من ألفى كيلو متر قطعناها بالسيارات ، ذرعنا فيها الاقليم السورى طولا وعرضا ، وشمالا وجنوبا .. فى أقل من سبعة أيام !

ولقد كانت الرحلة شاقة ، لكنها برغم ذلك كانت ممتعة حقا ..

والسبب الثانى الذى ضاعف من متعة هذه الزيارة ، عن سابقاتها ، أنها أتاحت لى فرصة التعرف الى نخبـة أدباء الاقليم السورى وفنانيه ، الذين لم يسعدنى الحظ بلقائهم فى جولاتى السابقة ، ولو أن لقاءنا بهم كان قصيرا خاطفا ،



سرب من فتيات الجيل الصاعد فى (حلب) الشهباء

بحكم تنقلنا المستمر بين مدن الاقليم وأطرافه الشاسعة ..

وثمة **سبب ثالث** أضفى على هذه الزيارة متعة خاصة — لعلها لم تدخل فى حساب المجلس الاعلى للفنون والآداب حين نظم الرحلة ! — هو أنها أتاحت فرصة رائعة لتعرف أدباء الاقليم الجنوبى وفنانيه أنفسهم ، بعضهم على بعض — وكان أكثرنا ، ويا للأسف ، لا يعرف من زملائه غير أسمائهم فحسب ! — سيما وقد ضمت الرحلة مجموعة تمثل مختلف قطاعات الأدب والفنون فى مصر ..

فلقد ضمت من **الأدباء** : أمين يوسف غراب ، وثروت أباظة ، ومحمود البدوى ، ومصطفى عبد اللطيف السحرتى ، ويوسف جوهر ، والدكتور يوسف عز الدين عيسى ، وكاتب هذه السطور ..

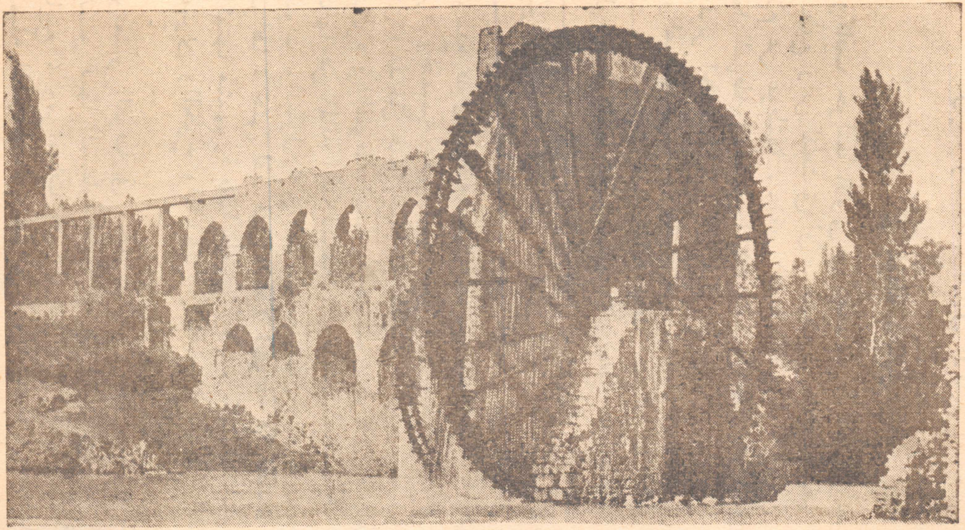
.. وضمت من **الشعراء** ، الشاعرين : محمد عبد الغنى حسن ، ومحمد مصطفى الماحى ..

.. ومن **الموسيقيين** ، الفنانين : بليغ حمدى ، وعبد الحليم نويرة ، وعبد العظيم عبد الحق ، وعبد الحميد توفيق زكى ، وعلى فراج ..

ومن **السينمائيين** : النجمين أحمد مظهر ، وصلاح ذو الفقار ، والمخرجين : توفيق صالح ، وعاطف سالم ، وكمال الشيخ .

.. ومن ممثلى **الفنون التشكيلية** ، الفنانين : أحمد عثمان ، الحسين فوزى ، سعد الخادم ، سيف وانلى ، سيد عبد الرسول ، على كامل الديب ، محيى الدين طاهر ..

واشهد أن صحبتهم جميعا كانت متعة نادرة ، **وأنها اكسبتنى صداقات عديدة خالصة سأظل أعتز بها** ، من فرط ما تعرفت فى أصحابها على نماذج مصفاة من الموهبة الفنية والخلق الكريم ..



« النواعير » (السواقى) المشهورة فى مدينة (حماة)

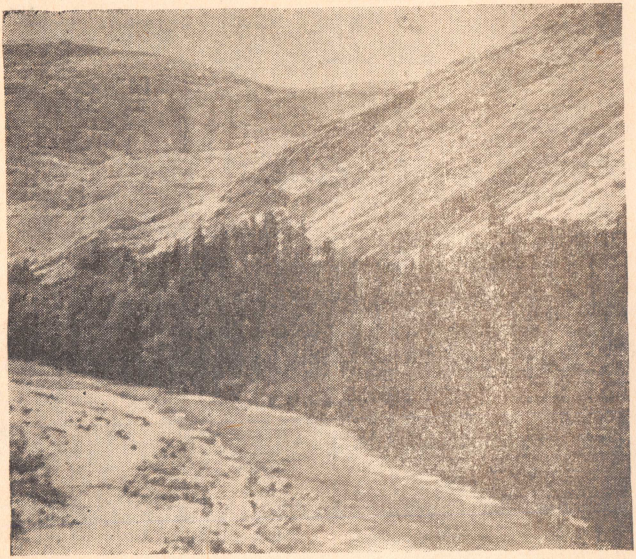
فى غوطة دمشق

وكانت جولتنا الاولى فى دمشق نزهة فى الغوطة . ولا يستطيع زائر لدمشق أن يتحدث عن المدينة بغير أن يعرض للكلام عن غوطتها .. فهى ليست مجرد جزء من المدينة . وانما الغوطة ودمشق أشبه باسمى مكان مترادفين متلازمين . لا يذكر أحدهما بغير أن يذكر الآخر !

والغوطة هى اسم يطلق على البساتين والقرى المحيطة بدمشق ، وهى أشبه بغابة هائلة تشرف على المدينة العريقة وتطوقها ، كأنما تحنو عليها ، وتعطر هواءها بأريجها الفواح .. ومعنى (الغوطة) — فى رأى الاديب الدمشقى الكبير « محمد كرد على » ، فى كتابه الممتع عن دمشق — مشتق من « الغائط » ، وهو المطمئن من الارض .

ويبلغ طول الغوطة نحو عشرين كيلو مترا ، وعرضها بين عشرة وخمسة عشر كيلو مترا ، ومساحتها نحو مائة ألف فدان (تدخل فيها مساحة المدينة ذاتها) .. وعدد القرى المتناثرة فى الغوطة اثنتان وخمسون قرية ، لا يقل تعداد سكانها عن المائة ألف نسمة . وتربتها خصبة تنتج أجود الحبوب والبقول ، والاشجار والثمار ، وتمون بها دمشق وسواها ، حتى لقد قيل **« لولا الغوطة ما كانت دمشق ! » ..** وفاكهتها مشهورة بلذة طعمها وطيب نكهتها ، سواء فى ذلك الكمثرى والخوخ والمشمش والتفاح والعنب والبرقوق .. الخ .

وتعتبر الغوطة فى مجموعها من أجمل متنزهات الشرق ، اذ تسير فيها السيارة أميالا وسط أشجار باسقة ، وجداول وينابيع ، ومرتفعات خضراء تتوجها المقاهى والكازينوهات الجميلة المشرفة على الطريق ، ولا سيما فى منطقة (دمر)



نهر (بردى) يروى بفروعه السبعة غوطة دمشق، فيجعل منها جنة أرضية!

التى تمر بها جميع السيارات الذاهبة الى بيروت أو الصاعدة الى مصايف دمشق الجبلية ، واهمها : (بلودان)، و(الزبدانى)، و(بقين) .. الخ .

ولعل أصدق ما قيل فى وصف جمال الغوطة ، هذه الابيات التى نظمها فيها أحد الشعراء القدامى :

أنى اتجهت رأيت ماء سابحا
متدفقا أو يانعا متهدلا
وكأنما أطيارها وغصونها
نغم القيان على عرائس تجتلى

وكأنمـا الجوزاء ألقت زهرها
فيها وأرسلت المجـرة جدولا
ويمر معتـل النسيم بروضها
فتخـال عطارا يحرق مندلا

ويروى أن **عمر بن الخطاب** حين قدم الشام رأى الغوطة ونظر الى المدينة والقصور والبساتين ، فتلا قوله تعالى : « كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوما آخرين . »

كما يروى أن **أمير المؤمنين « المأمون العباسى »** أقسم يوما وقد نظر الى أشجار الغوطة ونباتها ، أنها خير مغنى على وجه الأرض ، وقال : عجبت لمن يسكن غيرها كيف ينعم مع هذا المنظر الأنيق الذى لم يخلق مثله . »

وقد مرت على الغوطة عصور مختلفة ، تغيرت فيها حتى أزياء الجنسين من سكانها ، فغير الرجال خلالها لباس رؤوسهم ثلاث مرات ، وكذلك فعلت النساء بملاءاتهن .

ومن فرط اعجاب الدمشقيين بالغوطة ، واعتزازهم بها ، يقولون ان حيواناتها الضارية لا تؤذى أحدا ، وأن الشر فيها محكوم عليه بالزوال ، بدليل أن ثعالبها وضباعها توشك أن تبيد ، وأن كواسرها وجوارحها أقل من عصافيرها وحمامها .

والآن ، تعال نبدأ جولتنا فى غوطة دمشق الفيحاء ، حتى نبلغ أعلى مصايف دمشق ارتفاعا ، وهو مصيف بلودان .

وأول ما يلفت نظرك وأنت تستقل السيارة من قلب دمشق ، حيث يربض فندق سميراميس الفاخر ، مجرى نهر (بردى) الخالد الذى يمتد تحت أقدام الفندق ، فلا تكاد تدالف من عتبته حتى تراه محاذيا للرصيف يتلألأ بريقه من اليمين ومن اليسار الى امتداد البصر ، فيشق الطريق



مآذن المسجد الاموى تطل على جانب من دمشق

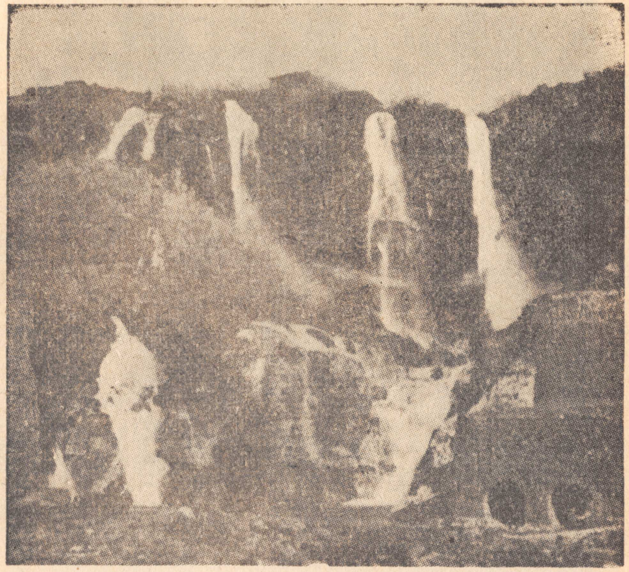
الى شارعين فسيحين من أجمل شوارع دمشق .(وشوارع دمشق على العموم تمتاز باتساعها الى درجة تلفت النظر ، حتى ليبلغ عرضها ضعف عرض شوارع القاهرة وبيروت ، بل أكثر) . وفى تلك المنطقة المجاورة لفندق سميراميس يقام على ضفة نهر بردى فى شهر أغسطس (آب) من كل عام معرض دمشق الدولى ، الذى يحوى أجنحة لنحو عشرين دولة من دول الشرق والغرب ، ومن دول الكتلتين الشرقية والغربية على السواء .

وفى مواجهة منطقة المعرض ، ترى طريقا صاعدا بزاوية تلفت النظر ، وفى نهايته قمة جبل (قاسيون) ، وعلى جانبيه صفين من القصور والدور الحديثة المتدرجة مع الطريق الصاعد حتى قمة الجبل . وتسمى تلك المنطقة العصرية الأنيقة من دمشق (حى المهاجرين) – ويا لغرابة المفارقة بين الاسم والمسمى ! – وتربط قمتها بأسفل المدينة عدة طرق تتفرع فى كل اتجاه . واذا نظرت اليها ليلا – من أى مكان – رأيت أضواء مبانى الحى أشبه بعقود من الثريات تتوامض وتتلامح وكأنها ملايين من النجوم قد انسكبت من السماء وتناثرت فى كل اتجاه ، فرصعت سفوح تل (قاسيون) واستكانت فى أحضانه ..

ونعود الى منطقة المعرض ، فنواصل انطلاقنا بالسيارة الى الغوطة ، بين أشجار ، ومتنزهات ، ومقاه مرتفعة عن الطريق عشرات الامتار ، تحف به من الجانبين ، وقد شيدت فوق ربوات وهضاب عالية .. وعيون المياه المنبثقة من قلب الصخور تسكب جداولها المتعرجة على جوانبها .. فهذا كازينو (اشبيلية) ، وهذا (الوادى الاخضر) ، وهذا (دمر) ، الى عشرات غيرها من الملاهى والمقاهى ، فاذا صعدت الى أحداها ألفيت نافورات لا حصر لها ترسل



منظر ليلى رائع لحى المهاجرين الانيق ، على سفح جبل (قاسيون) بدمشق



أينما سرت فى (الفوطة) ، ترى عيون المياه العذبة والشلالات الفضية

ماءها فى الاحواض .. وجداول متعددة تتسلل تحت أقدامك بين المناضد ، وقد انسكبت فوق مياهها الاضواء الملونة .. وبعض هذه الملاهى يقدم فى السهرة برامج موسيقية وغنائية منوعة ، تحييها مطربات وراقصات من فنانات الاقليمين الشمالى والجنوبى ، وفنانات لبنان ..

ثم نخلف هذه المنطقة العامرة ، كى تصعد بنا السيارة طريقا جبليا متعرجا ، نحو (بلودان) .. وفى الطريق ، نمر بعدد من المصايف والمواقع الجميلة ، أولها :



بقايا مدرج أثرى ، فى مدينة ((تدمر)) (أو ((بالميرا)))

نبع بردى : وهو بحيرة صغيرة ترصع واديا جميلا يشرف عليه الطريق الجبلي من عل ، فتبدو البحيرة فى قاع الوادى وكأنها ماسة تبرق وسط الرمال .. وعلى ضفة البحيرة يتناثر عدد من المقاهى الهادئة ، وقد غصت بروادها الذين جلسوا يستمتعون بالجو الشاعرى ويتناولون ما طاب لهم من الطعام والشراب ..

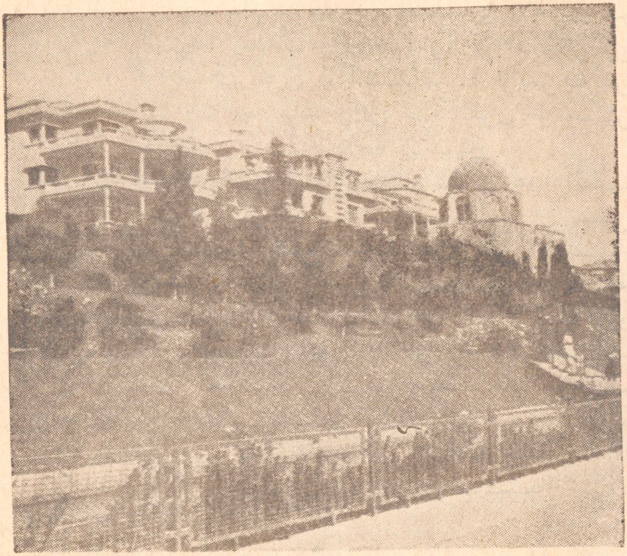
فاذا صعدت من قاع الوادى الى الطريق انطلقت بك السيارة فى الطريق الجبلى المتعرج نحو نبع آخر تنبثق فيه المياه من قلب الصخور ، ويطلقون على القرية أو المصيف

الجبلى الذى يقع فيه اسم : **بقين** (وينطق الاسم بكسر الباء وتشديد القاف مع كسرها) . ولا تكاد تبلغ هذه القرية الجبلية – التى ترتفع عن سطح البحر نحو ١٣٥٠ مترا – حتى ترى عشرات السيارات العامة والخاصة متراصة عند مدخل المقهى الرئيسى ذى الطابقين ، المعلق على حافة الجبل ، وقد ازدحم فى داخله مئات من الرجال والنساء والاطفال ، وتكأكأ عدد كبير منهم على صنبور يتناولون منه جرعات من ماء النبع المعدنى العذب ، البارد كالثلج .

فاذا غادرت (بقين) ، مضت بك السيارة تتسلق الطريق المتعرج ، الذى تحف به الجبال والوديان ، والقرى والخضرة والينابيع ، حتى تبلغ بعد دقائق المصيف السورى الأشهر :



« باقة » من الفتيات السوريات يرقصن رقصة (السماح) التقليدية



قصور دمشق الحديثة تطل على الطريق من فوق الروابى الخضر

بلودان : وترتفع عن سطح البحر ١٥٠٠ متر ، وتستطيع أن تعتبرها قرية كبيرة أو بلدة صغيرة ، فيها عدد كبير من الحوانيت ، والمقاهى ، والفنادق — من كل مستوى — وفى مقدمتها (فندق بلودان الكبير) الذى يعتبر من فنادق الدرجة الاولى العريقة التى تمت الى المستوى الدولى الذى كان سائداً فى الثلث الاول من هذا القرن ، قبل الحرب الأخيرة . وبه شرفة خلفية هائلة تطل على منظر خلاب للوادى السحيق ، وتعزف فيها جوقة موسيقية فى الامسيات

.. كما تنبسط أمام مدخله من الناحية الاخرى شرفة مماثلة تزدحم بنزلاء الفندق وبغيرهم من الرواد والزائرين. وتعقد فى هذا الفندق – فى المناسبات – مؤتمرات عربية مختلفة ، كما عقدت فيه منذ أوائل هذا القرن مؤتمرات واجتماعات سياسية وثقافية بالغة الاهمية .

فاذا أردت مكانا أكثر ارتفاعا من مستوى هذا الفندق وما حوله من شوارع ومقاه ، فانك تستطيع أن تمضى فى الطريق الجبلى الصاعد بضع مئات أخرى من الامتار ، فاذا انت أمام مقهى جميل يندس وسط الاشجار هو مقهى (أبو زاد) ، ويخيم عليه هدوء شاعرى بالغ الروعة ، وهو مزود بمقاعد مريحة من أحدث طراز .. ولا تلمس مبلغ الهدوء المخيم على هذا المكان الا اذا هبطت منه مرة أخرى الى قلب بلودان ، فاذا المقاهى والمطاعم تغص بالطاعمين والشاربين ، ولاعبى النرد ، ومدخنى « النارجيلة » ، التى تقبل عليها فى الاقليم السورى وفى لبنان نسبة كبيرة من الرجال والنساء ..

فاذا غادرت (بلودان) هابطا الى دمشق ، ففى وسعك أن تسلك طريقا آخر غير الذى جئت منه . وفى هذه المرة لن تمر ب (بقين) و (نبع بردى) ، وانما ستمر بمصيف آخر لايقل جمالا عن بلودان – وان قل عنه صخبا وازدحاما – هو مصيف (الزبدانى) ، الذى يرتفع عن سطح البحر ١١٧٥ مترا .. وهناك تستطيع أن تتسكع فى طرقات القرية الجبلية الوادعة ، وتتناول قمعا من البوظة (الجيلاتى) المطاطة الشهية التى يحلو مذاقها فى الاقليم السورى عموما ، وتكثر حوانيتها النظيفة فى كل مكان .. ثم تعرج على الحانوت المجاور فتبتاع شيئا من الفاكهة المنوعة الرخيصة الاثمان ، مثل الخوخ والبرقوق والكمثرى ، (ويطلقون عليها هناك

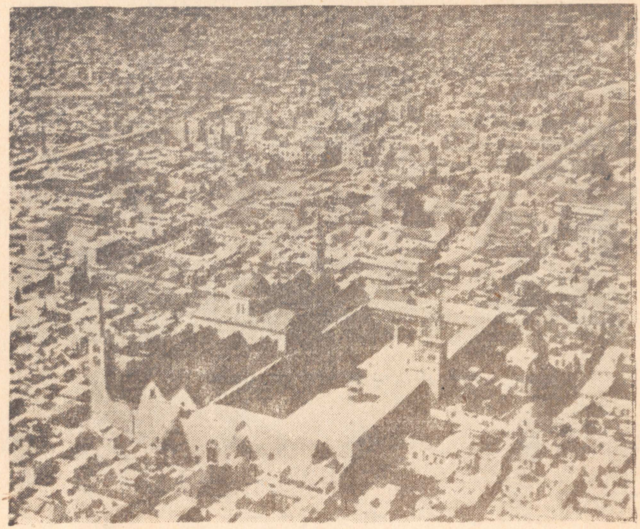


جانب من قلعة حلب التاريخيه

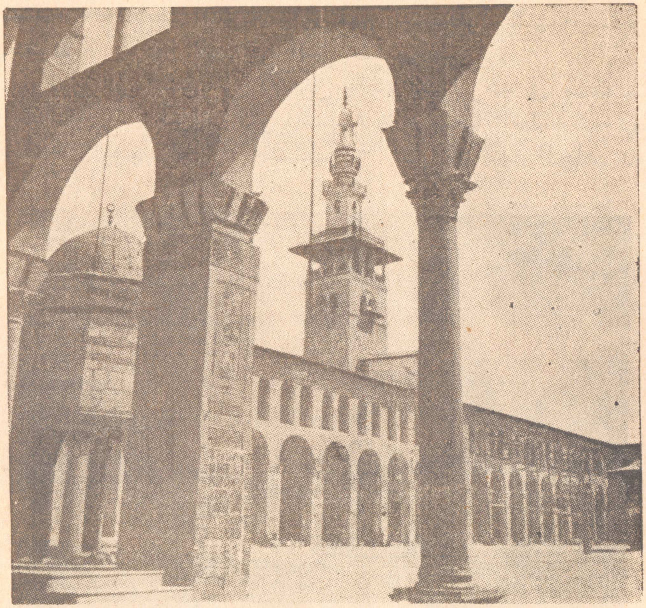
أسماء أخرى مثل : الدريق ، والانجاص .. الخ) .. فاذا تعبت من المشى فى القرية والجبل ففى وسعك أن تستريح فى أحد المقاهى لتطلب كأسا من شرابهم المفضل (العرق) ، وهو يستخرج من العنب - ويقابل (الزبيب) فى اقليمنا

الجنوبى — ولا تستغربن أن يحضر لك الساقى مع الكأس نحو عشرين طبقا صغيرا من « المزة » ، فى مقدمتها طبعا الطبق القومى المفضل (اللبنة) ،وهى أشبه باللبن الزبادى ..

فاذا هبطنا من الزبدانى لنقوم بجولات أخرى فى الغوطة، مررنا بعدد من المناطق ذات الموقع الطبيعى الجميل ، سواء بجوار نبع من الينابيع ، أو وسط غابة أو بستان ، وفى بعضها ترى جداول المياه تنساب بين مناضد المقاهى ، ومن فوقها الاشجار تظلل الجالسين ، كما هو الحال فى (زحلة) بلبنان ..



منظر عام التقط من الطائرة لدمشق يتوسطها المسجد الاموى



المسجد الاموى .. من أشهر معالم دمشق التاريخية

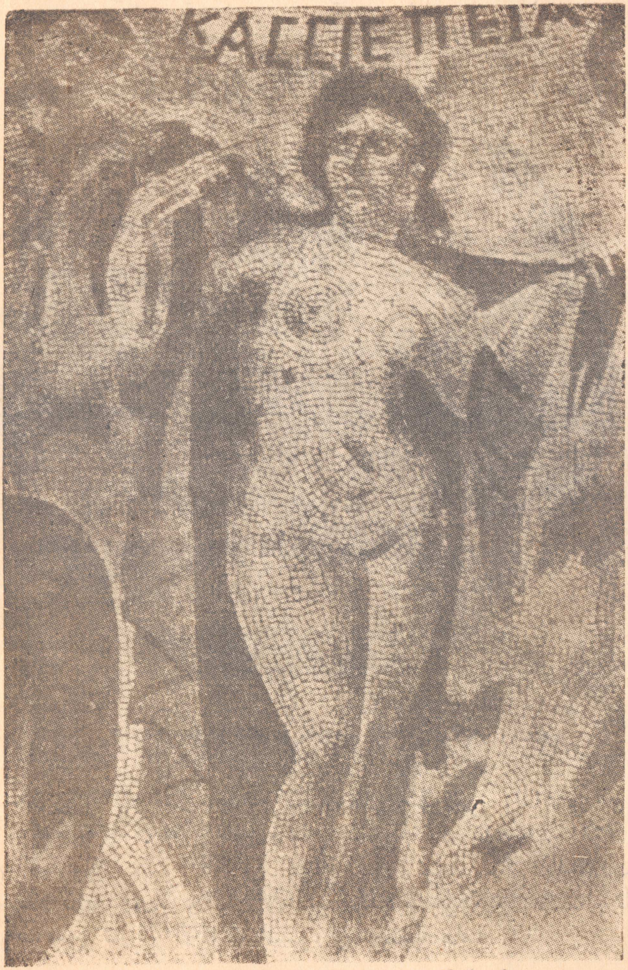
وطوال الطريق بين هذه المغانى والقرى والمصايف ، ترى سيارات الدمشقيين تنتحى جانبا من الطريق ، أو أركانا من الحقول ، فتخرج العائلات من السيارات لتفترش الحشائش أو تتناول وجبة طعام فى ظل الاشجار .. وتستهوى مناظر الطبيعة الجميلة أنظار الرسامين من أفراد قافلتنا ، فيخرج

الفنانون « سيف وانلى » و « الحسين فوزى » و « على الديب » أقلامهم الملونة وأوراقهم ليسجلوا عليها رسوما تخطيطية سريعة للمناظر التى تستهويهم ..

وقبل عودتنا الى دمشق ، نتوقف برهة فى منطقة (ميسلون) ، لنزور قبر الشهيد « يوسف العظمة » ، بطل موقعة (ميسلون) المشهورة التى خاضها المجاهدون



قصر (العظم) ، أحد متاحف دمشق الهامة



لوحة أثرية من (الموزايكو) بمتحف دمشق



حديقة متحف دمشق القومى الحافل بالاثار والتحف

السوريون البواسل ضد الاستعمار الفرنسى الفاشم ..
وأكتفى بهذا القدر عن مغانى الغوطة ومصايف دمشق.. كى أصحبك صباح غد فى جولة نزور فيها معالم مدينة دمشق ذاتها . . وقبل أن نبدأ هذه الجولة ، تعال نلم بطرف من تاريخ الاقليم السورى بصفة عامة :



تمثال للالهة «منيرفا» بمتحف دمشق

قال أحد كبار المؤرخين عن سوريا : « **انها الوطن الثانى لكل رجل مثقف فى العالم** » .. فلقد تعاقبت عليها كثير من الحضارات القديمة ، فتركت فيها آثارها التى تعتبر اليوم تراثا ضخما وثمينا ، ففى كل مكان منها تنتشر آثار من عصور الحيثيين ، والاراميين ، والأشوريين ، واليونان ، والفرس ، والرومان ، والعرب ، والصليبيين ، والايوبيين ، والمماليك ، والعثمانيين .. وخلال كل تلك العصور ، شهدت الارض السورية أعنف أحداث التاريخ ، وارتوت بدماء المحاربين والغزاة من كل تلك الأجناس !

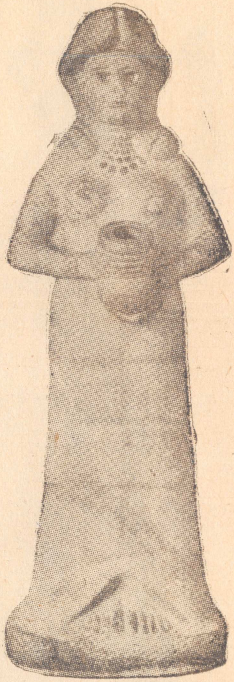
ولعل أشهر الاماكن التى تضم آثار ذلك التاريخ العريق، مدينتا (تدمر) — أو (بالميرا) — و (بصرى الشام) .. وتليهما فى الاهمية قرى ومواقع أخرى

بها آثار هامة ، منها : قبر هابيل ، معلولا ، قلعة الحصن ، صيدنايا ، كنيسة الزنار ، دير القديس سمعان .. الخ .

وقبل أن أروى لك شيئا عن كل من هذه المدن والمبقاع ، تعال نزر أهم المعالم السياحية فى مدن سوريا الرئيسية الخمس : دمشق ، حلب ، حمص ، حماه ، اللاذقية :

دمشق

يطلق على دمشق ـ بجدارة ـ وصف « أقدم مدينة فى العالم » ، والمقصود بهذا أنها **أقدم مدينة ظلت مأهولة بالسكان على مر العصور ، ومازالت مزدهرة حتى اليوم ..** فهناك مدن أقدم منها ، لكنها اندثرت وعفى عليها الزمان .. ومدن أخرى كانت ذات امجاد وتاريخ ، ثم فقدت قيمتها ولم يبق منها غير اطلال دارسة (مثل بصرى الشام ، التى كانت عاصمة الرومان المحتلين لسوريا ذات يوم ، ثم تضاءلت قيمتها بعد جلائهم فلم يبق منها اليوم غير قرية صغيرة لا تكاد تحسب فى عداد المدن السورية الرئيسية) . وتدين دمشق ببقائها وازدهارها الى موقعها الهام (فى ملتقى



تمثال لالهة الاخصاب بمتحف دمشق



((زنوبيا)) ملكة (تدمر)

قارات ثلاث) ، ومناخها المعتدل ، ثم الى نشاط أهلها وحيويتهم .

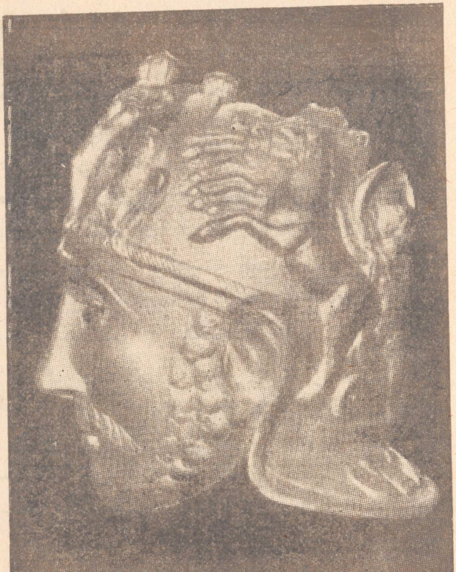
وتعداد سكان دمشق يبلغ نحو **٤٠٠ ألف نسمة** وقد نشطت حركة العمران فيها منذ جلاء الفرنسيين عنها في أعقاب الحرب الاخيرة ، بسرعة هائلة : فشقت الشوارع الفسيحة ، والميادين الكبرى ، وشيدت العمائر والمبانى الحديثة ، بل أنشئت فيها أحياء كاملة على الطرز العصرية (مثل ((حى المهاجرين)) الذى سلفت الاشارة اليه) ، بحيث صار زائر دمشق اليوم يرى فيها المدينتين القديمة والحديثة تتجاوران وتتجاذبان نظر السائح ، وتتقاسمان اهتمامه ووقته ..

ولا يملك زائر دمشق الا ان يذكر ما قاله فيها الشاعر **((لامرتين))** : ((انى اقترب منها ، فيسبح ناظراى فى أروع وأغرب أفق وقع عليه نظر انسان : انها (دمشق) ! .. مآذن المساجد التى لا حصر لها ، وقباب القصور ، تعانق وتعكس أشعة الشمس الغاربة .. والمياه الزرقاء المتلألئة لسبعة أنهار تختفى شيئا فشيئا عبر الطرقات والحدائق ..))

أو قول الاديب **((موريس باريس))** : ((حلم ، قديم قدم الدنيا ، يستكين تحت أشجار الصفصاف ، على ضفة

النهر السريع .. دمشق ، فى شبابها الزاهر ، وشيخوختها العريقة ، وهى تذيع شهرتها الخالدة من بين تلالها الشامخة الحمراء ، تبهرنا وتثير فينا الرقة والحنين .. انها وطن من أوطان الخيال ، وموطن من مواطن الشـــعر ، وقصر من قصور الروح ! »

وفى العدد القادم نواصل باذن الله جولتنا فى دمشـــق ، وسواها من مدن الاقليم السورى ..



قناع وخوذة من العصر الرومانى ، بمتحف دمشق

تهنئة

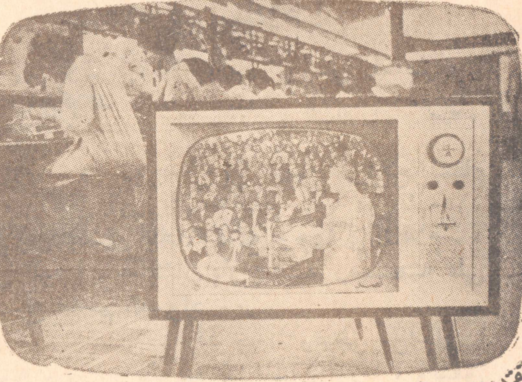
إلى التليفزيون العربي

في عيد ميلاده الأول

٢٠ يوليو ١٩٦٠ ١٩٦١

المعجزة العربية التي تحققت بفضل توجيه ورعاية **الرئيس جمال عبد الناصر**

وفي عهده المشرق



وتحية إلى أبطاله الأوفياء
الذين أرسوا قواعد
هذا الصرح الشامخ..



تقدمها

شركة النصر لصناعة اجهزة التليفزيون

فوراء انتشار إشعاع التليفزيون العربي في كل مكان
يتقدم ركب الصناعة العربية، ويرتفع..

من نصر إلى نصر إلى نصر

ليؤكد عزم الصناع العرب
والمهندسين والخبراء العرب على النجاح الساحق
وتصميمهم على التفوق في كل ميدان جديد يقتحمونه عن جدارة

.. ابتهاجا بالعيد التاسع للثورة المباركة
يبدأ حجز التليفزيون النموذجي العربي

نصر ٢١

بوصة
وغيره من الطرازات المستورده
مقاس ٢١ بوصة

في أشكاله وتصميماته الجذابة المختلفة ، بالموبيليا . بالفورمايكا ، أو عادة
ويتم البيع النقدي عن طريق شركة النصر
وتتم عمليات التقسيط والنقد بمحلات عمر افندي وفروعها

وذلك اعتبارا من اليوم

التسليم لحاملي إخطارات الحجز فقط وقيمة العربون للمتر ٥ جنيهات فقط

(اعلانات عامة)

الشركة تضمن جميع الأجهزة .. وتوفر لها الخدمة والصيانة وقطع الغيار

تحفة العدد القادم من مطبوعات كتابى

ضحكة فى الظلام !

القصة التى تفوق فيها الروائى الروسى المعاصر : ((**فلاديمير نابوكوف**)) على قنبلته الأدبية الأخرى : ((**لوليتا**))

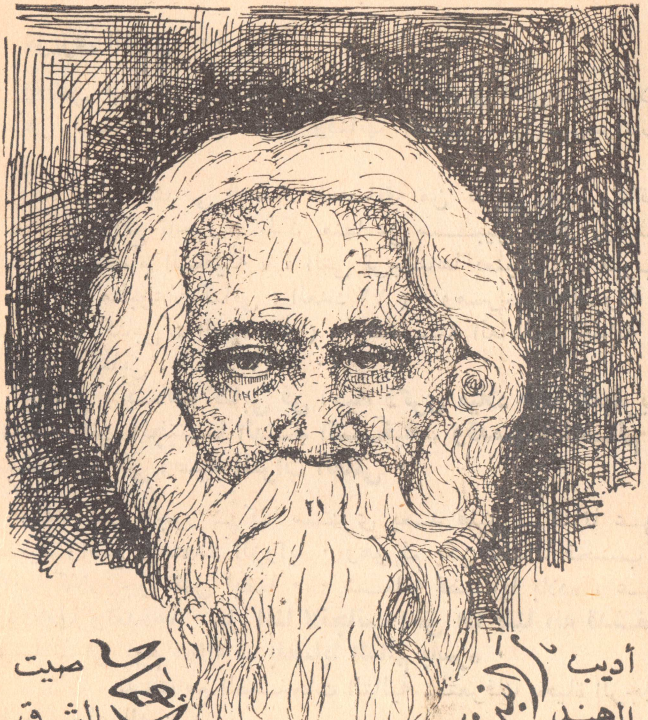
لم تقو ثروته ، ولا زوجته ، ولا ابنته على دفع السأم عن نفسه ، والقلق عن روحه ، والوحشة عن قلبه .. **حتى اذا بلغ به الضيق أقصاه ، لمح وجها فى الظلام .. وجها خيل اليه أن يد فنان بارع قد رسمته على لوحة من نسيج فاحم السواد ..**

وتدله فى هوى صاحبة الوجه ، وهجر من أجلها زوجته وابنته ، وراح يطوف بها بلدان أوربا ، وينفق بسخاء .. **فهل تراها عرفت له حبه وكرمه وافضاله؟**

هذا هو السؤال الذى نسج حوله الكاتب الروسى الأبيض ((فلاديمير نابوكوف)) ــ مؤلف ((لوليتا)) ــ قصته، متخذا خيوط نسيجه من أحداث مثيرة، يلونها الفزع ، والقسوة ، والفجور ، والخيانة الفاضحة ..

لقد ظن كثير من النقاد أن ((لوليتا)) ــ التى أثارت ضجة فى الاوساط الأدبية العالمية منذ عامين ــ هى أوج مجد ((نابوكوف)) .. ولكن ((ضحكة فى الظلام)) أعظم منها وأروع ، حتى لقد أجمع النقاد بسببها على منح ((نابوكوف)) لقب : ((أمير كتاب القصة المعاصرين .))

تصدر قريبا .. احجز نسختك من الآن



رابندرانات تاجور حياته وأعماله

أديب الهند الأشهر الذى أذاع صيت الشرق فى العالمين

اعداد وترجمة : على شلش

عزيزى القارىء ..

احتفل العالم ، منذ أسابيع قليلة بالذكرى المئوية لميلاد شاعر الهند الاكبر وناثرها وفنانها العظيم : رابندرانات تاجور .

وقد قدمنا لك فى الاعداد السابقة من **كتابى ومطبوعاته** عددا من روائع تاجور ، نذكر منها على سبيل المثال روايته الممتازة « حطام السفينة » ، التى ترجمناها بعنوان : « قلوب ضالة » (مطبوعات كتابى : العدد ١٢) ، ومسرحيته المعروفة : تشيترا (كتابى : العدد ٥١) ، وقصته العاطفية الجذابة : المنبوذ (كتابى : العدد ٩١) ..

واليوم ، يساهم كتابى فى احياء ذكرى ميلاد هذه العبقرية الفذة ، التى أنجبتها الهند السخية ، وقدمتها للعالم ، لتشارك بها فى رصيد التراث العالمى .

ولقد كان تاجور ـ كما سترى بعد قليل ـ فنانا على صعيد واسع ، متعدد الزوايا . وهو لم يكن فنانا فحسب ، وانما كان رجل عمل أيضا . . شغلته قضايا بلاده ، على اختلافها وتعددها . **بل اننا لانجانب الحق اذا قلنا انه قدشغل نفسه ـ الى يوم مماته ـ بقضايا العالم بأسره .**

والآن ، ندعك مع الصفحات التالية ، لتعرفك بحياة الرجل العظيم وأعماله :

حياة تاجور

فى القرن الحادى عشر الميلادى كانت الهند مقسمة الى ممالك صغيرة ، تربطها عقيدة دينية واحدة ، هى العقيدة البراهمية ، المنسوبة الى « براهما » ، الاله الخالق القادر .

وفى احدى هذه الممالك ـ وكانت تسمى (كانوى) ـ عاش رجل من البراهمة يدعى « باهاتانا راينا » ، كان كل اهتمامه منصبا على العبادة والدين ٠

وقد حدث أن طلب ملك البنغال من جاره ملك كانوى أن يبعث اليه بوفد من البراهمة ، ليعاونه فى تنظيم حفل دينى بالمملكة ٠٠ وكان أن وقع اختيار ملك كانوى على « بهاتانا راينا » ، فأرسله على رأس وفد مكون من خمسة براهمة ، حوالى عام ١٠٧٢ ٠

وتم الحفل بنجاح ، لكن «بهاتانا راينا» لم يعد الى مملكته ، اذ آثر أن يقضى بقية حياته فى البنغال ، حيث تزوج ، وكون لنفسه أسرة صغيرة ٠٠

من أعظم الأسر فى التاريخ ٠

وسرعان ما نمت الاسرة الصغيرة ، وامتدت أصولها وفروعها عبر السنين ، الى أن ارتقى معظم أفرادها مدارج الشهرة والمجد فى تاريخ البنغال ٠ فقد كان الامير « دواركا نات تاجور » ـ جد رابندرا نات ـ مصلحا كبيرا ونصيرا للعلم والفن ، وكان ابنه « ديفندرا نات » من رواد حركة الاصلاح الدينى فى القرن الماضى ، كما ضمت الأسرة رسامين وشعراء وفلاسفة ، ساهموا فى احياء الثقافة الهندية فى القرن الماضى ٠ فليس من عجب ـ اذن ـ أن يصف البحاثة الأمريكى « ول ديورانت » أسرة تاجور بأنها من أعظم الأسر فى التاريخ !

ومع هذا اتيح لتاريخ هذه الاسرة العريقة الموهوبة أن يشهد ـ قبل أن ينصرم القرن الماضى ـ تفتح موهبة جديدة ، أضافت الى رصيد الأسرة رصيدا جديدا ، أشد وأقوى ٠

يقول نهرو :

« لقد لعبت أسرة تاجور دورا ضخما فى شتى حركات الاصلاح فى البنغال ، خلال القرن التاسع عشر . وكان فيها رجال لهم من عظمة الروح شأن كبير ، وكتاب وفنانون ممتازون . لكن رابندرا نات بزهم جميعا ، وسما عليهم . »

.. تلك الموهبة الجديدة المتعددة الجوانب قد تركزت فى الفتى الأسمر ، النحيل ، الهادىء : رابندرانات تاجور .

الخالدون على موعد !

ولد رابندرا بمدينة (كلكتا) ، عاصمة ولاية البنغال ، التى كانت ـ اذ ذاك ـ أكثر ولايات الهند تقدما . وكان مولده فى السادس من شهر مايو عام ١٨٦١ ، فهو قد ولد فى السبعينيات من القرن الماضى ، أى فى ذات العقد الذى سجل ميلاد مواهب أخرى ـ فى أقطار أخرى من العالم ـ أضافت بدورها الى حصيلة التراث الانسانى شيئا جديدا نافعا . ومن هذه المواهب مواطنه العظيم : **غاندى . وأديبا فرنسا المعروفان : رومان رولان واندريه جيد ، ورائد القصة القصيرة : أنطون تشيكوف ، وأديب بريطانيا : جون جالزورثى ، وشاعر ايرلندا : وليم بتلر ييتس .. الخ**

واسم « رابندرا » معناه باللغة البنغالية : الشمس . وقد أطلقه عليه أبوه تيمنا به ، وعلل ذلك بقوله : « دعوته رابندرا ـ ومعناها الشمس ـ لانه سيجوب العالم ، وسيهتدى الناس بنوره » ..

ثلاث حركات ثورية

وقد ولد رابندرا ابان فترة خطيرة فى تاريخ البنغال والهند على السواء ، ذلك لان مطلع القرن الماضى قد سجل فى البنغال

انبعاث ثلاث حركات على جانب كبير من الخطورة . أولها حركة اصلاح دينى تبناها مصلح ذكى هو « راجا راموهان روى » ، الذى أرسى دعائم عقيدة دينية جديدة ، استوحاها من الديانة المسيحية ، والاسلام ، والنصوص الدينية القديمة ، فجاءت مزيجا حيا يقوم على تقديس الكائن الأعظم ، ومحاربة عبادة الأصنام ، وابطال العادات السيئة التى كانت منتشرة فى ذلك الحين . كعادة احراق الزوجة بمجرد وفاة زوجها !

وكان هدف الحركة الثانية احياء الأدب واللغة ، وتطويرهما ، وقد نهض بها رائد ثورى ، هو « شاندرا شاترجى » .

أما الحركة الثالثة فقد تحولت الى الناحية القومية ، وسجلت فيها تقدما كبيرا ، أثر على كثيرين من معاصريها .

ولم تكن أسرة تاجور بمعزل عن هذه الحركات الثلاث ، وانما شارك فيها جميع أفرادها ، وكانت دار الأسرة - التى ولد فيها رابندرا - مركزا للنشاط الثورى ، على اختلاف ابعاده الثلاثة .

ومن ثم نشأ رابندرا فى جو حافل بشتى ألوان النشاط الأدبى والوطنى والدينى ، مما أثر على روحه الرقيقة ، وجعله يمتزج بما حوله امتزاجا عنيفا ، حطم فى نفسه كل الحواجز والسدود التى تعوق الشاعرية والتأمل والخيال ، وهى صفات وخصائص كانت قد تشكلت فى داخله .

آثار عكسية

على أن هذه النشأة التى أمدته باستقلال مبكر فى الروح ، لم تكن ذات آثار حميدة فى جانب آخر من حياته . ذلك لان محاولات ارساله الى المدرسة مالبثت أن فشلت تماما ،

ولم يكن ذلك راجعا الى تقصير أو غباء من جهته ـ فقد شهد له كل من عرفه فى تلك السن بالذكاء والألمعية ـ وانما هو نفور من نظام التعليم الذى كان سائدا فى ذلك الحين ٠٠ فهو يصف أيام دراسته بقوله : « **كان علينا ان نجلس جامدين بلا حراك ، كقطع أثرية فاقدة الحياة فى أحد المتاحف ، بينما الدروس تنهمر علينا من عل ، مثلما تنهمر حبات البرد على الزهور !** »

وهو يعنى بالزهور هنا الأطفال ، الذين كان يرى ضرورة اتاحة كافة الفرص أمامهم ، لكى ينمو فى حرية وانطلاق ٠ لكن هل نما هو فى نطاق هذه الحرية التى طالب بها ؟ ٠٠ الحق ان فشله المتكرر فى الانتظام فى الدراسة قد أصابه ـ فى البداية ـ بخيبة أمل وقنوط ، جعلاه ينطوى على نفسه ، ويبقى فى الدار رهين الجدران ٠

غير أن هذا القلق والقنوط لم يلازماه طويلا ، اذ مالبث أن فتح عينيه على الطبيعة الخلابة ، التى امتدت مظاهرها أمامه بلا حدود ٠ فقد اعتاد أن يقضى معظم أوقاته فى حديقة هادئة ملحقة بالدار ٠

وسيطرت الطبيعة بحسنها وروعتها على روحه تماما ، فراح يتأمل كل شىء حوله ، وهو يناجى الطيور السابحة فى الفضاء ، ويغازل الورود والازهار ، بل انه كان يرخى العنان لقلبه وعقله ، متيحا لهما أن ينهلا من هذا الحسن الماثل أمامه بلا ثمن ، متأملا ـ فى الوقت نفسه ـ كل صغيرة وكبيرة تقع عليها حواسه المتفتحة العطشى ٠

عود الى ماض عريق

وحار الوالد المثقف الطيب ـ دفندرا نات ـ فى أمر ولده المتمرد القلق : ماذا يفعل من أجله ؟ ان داره منتدى

للثقافة ، وملتقى للمثقفين والفنانين ، فماذا عساهم يقولون لو علموا بأمر هذا الولد الهارب من الدراسة ؟

فكر الأب طويلا ، واستعان باتساع أفقه ، وبعد نظره • وما لبث أن استدعى المعلمين الى داره ، حيث عهد اليهم بأمر رابندرا ••

ونجحت المحاولة هذه المرة • فقد أبدى الصبى اهتماما ، لا مزيد عليه ، بالدراسة والعلوم • لكنه كان اهتماما من نوع غير مألوف بالنسبة لمن هم فى سنه • ذلك لانه تعلق بالأدب القديم أيما تعلق ، وبذل من الجهد والعناء ، فى فهمه واكتناه معانيه ، القدر الذى يبذله الدارس المتخصص ، مع فارق السن والتجربة • وكانت أسفار « الاوبانيشاد » أول ماوقعت عليه عيناه : فقد استهواه سمو المعانى ، وعفة الخيال ، وعمق الفكرة •• وانتقل بعد ذلك الى شعراء الهند القدامى والمحدثين ، فقرأ أشعارهم ، ونهل من فيض معينهم •

رحلة الى لندن

وأحس أبوه أنه ماض فى طريق وعرة ، وهو لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره بعد ، ومن ثم قرر ايفاده الى انجلترا ، حتى يكمل تعليمه هناك ، ليعود بعد ذلك متسلحا بالأسلحة التى تعينه على مواجهة الحياة •

وأبحر الفتى الى لندن فى العشرين من سبتمبر عام ١٨٧٧ ، يرافقه شقيقه ، بقصد دراسة القانون ••

لكن القانون لم يلبث أن تحول الى أدب • ذلك لأن رابندرا لم يكن تستهويه دراسة علم جاف كالقانون ، وانما اجتذبه ذلك التراث الهائل من الشعر الذى خلفه شكسبير وملتون وشيلى ووليم بليك ، فراح يعب منه فى ساعات فراغه ، تاركا أصول القانون وأبحاثه ••

وهكذا حالفه الفشل فى الدراسة مرة أخرى ، فعاد الى وطنه بعد عام واحدقضاه فى لندن ، غارقا فى خيال الشعراءالانجليز، متأملا مظاهر الطبيعة من حوله ٠

زواج ٠٠ من الشعر والفن

عاد رابندرا الى انهند ليجد ان الأفكار الثورية ـ فى الدين والأدب والسياسة ـ قد شرعت تنفذ الى أفئدة الناس وعقولهم ٠ وظهر رابندرا على مسرح الحياة ، وفى نفسه تصميم على الخلق والاضافة ٠٠ لقد تفتحت موهبته ، فأخذ ينظم الشعر ، ويغنيه ، ويلحنه ، آنا بنفسه وآنا آخر بمعاونةأخوته وأقاربه ٠

وخرجت أشعاره وأغنياته ـ أول ماخرجت ـ فى ثوب بسيط وأفكار واضحة بسيطة أيضا ، لكنها حملت معها روحا جديدة لم تكن مألوفة فى الشعر البنغالى آنذاك ، مما لفت الانظاراليه، وجعل النقاد والمتزمتين على السواء يناصبونه العداء ٠ فهم لم يألفوا لونا من الشعر أوالأدب على شاكلة ما أحدثه هذا الفتى اليافع الذى عاد من بلاد مستعمريهم ، وفى جعبته الكثير من كنوزهم ، بينما فى روحه آمال كبار ٠ ومضى القرن التاسع عشر يحث الخطى نحو النهاية ، لكن كل عام انقضى منه كان يعلى من شأن موهبة « رابندرا نات » التى ازدادت توقدا واشتعالا ٠٠

كيوبيد يطارده

لكن هل يمكن أن يسلم شاعر رقيق الحس والوجدان من تجربة الحب الحقيقى ؟ ٠٠ ان تاريخ الأدباء والشعراء يجيب بالنفى القاطع على السؤال ، فما بالنا بشاعر بلغت به الرقة والحساسية حدا جعله يعتبر نفسه جزءا من الطبيعة ذاتها ؟



تاجور فى شبابه « عام ١٨٨٥ »

لقد أحب الفتى ، منذ نعومة أظفاره ، هذه الطبيعة ، وعشق حسنها .. **فلم لا يعشق المرأة ؟ أو ليست كالزهرة الغضة التي أسره حسنها ، قبل أن يتعمق في تركيبها ؟**

لقد هفت روحه الى المرأة ، وهو على عتبات عامه الثالث والعشرين . فقد أحب فتاة رقيقة ، يشع من عينيها ذكاء نفاذ ، وتطل من وجهها روح هادئة خجولة . وكان اسمها : **« مريناليني ديفى »** .. التقى بها فى مدينة كلكتا ، فأحس بالهوى يعتصر جوانحه .. ولم يلبث أن طلب يدها .

وتزوج الشاعر الفنان ، وانزاحت عن قلبه تلك الوحشة التي تسللت اليه اثر عودته من انجلترا . لكنه لم يلبث أن انتقل الى الريف ، فاستقر فى ربوعه ، ومعه زوجته ، حيث عاش هناك فترة ، أنجب فيها أطفالا من الشعر والانس على السواء .

دار السلام

وفى عام ١٩٠٠ رحل مرة أخرى الى الخارج ، فزار انجلترا وايطاليا وفرنسا ، سائحا متأملا . لكن تيار الحنين الى وطنه لم يلبث أن جرفه من جديد . فعاد الى الهند ، وقد أصبح صيته يدوى فى كل الاقطار التى زارها ، والتى لم يزرها ..

وفى تلك الأثناء كان تاجور مهتما ببلاده أشد الاهتمام ، وبهؤلاء الناس الطيبين الوديعين ، الذين يملأون الريف نشاطا وخيرا . ومن ثم فكر فى ضرورة العمل على خدمتهم وتيسير سبل التعليم أمام أولادهم . وهو لا ينسى أنه قاسى الأمرين من ذلك النظام التعليمى البغيض ، الذى فرضه الاستعمار على بنى وطنه ، لذلك استقر رأيه على تأسيس معهد متواضع لخدمة الريف وأبنائه . ففى عام ١٩٠١ اختار تاجور بقعة هادئة بالقرب من مدينة كلكتا ، أسس فيها ذلك المعهد

الصغير، الذى عرف باسم (شانتينيكيتان) ، أى دار السلام . وكان أبوه قد مر بهذه البقعة قبل مائة سنة ، فتأثر كثيرا بهدوئها وصفاء جوها ، مما جعله يؤسس هناك قاعة للصلاة والعبادة ، خصصها للمسافرين والحجاج المجهدين من عناء الطريق ..

فلسفته فى الحياة والتربية

كان تاجور يؤمن بالعلم والتعليم، ويؤمن أيضا برسالتيهما ، لكنه كان يبغض الوسائل المتبعة فى عصره ، وخاصة فى تربية الطفل . ومن ثم أخذ على عاتقه مهمة تثقيف الأجيال الغضة عن طريق أتاحة الفرص أمامها ، لكى تنمو وتتفتح فى حرية وانطلاق موجهين بتعاليم مأخوذة عن خبرة عميقة بنفسية الطفل .. كانت المدرسة ــ لديه ــ مكانا محببا يجب أن يرغب الطفل فيه ، بحيث لا يفر منه ، كما فر هو من قبل .. والمعلم ــ لديه ــ بطل ، وفنان مبدع للحياة .. والتعليم ــ فى النهاية ــ لابد أن يجعل حياتنا متسقة مع الوجود بأسره



صورة للدار التى كان تاجور يفضلها لسكناه فى «شانتينيكيتان» وقد ألهمته كثيرا من روائعه

.. أن الحرية ، والتعبير الذاتي الخلاق ، والاتصال الايجابى بالطبيعة ، والعلاقة المباشرة بحياة الجماعة .. كل هذه مبادىء أساسية لفلسفة تاجور فى التربية ، تلك الفلسفة التى نبعت من فلسفته فى الحياة ، وهى فلسفة تتركز فى الترحيب بالحياة والابتهاج بها ، كما نحتفى بالسعادة الداخلية الناشئة عن تحقيق الأهداف وبلوغها .

المصائب لا تأتى فرادى !

ولم يكد تاجور يستقر فى معهده هذا ، حتى فجع فى زوجته ، التى توفيت فى عام ١٩٠٢ . ثم توالت المصائب بعد ذلك ، واحدة تلو الأخرى : توفيت ابنته الكبرى فى عام ١٩٠٤ ، وتوفى أبوه فى عام ١٩٠٥ ، وابنه الاصغر فى عام ١٩٠٧ .. .. وكان قد مر بتجربة الموت قبل ذلك ، حين فقد أمه وهو فى السابعة من عمره . لكنه وجد عزاء ـ آنذاك ـ فى حداثة سنة . أما وقد جاوز الأربعين ، فالمصيبة أعظم ـ كما يقول شاعرنا العربى ـ ذلك لأنه أحس بالعالم يخبو ، وبالوحشة تخيم على الكائنات من حوله . وماذا يصنع شاعر مرهف الحس فى ظرف كهذا ؟.. لقد اعتصرته المحنة ، وزلزلته من الداخل .. فلم يجد سوى الشعر فى النهاية ، فحط رحاله ، ومضى يبث القلم والورق لواعجه وأشجانه ، حتى انتظم لديه فى النهاية ديوان كامل من الشعر الغنائى ، أطلق عليه اسم (جيتا نجالى) : **أى « قربان الأغانى »** .

قربان الأغانى يرفعه الى المجد

كان ظهور ذلك الديوان ـ الذى در عليه فيضا من الشهرة والصيت ـ فى عام ١٩٠٩ .. وقد نظمه باللغة البنغالية . لكنه لم يلبث أن ترجم الى الانجليزية فى عام ١٩١٢ ، وكتب

مقدمته الشاعر الأيرلندى الكبير وليم بتلر ييتس ، الذى احتفى به ، وسعى الى معرفة ناظمه ، الى أن التقيا فى لندن ، حيث جمعتهما صداقة وطيدة ، دامت سنوات طويلة ، وانتهت بوفاة ييتس فى عام ١٩٣٦ .

كتب ييتس فى مقدمته يقول :

« لقد حملت معى مخطوط هذه الترجمة أياما ، وكنت أطالع فيه فى القطارات ، وفى عربات الأوتوبيس ، وفى المطاعم . وكثيرا ما كنت أكف عن المطالعة ، فأغلق المخطوط ، خشية أن يلحظ على أحد جنونى به . فهذه القصائد الفنائية قد استعرضت بأفكارها عالما كم تمنيت — فى أحلامى — أن أعيش فيه . »

ولم يكن موقف « ييتس » من أشعار تاجور موقفا غريبا ، أو مغالى فيه ، ذلك لأنها قدمت للعالم لونا جديدا من الاحساس الشعرى ، المنظوم بعاطفة مشبوبة ، يسندها عالم بأكمله من الصور والأفكار .

واستقبل العالم الديوان استقبال الغزاة الفاتحين ، وصفقت لناظمه أوربا ، سواء فى ترجمته الانجليزية أم فى زميلتها الفرنسية ، التى قام بها أديب فرنسا الكبير « أندريه جيد » ..

أول شرقى ينال جائزة نوبل

وقدرته المحافل الأدبية ، ورشحته لجائزة نوبل ، فنالها فى عام ١٩١٣ . ومن طريف ما يذكر أن تاجور تنازل يومئذ عن قيمة الجائزة لمدرسته ، ورفض أن يستغلها لصالحه !..

وقد نال تاجور جائزة نوبل للأدب فى وقت مبكر ، فلم يكن قد مضى على قرار توزيعها — منذ وفاة صاحبها المخترع

السويدى الفريد نوبل ــ أكثر من اثنى عشر عاما . وبذا كان أول أديب من الشرق يفوز بهذه الجائزة ..

وفى ذات السنة (١٩١٣) منحته جامعة كلكتا شهادة



تاجور بين حشد من معجبيه ومستقبليه أثناء جولته فى أوربا عام ١٩٣٠

الدكتوراه .. ومنحه ملك بريطانيا وسام الفروسية برتبة « سير » فى عام ١٩١٤ .

ولعل القليلين هم الذين يعرفون قصة هذه الرتبة الأخيرة . ذلك لأنه تنازل عنها فى عام ١٩١٩ ، احتجاجا على مذبحة « أمرتزار » التى شهدها اقليم البنجاب ، ولم يقبل منذ ذلك التاريخ أن يعيدها الى الحياة مرة أخرى .

المدرسة الصغيرة تتحول الى جامعة دولية

على أن الشعر والفن لم يصرفاه عن رسالته الاجتماعية التى آمن بها . ففى غمار الصراع السياسى الذى شهدته الهند فى الثلث الأول من هذا القرن ، كان تاجور بمثابة قارع الطبول لشعبه المعذب الضائع .. واساه ، وحذره من أعدائه ، وحثه على التقدم والنهوض . فهو لم يكن قط منعزلا عن قضايا بلاده ، وقضايا الانسانية كافة ، ولم يكن من ذلك الصنف من الشعراء الذين يلوذون بالأبراج العاجية وقت الخطر ..

كان تاجور شعلة نشاط ، لا يخمد لها أوار ، رغم تقدمه فى السن ، ورغم زهده ومرضه ..

لذلك نجده يفتتح فى عام ١٩٢١ جامعته الكبيرة ، التى بدأت – يوم أسسها وأطلق عليها اسم شانتينكيتان – بخمسة فقط من التلاميذ . وقد جعل شعارها : « حيث يلتقى العالم بأسره فى مكان واحد » .. ذلك لأنه كان يؤمن بضرورة ازالة الخلافات والحواجز التى تعوق اتصال بنى البشر ، على اختلاف عقائدهم ومستوياتهم ، فهو يؤمن بوحدة الانسان أينما كان . يقول : « ان الفيزفا بهاراتى تمثل الهند بما لديها من ثروة فكرية مطروحة للكافة » .. وبهذا المفهوم الانسانى الرفيع أوضح تاجور المربى قيمة الالتقاء

الثقافى ، أو المعاشرة الثقافية ، على حد تعبير النائب الحالى لمدير « الفيزفابهاراتى » ، وهو الاسم الذى عرفت به الجامعة ..

وهكذا ضمت أقسام (الفيزفا بهاراتى) العديدة ، طلابا من شتى أنحاء الارض ، يختلفون اليها ليدرسوا فيها كافة العلوم العصرية وغير العصرية على السواء . ذلك لأنك تجد فيها الموسيقى والرقص جنبا الى جنب مع الدراسات القديمة ، كدراسة اللغات والاديان .

وللجامعة أيضا تقاليد وروح خاصة ، تجعلان منها نمطا فريدا من الجامعات . كما أن لها توأما آخر لا يقل عنها مكانة أو شهرة .. تلك هى شرينكيتان : **دار الثروة** ، التى أسسها تاجور لتكون مركزا لاصلاح الريف بالقرب من شانتينيكيتان .

وفى هذا المركز بذل تاجور تجربة عمره بأسرها ، فقد تدافعت الى ذهنه انطباعات طفولته وصباه عن الفلاحين الذين عاشرهم ، وخبر أحوالهم . ومن ثم لم يستطع أن يقاوم الاحساس العنيف بضرورة مساعدتهم ..

سندباد عصره

كان شغف تاجور بالرحلات جما ، فريدا فى الوقت ذاته . فمنذ أن قام بأول رحلة الى انجلترا فى صباه ، وهو دائم التفكير فى التنقل والارتحال . لكنه لم يكن تفكيرا مجردا لذاته ، وانما قام على أساس أن الرحلات وسيلة للتفاهم ، وتبادل المعرفة والخبرة . وكان هذا التفكير يزداد حدة كلما تقدمت السن بتاجور . فقد زار اليابان فى سن الخامسة والخمسين ، وزار أمريكا فى التاسعة والخمسين ، وزار أوربا أكثر من مرة بعد أن تجاوز الستين .



تاجور فى بداية حياته ، والى جواره زوجته «مرينالينى ديفى» ،
وكانت اذذاك فى الثالثة عشرة من عمرها

لم يدع تاجور قطرا معروفا دون زيارة أو زيارتين • وقد أمدته هذه الزيارات والرحلات بشعبية لا نظير لها • فما من قطر زاره ، الا وتجمع أهله لمصافحته والترحيب به ، بل ومطاردته - أيضا - أينما حل ! •• فقد كانوا يلمسون في أحاديثه عذوبة وأبوة حانية ، وكلما ازدادوا قربا منه ، كانوا يحسون بجلال ومهابة يشعان من وجهه وعينيه الوقادتين ، ويتأملون هذه النفحة التى أهداهم الشرق اياها ، فلا يملكون الا الاعجاب والثناء •

لقد صوره الروائى الفرنسى الكبير رومان رولان - وقد كان صديقا حميما له - بقوله :

« هادىء النبرة ، متناغم الحركة ، عيناه سوداوان لماعتان ، تعكسان جلاله الصافى • اذا قاربته فكأنك تدخل هيكلا ، فتخاطبه بصوت خفيض • انك تلحظ فى وجهه النبيل ، خلال النغم ، وموسيقى الخطوط ، ذلك الألم الذى يسيطر عليه ، كما تلحظ رجولة فذة تتحدى معارك الحياة • »

فهكذا كان تاجور أمام الآخرين ، بل وأمام نفسه أيضا ، ذلك لانه كان يتمتع بوحدة فريدة فى شخصيته •

تاجور فى الاسكندرية والقاهرة

وكانت مصر ضمن الأقطار التى زارها تاجور فى عامه الخامس والستين •• وهى قد عرفته - على البعد - شاعرا فحلا ، ألهم الكثيرين من شعرائها ومثقفيها الشباب فى فترة مابين الحربين •

وكثيرا ما تتبعه المثقفون والأدباء وتنسموا أخباره ، وودوا لو صافحت وجوههم وجه هذا الشاعر ، الذى بهرهم بقوة خياله وصفاء روحه • ثم جاءت الفرصة على غير موعد سابق ••

ففى صباح السبت ٢٧ من نوفمبر عام ١٩٢٦ ، رست بميناء الاسكندرية الباخرة الرومانية (الامبراطور تراجان) ، قادمة من أوربا ، وعلى ظهرها الضيف العظيم ، يرافقه عدد من أفراد أسرته ، من بينهم ابنه وزوجة ابنه وحفيدته الطفلة ·

وما أن علم الناس بوصوله ، حتى خفوا لاستقباله على ظهر الباخرة · ووقف هو يرحب بهم ، ويتفرس فى وجوههم مبتسما محييا ، كطفل وجد ضالته بعد طول غياب ·

يصفه الاستاذ نيقولا يوسف ـ وقد أتيح له أن يراه فى شبابه ـ بقوله :

« **كان ـ آنئذ ـ شيخا فى الخامسة والستين ·· مديد القامة ، أسمر اللون ، مشرق الوجه مستطيله** ، عريض الجبهة ، مهيب الطلعة ، ذا لحية بيضاء مسترسلة ، وشعر أبيض متهدل ، يبدو تحت قلنسوة عالية ـ غير منتظمة الحواشى ـ من القطيفة السوداء · ذا عينين واسعتين سوداوين عميقتين ، يشع منهما الذكاء والحنان ، وابتسامة حلوة بريئة ، وصوت منخفض مسموع هادىء النبرة ·· تكسوه عباءة فضفاضة برتقالية اللون ، تستر ماتحتها من الملابس الشرقية ، ويرى من تحت ذيولها « بنطلون » رمادى عادى · »

فلسفة الشاعر هى فلسفة الشعب

ففى اليوم التالى أقيم له احتفال ضخم على مسرح « الحمراء » بالاسكندرية ، شهده جمع حافل من المسئولين والمثقفين ورجالات الجالية الهندية · ثم ألقى تاجور محاضرة قيمة ، عنوانها « فلسفة قومنا » ، قال فيها انه ليس فيلسوفا ، وانما هو شاعر فحسب « كالكثير من أهل الهند لاتتعدى فلسفتى فلسفة الشعب » ·· وتلك فلسفة الشاعر

- يرى الشعر والفلسفة سلاحين من أسلحة تحقيق كمال الاتصال بالحياة .. ودعا الى « الانطلاق الى حيث تجد النفوس ماتتوق اليه من حقيقة الحياة الروحية ، التى هى أساس الكمال الانسانى ومصدر الطمأنينة النفسية . »

وانتقل تاجور بعد ذلك الى القاهرة ، حيث كان فى استقباله - بالمحطة - عدد كبير من العرب والأجانب ، وعلى رأسهم أمير شعراء العصر أحمد شوقى .

أمير الشعراء يحتفى به

وفى المساء أقام أمير الشعراء حفل شاى لتكريمه بداره المعروفة باسم : كرمة ابن هانىء ، شهدها عدد من السياسيين والأدباء ، من بينهم : سعد زغلول ، أحمد لطفى السيد ، حافظ ابراهيم ، محمد حسين هيكل ، عبد العزيز البشرى ، وكثيرون غيرهم من العرب والاجانب .

ونهض تاجور ، فارتجل كلمة باللغة الانجليزية ، حيا فيها الحاضرين ، وشكر لهم تأجيل انعقاد مجلس النواب احتفاء به ، ثم أشار الى روح الشرق فى الثقافة والشعر قائلا :

« **ان بلدكم بلد شرقى هو مصر . وقديما كان الشرق مهبط الشعر ومهد الشعراء** . وقديما كان الشرقيون أشد الناس احتراما للشعر واعزازا للشعراء .

« تلك ميزة الشرق المعنوية - وهى ميزته الكبرى - وانى سأحمل الى بلادى مجموعة من نفائس الثقافة العربية ، لكى ينتفع بها المتأدبون من أهل بلادى . » ..

عبد الوهاب يغنى لتاجور

ثم جاء دور الموسيقى والغناء . فغنى الموسيقار محمد عبد الوهاب بعضا من أغانيه ، بينما الضيف الكبير منصت ، متتبع للنغم ووقع الكلمات . وليس من غرابة فى ذلك فقد

كان تاجور يجيد الغناء كما يجيد التلحين . وقد استمع اليه الجمهور فى الاسكندرية والقاهرة وهو يغنى شعره ملحنا ، فطرب له أيما طرب ، وحار الناس - آنذاك - اذ سمعوه يلون صوته فى براعة ، ومقدرة فائقة على الترخيم والتلوين ..

ولم تنقطع حفلات التكريم بعد ذلك ، اذ تتابعت وتنوعت ، مصحوبة بصفحات كاملة من صحف ذلك العهد فى التعريف بالضيف العظيم ذى الموهبة المتعددة الزوايا .. كتب عنه طه حسين والعقاد والرافعى وهيكل والمازنى ، ونظمت من أجله قصائد التكريم والترحيب ، وأفاض الخطباء والأدباء فى ذكر مكانته ومزاياه .

العودة للوطن

وانتهت زيارة تاجور في الثانى من ديسمبر ١٩٢٦ ، بعد ستة أيام قضاها فى « قطعة من فؤاد الشرق » - على حد تعبيره فى احدى قصائده عن افريقيا - غنية بأحاسيسها وحبها له ..

وعقب عودته الى الوطن ، دعته جامعة اكسفورد فى عام ١٩٢٨ لالقاء سلسلة من المحاضرات على طلبتها . لكنه ما أن استعد للسفر ، حتى داهمه المرض ، فألزمه الفراش فترة من الوقت ، اضطر خلالها الى الاعتذار عن قبول الدعوة .

رسائل من روسيا

ثم سافر الى الاتحاد السوفييتى فى عام ١٩٣١ ، حيث أقام فترة ، درس فيها أحوال الشعب الروسى ..

وخرج من رحلته هذه بكتاب جعل عنوانه : **رسائل من روسيا** ، جمع فيه انطباعاته عن الحياة والفكر هناك .

وما أن لاحت نذر الحرب العالمية الثانية فى الجو السياسى ، حتى بادر الشاعر بالعودة الى وطنه - وهو أشد مايكون

مقتا واحتقارا للنازية والفاشية ، اللتين سبق له أن هاجمهما فى عقر دارهما - حيث أقام فى شانتينكيتان ، بين تلاميذه ومواطنيه من الفلاحين البسطاء .

وفى ١٩٤٠ منحته جامعة اكسفورد درجة الدكتوراه فى الأدب ، تقديرا لجهوده ، واعترافا بفضله . لكنه لم يأبه كثيرا بهذا الشرف الذى ناله - وتلك كانت عادته - فقد مضى الى نفسه يراجعها ، غير ملتفت الى صيحات التقدير والثناء التى عمت العالم بأسره ، قانعا ببيت صغير متواضع ، شيده من أديم الارض ، وأطلق عليه اسم « سيامالى » ، ولم يبخل عليه بقصيدة تعد من أروع شعره .

بداية النهاية

وحلت ذكرى ميلاده الثمانين ، فاجتمع الناس للاحتفال به وتكريمه ، لكنه لم يكن فى حال تسمح له بمشاركتهم ، اذ كان المرض قد سرى الى جسده الرقيق ، فأقعده عن الحركة ..

لقد ضعفت صحته ، وازدادت حالته سوءا ، يوما بعد يوم . ومع ذلك كان يقاوم المرض ، ويتحمل أوجاعه - رغم شيخوخته - بشجاعة وصلابة ، دونهما شجاعة وصلابة ابن العشرين .

لم يكن يخشى الموت قط . اذ الموت لديه - كما عبر عن ذلك فى قصيدته التى ستطالعها فى غير هذ المكان - أجازة ينالها المرء ، ليحلق بعد ذلك فى عالم أعظم وأكمل .

لكن ، أيصمت رجل عطوف القلب - اعتبر العالم بأسره وطنا له - على هذه المظالم الوحشية التى كانت ترددها الأنباء من حوله كل يوم ، ناقلة اليه تحركات الجيوش الهتلرية فى أوربا ، وغير أوربا ؟ .. أو يلوذ بالصمت ، بينما

العالم يضج صارخا ، مستنجدا بكل ماهو انسانى شريف ؟
.. ذلك فى الواقع ماكان يعذب روحه النبيلة الصافية .
فهو قد جاب الارض من المشرق الى المغرب ، وحمل الى الناس رسالة الحق والسلام والتعاون ، وها هو الآن عليل ، طريح الفراش ، لايملك أن يرفع صوته ، ولا يملك أن يتحرك ، وأن يلحق بالجيوش ، مناشدا ، ساعيا الى أمان العالم وسلامه ..

الحارس العظيم ينهى نوبة الحراسة

لقد كان قيظ يوليو من ذلك العام – ١٩٤١ – يلهب الارض ومن عليها ، ومع ذلك لم يضعه الشاعر فى الاعتبار ، مثلما وضع ذلك اللهيب الحقيقى الذى كان يوشك أن يلم بأطراف الارض بين لحظة وأخرى .

وهرع الشاعر ذات ليلة –وعلى التحديد فى الليلة قبل الاخيرة من شهر يوليو – الى القلم ، وراح يسطر أحاسيسه شعرا ، حتى انتظمت أمامه قصيدة سكب فيها خلاصة عقله وقلبه ، ومنها :

ها قد أزفت ساعة الرحيل .. انى أمضى صفر اليدين ، لكنما الأمل يغمر قلبى .

ان الطير فى فضائه يحلق ، لا ليجوب الخلاء ، وانما ليعود – من حيث أتى – الى عالمه الأعظم .

لقد أحس بدنو منيته ، ومع ذلك فالامل يغمر قلبه الغض النابض ! .. الأمل فى خلاص البشرية من زبانية الدمار .

ولم تكد تمضى ثمانية من الأيام على هذه الحادثة ، حتى فاضت روح الحارس العظيم – فهكذا وصفه غاندى – فى السابع من أغسطس عام ١٩٤١ .. لم تحلق فى الفضاء ، وانما عادت – من حيث أتت – الى عالمها الأعظم !

نظرات في أدب تاجور وفنه

ترى ، ماذا تركت لنا هـذه الحياة الحافلة التى بلغت ثمانين من السنين ؟ ..

لقد عاش رابندرا نات تاجور هذا العمر المديد بصدق واخلاص لنفسه وعالمه ، وكان غزير الانتاج متنوعة .. لم يترك بابا من أبواب الفن أو الأدب دون طرقة أو أكثر من أنامله الرقيقة الحانية .

نظم شعرا ، وكتب قصصا قصيرة وروايات ومسرحيات ، وألف أغان ومقطوعات موسيقية ، ومثل وحاضر ، ودبج بقلمه رسائل لأصدقائه وأقاربه بلغت حدا كبيرا من الروعة والكمال ، وألف فى النقد واللغة والتاريخ وعلم الجمال ، وجاب العالم متنقلا بين بلدانه .. وماذا أيضا ؟

أكمل فنان عرفه العالم

الحق ان تاجور قد حير مؤرخيه ونقاد أدبه ، لكنهم أجمعوا فى النهاية على انه كان فنانا بأوسع معانى هـذه الكلمة ، بل ان أحدهم - وهو الدكتور سـوكو مارسن مؤلف تاريخ الأدب البنغالى - قد قال عنه انه « **أكمل فنان عرفه العالم** » ، ثم أضاف الى ذلك قوله :

« كان المرء يحس ، اذا ما التقى به أو قرأ له ، بأنه يقترب من جبل شامخ من جبال التجربة والحكمة الانسانيتين » ..

الطبيعة هى الأم الحنون

واذا كان تاجور قد نفى عن نفسه صفة الفيلسوف ، واذا كان مؤرخوه ونقاد أدبه قد شاطروه هذا النفى ، بمعنى انه لم يكن فيلسوفا ، ذا نظرية متكاملة شاملة كما هي الحال



تاجور يؤدى مشهدا تمثيليا فى احدى مسرحياته .. وكان فى الثانيـة والعشرين (التقطت فى عام١٨٨٣)

بالنسبة للفلاسفة الاكاديميين ، الا انه كان مفكرا ذا نظرات عميقة صائبة ، نشرها فى مؤلفاته وابداعاته ..

وأبرز هذه النظرات نظرته الى الطبيعة .. ذلك انها كانت مفتاح الحقيقة بالنسبة لأدبه وفنه . وهو قد تعلق بها منذ نعومة أظفاره ، كما يتعلق الطفل بثدى أمه . ومن ثم اعتبر نفسه من مظاهرها ومكوناتها ، شأنه فى ذلك شأن الشجرة والنبات .

كتب الى ناشر شعره ذات مرة يقول :

« اننى ـ أيضا ـ أفهم الشخص الذى تنظر اليه باعتباره رابندرا . فهو شىء من أشياء الطبيعة ، كالبرعم والتويج فى الاشجار والنباتات . **ولو انه أزهر وأورق بشكل طيب ، ولو انه ذبل وخبا ، لما حدث أى ضرر من جراء ذلك !** »

وهذه النظرة مستمدة من فلسفة الهند القديمة ذاتها . ذلك لان الشرق ـ وتمثله الهند ـ يحترم الطبيعة ، ويسلم بها ، ولا يثور عليها . اذ ثمة علاقة وثيقة تربط الانسان بغيره من كائنات الطبيعة ، وهى علاقة أشد ماتكون وضوحا فى الهند . لكن كيف يصل الانسان الى تحقيق هذا الترابط الوثيق ؟ .. ذلك ماشغل بال تاجور . لكنه سرعان ما أجاب عليه فى شعره وفنه وأدبه .. اذ دعا الى مصادقة الطبيعة ، الى الحلول فيها ، الى التعاون معها ، حتى نتمكن فى النهاية من فض أسرارها وكشف غوامضها ..

الشاعر يرى الحقيقة ويظهرها للناس

لم يكن تاجور قد تجاوز عامه الثانى عشر حين فاضت أحاسيسه ، وظهرت الى الوجود شعرا ، لفت أنظار الناس . وجعلهم يهتمون بأمره ..

وقد لازمه نظم الشعر الى أرذل العمر ، وجر عليه الشهرة

والصيت . فقد ترك ــ بعد وفاته ــ تراثا شعريا لا نظير له فى أدب بلاده الحديث ..

ان متذوق شعره يحس ، فور الانتهاء من المطالعة الأولى ، بأنه ولج عالما حافلا ، سدنته الحب والصفاء ، ولحمته الانطلاق والشفافية .. وما ان يعاود المتذوق طرق باب هذا العالم الشعرى الفسيح ، حتى يحس بأنه جديد عليه ، وأنه لم يدخله من قبل ، بل أنه يحس أيضا أنه كان يبحث عنه ..

وفى شعر تاجور عفوية لا حد لها ، وهى عفوية تلمح فيها آثارا من حكمة الهند وروحانيتها . ذلك لأن تاجور لم يرفض التراث القديم ، وانما انكب عليه ونهل منه ، واعتبره مرحلة من حقه أن يضيف اليها .. وتلك كانت ميزته الكبرى ، اذ جدد فى اللغة البنغالية ، ونهض بأساليبها ، وأدخل عليها الكثير من التحسينات والاضافات .

مبادىء أولية فى تذوق الشعر

على أنه من واجب المتذوق، قبل أن يطرق باب هذا العالم الشعرى ، أن يضع فى اعتباره بعض المبادىء الأولية ، التى اقترن بها الشعر العالمى المعاصر وهى :

• **ليس** الشعر هو الواقع بدقائقه وتفاصيله ، وانما هو خلق جديد لهذا الواقع .

• **ليس** الشعر مطابقا للنثر فى شرطى الوضوح وتسلسل الأفكار. وانما الشعر وسيلة للتعبير ، مخالفة تماما للوسيلة الاخرى ، وهى النثر . والفرق بينهما ليس فى مسألة الشكل أو المجاز ، وانما هو فرق فى طريقة التفكير والاحساس . ومن ثم يكون للشعر أن يبتعد عن وضوح النثر ومنطقيته ، ويكون له أيضا أن يستعين بالرموز ، وغير ذلك من وسائل مسعفة .

• **الشعر** يخضع للتجربة ، التى ينسجها الشاعر وفق هواه وثقافته واحساسه. ومن ثم يكون من العسير أن يفسر، وأن يحلل الى عناصره الأولى الموجودة فى الواقع . فقد يرى الشاعر السماء بلون الدم ، رغم أننا نعرف أنها زرقاء صافية ، وهنا يقع الخلاف . اذ يجب أن ندرك أن الشاعر يعرف ــ كما نعرف نحن ــ لون السماء فى الحقيقة والواقع ، لكنه ، فى تجربته الشعرية ، قد رآها على خلاف لونها الحقيقى ، وهذا من حقه .

وعلى هذا نجد تاجور يصف السكون ــ فى احدى قصائده ــ بأنه مشمس ، فلا غرابة فى ذلك ما دمنا قد اتفقنا على ولوج عالم التجربة الشعرية ، ونحن خالين تماما من الأحكام المسبقة ، ومن النزعة المنطقية الآخذة بالاسباب والمقدمات قبل النتائج ..

لماذا تعددت الأشكال الفنية ؟

لقد عرفنا عن تاجور تنوع انتاجه الفنى ، فما سبب ذلك ؟ .. الجواب أنه كان فنانا كاملا ، كما قال الدكتور سوكومار من قبل . والفنان الكامل لا تؤرقه مسألة الشكل الفنى ــ أى انقسامه الى قصة أو قصيدة أو مسرحية ــ وانما يؤرقه الموضوع ذاته بما فيه من دلالات ومضامين . ثم تأتى بعد ذلك مرحلة أخرى هى ما تسمى بمرحلة التفاعل بين الشكل والمضمون .. هذه المرحلة هى التى تحدد الشكل فى النهاية . فقد يرى المبدع موضوعه لا يستقيم الا فى شكل قصيدة ، ومن ثم يخرج العمل الفنى منظوما فى قصيدة ، وهكذا ..

لقد هوى تاجور الرسم وهو على مشارف عامه السبعين ، وفسر ذلك بقوله : **((ان لوحاتى هى شعرى منظوما فى**

خطوط)) . ومعنى ذلك أنه وجد فى الرسم وسيلة مسعفة لنقل مضامينه ودلالاته ، وتوصيلها الى المتلقى والمتذوق .. فلا بأس اذن من أن يستعين بالرسم لافراغ هذه المضامين والدلالات .

ومثل آخر .. يقول تاجور فى قصيدة له ، شرح فيها تغلب روح كتابة القصة القصيرة عليه :

«اننى اشعر بالاضطرار الى كتابة القصص ـ واحدة تلو الاخرى ، وبطريقتى الخاصة ـ **حول حياة المتواضعين الخاملين من الناس ، وحول مسائل ذات دلالات صغيرة ، بسيطة حقا وواضحة .**))

من ذلك كله نتبين مدى الشعور بالمسئولية لدى تاجور ازاء المضامين والدلالات ، وهو شعور جعله ينوع من الأشكال الفنية ، بقدر حاجته الى هذا الشكل أو ذاك !

شاعريته أساس فى كتاباته

على أن روحه الشاعرة وشاعريته المتدفقة قد تغلبتا على ما عداهما من صفات وخصائص فنية ، تمتع بها هذا الشاعر الفذ .

ففى أول مسرحية له ـ كتبها عام ١٨٨١ اثر عودته الأولى من انجلترا ـ نجده يستعين بالشعر فى صياغة أفكاره ، بدلا من الحوار النثرى ، المألوف فى المسرحيات الحديثة .

كذلك لم يكن تاجور فى نثره محللا منطقيا ، يأخذ بالمقدمات والأسباب قبل النتائج ، وانما تسلل الشعر الى نثره ، ففلف ألفاظه ومعانيه ـ فى أحيان كثيرة ـ بالرقة والعذوبة وجنوح الخيال .

الحب الانسانى الشامل

ولم يكن تاجور يقدس شيئا قدر تقديسه للانسان .. باعتباره ظاهرة طبيعية . ومن ثم أحبه تاجور ، وأخلص له حتى النهاية ، والتقى به فى شتى أنحاء الأرض ، وأقام له فى كتاباته وأشعاره هيكلا ، تلا فيه الصلوات من أجله ، فى كل مكان ..

وكما أحب تاجور الانسان أحب الحياة أيضا ، ونظر اليها كحركة متجددة على الدوام .. ومعنى ذلك أن الحياة لديه أزلية تسمح بتناسخ الأرواح ، وما الكون كله الا وحدة شاملة تجمع هذه الحياة بما بعدها من حياة أخرى .

نبوءة أبيه تتحقق

لقد مضى تاجور ، ورحل الى الحياة الأخرى التى نشدها ، بعد أن شغل العالم بموهبته أكثر من نصف قرن ..

غير أن العالم لم ينس هذه الموهبة التى شغلته ، وانما استضاء بنورها ، وقبس من اشعاعها .. تماما كما تنبأ أبوه من قبل ، حين قال انه ـ كالشمس ـ سيجوب العالم ، وسيهتدى الناس بنوره .

أعماله فى سطور

- **أكثر** من ١٥ مجموعة شعرية ، أشهرها : جيتا نجالى ، البستانى ، القمر المهل ، الطيور الشاردة .
- أكثر من ١٠٠ قصة قصيرة .
- أكثر من ٢٠٠ أغنية ، من بينها النشيد القومى للهند المعروف باسم : جانا جانا مانا
- نحو ٢٥ مسرحية من فصل واحد وفصلين ، أشهرها : تشيترا ، الضحية ، مكتب البريد ، الملك والملكة .

• نحو ٨ روايات أشهرها : حطام السفينة (أو قلوب ضالة) ، جورا .

• ٤ مؤلفات فى الأدب الشعبى وفلسفة اللغة وعلم الجمال والرحلات .

• مجموعة ضخمة من الرسائل الخاصة ، التى بعث بها الى أولاده وأصدقائه .

• مجموعة من الرسوم واللوحات تربو على ٢٠٠ لوحة .

هؤلاء قالوا عن تاجور

ماذا كان تاجور : أكان حالما وشاعرا ، أم مغنيا ، أم فنانا وموسيقارا ، أم مؤلفا مسرحيا وممثلا ، أم روائيا وكاتب مقالة ، أم معلما وانسانيا ، أم قوميا وعالميا ، أم فيلسوفا ورجل عمل ؟ .. حتى هذا السجل الموجز لتعدد جوانب حياته لا يفى بأكثر من صورة متواضعة لما كان عليه !

« نهرو »

انما الذى يملأ نفسك فى حضرة تاجور هو تجلى فكرته الروحية فى كل شىء من كيانه المادى .

« طه حسين »

لقد قام خير قيام بالمهمة الموكولة اليه ، مهمة تنوير معاصريه ، وتوجيههم نحو السبيل السوى .

« رومان رولان »

لا أظننى عرفت فى الآداب العالمية نبرة أسمى وأجمل من نبرة تاجور . ان ما يعجبنى فيه ، ويملأنى دموعا وابتساما ، تلك الحيوية الخصبة التى يفيض بها شعره ، فتجعل من التعاليم البرهمانية العويصة شيئا خفاقا ، نابضا بالروح !

« أندريه جيد »

أن قصائده تستعرض بأفكارها عالماً كم تمنيت ، فى أحلامى ، أن أعيش فيه .

« وليم بتلرييتس »



صورة نادرة تمثل تاجور وهو يؤدى أحد ألحانه بمصاحبة ابن أخيه .

باقة من شعر تاجور وأقواله

والآن ، بعد أن فرغت من مطالعة حياة الشاعر العظيم ، يمكنك أن تمضى فى مطالعة هذه الباقة التى انتقيناها لك من انتاج تاجور . ونقدم لك أولا باقة من شعره وأقواله ، ثم مقتطفات من ديوانه المعروف : « **الطيور الشاردة** » .. وأخيرا نقدم لك قصته القصيرة : « **موظف البريد** » .

دلال !

قال لى فى همس : ارفعى عينيك يا حبى
فنهرته بحدة ، وقلت : « أمض ! » ، لكنه لم يحرك ساكنا .
وقف أمامى ، وأمسك بكلتى يدى ، فقلت : « دعنى ! » ،
لكنه لم يمض ..
أدنى وجهه من أذنى ، فنظرت اليه ، وقلت : « يا للعار ! » ،
لكنه لم يحرك ساكنا .
ولامست شفتاه وجنتى ، فارتجفت ، وقلت : «يالجرأتك!» ،
لكنه لم يخجل .
وثبت زهرة فى شعرى ، فقلت : « لا فائدة ! » ،
لكنه وقف بلا حراك .
ثم أخذ الأكليل عن عنقى ، ومضى بعيدا ..
اننى أبكى ، وأسأل قلبى :
لم لا يعود مرة أخرى ؟ !

(من ديوانه : البستانى)

حنان

رأيتها ، فيما يرى النائم ، تجلس الى جوار رأسى .
كانت تداعب خصلات شعرى بأصابعها فى رقة ،

وهى تعزف بلمساتها لحنا .
وتأملت وجهها ، وغالبت دموعى ،
حتى انهال على حزن كلماتى التى لم أنطق بها ،
ففجر نومى كما تفجر الفقاعة .
ونهضت جالسا ، فرأيت تورد الطريق عبر نافذتى ،
مثل عالم من الصمت استقر على النار ،
وحرت :
ترى ، أكانت هى فى تلك اللحظة تحلم
بما كنت أحلم به أنا ؟
.. أو كان حلمها يتجاوب مع حلمى ؟

(من ديوانه : هدية المحب)

أغنية للأم

أماه ، سوف أنسج سلسلة من اللآلىء بدموع حزنى ،
لتكون سوارا يحلى جيدك ..
ان الثروة والصيت يأتيان منك ،
ومن أجلك يعطيان ، ويمسكان عن العطاء .
لكن أساى لا يشاركنى فيه أحد قط ،
فهو لى فقط .
وحينما أقدمه اليك ، قربانا منى ، تكافئيننى
ببركتك وسماحتك .

أنشودة الوداع

أيها الأخوة ، قولوا لى وداعا ، فها قد منحت اجازتى !
اننى أنحنى لكم جميعا ، ثم أمضى فى رحلتى .
وها أنا أرد لكم مفاتيح بابى — مستغنيا عن كل مطالب دارى .
ولست أبغى منكم سوى كلماتكم الطيبة .
فقد كنا جيرانا لمدة طويلة ، لكنكم منحتمونى

أكثر مما أعطيتكم .

وها قد انبلج الفجر ، وانطفأ المصباح الذى كان ينير زاويتى المظلمة .

فقد جاء من يدعونى .. وهاأنذا على استعداد للرحيل .

(من ديوانه : جيتا نجالى)

***

الحقيقة طيبة ونافعة ، اذا ما اتصلت ــ بطريقة أو بأخرى ــ بحياة الانسان .

***

ليس من داع ــ فى القصة القصيرة ــ الى السرد الملون ، وتكديس الوقائع والحوادث ، والتفلسف والوعظ .

***

شخصيتنا هى أول حق فينا : فنحن موجودون ، وذلك ما لا شك فيه .

***

ليس الابن عزيزا على أبيه لذاته ، ولكن لأن الأب يرى فيه امتداد نفسه ، ويرى فيه خلود حياته لأجيال مقبلة .

***

فلسفة الهند تصور الحرية على أنها كمال الاتصال بما يحيط بنا ، فاذا نقص اتصالنا نقصت حريتنا .

***

الجمال هو ادراك الحقيقة كما هى ، والحقيقة ــ من حيث هى ــ جمال لا يعدله جمال .

***

نحن الهنود نؤمن بشىء لا نهائى هو سر الوجود ، وليس فيه شىء من معنى العدم . وغاية أدياننا جميعا أن تدفعنا

لنجد حريتنا فى اللانهائى الكائن على أنه حقيقة ملموسة مفهومة. ولا يمكن أن يكون تطهيرا ما هو ايمان بشىء موجود تمكن معرفته عن طريق الروح .

***

الأمم تختلف فى ظواهرها وتقاليدها وأفكارها ، ولكن الرقى الحقيقى لن يتم الا بالتعاون بينها جميعا ، وبعمل مشترك يقوم به العقل البشرى .

***

تاريخ الانسان انما هو تاريخ تشييد الانسانية العالمية .

ديوان : الطيور الشاردة

والآن نقدم لك شيئا جديدا من روائعه الشعرية ــ لم يسبق أن ترجم الى اللغة العربية ــ وهو ديوان : « الطيور الشاردة » ، الذى ستطالع أهم ما جاء فيه من مقطوعات فى الصفحات التالية .

وقد ظهر هذا الديوان فى عام ١٩١٦ ، حيث قدم فيه تاجور طرازا جديدا من الكتابة الشعرية القريبة من الشعر المنثور ، مزج فيه العاطفة بالعقل ، والحكمة بالوجدان ، فخرج فى النهاية متخذا شكل مقطوعات قصيرة ، لا تزيد سطور معظمها على سطر واحد ، لكنها ــ رغم قصرها ــ تحمل شحنة مشعة من الحكمة والعاطفة فى آن واحد ..

ومما يذكر أن الشاعر قد نظم هذه المقطوعات ــ أو « الحكم » بمعنى آخر ــ ابان الحرب العالمية الأولى . وكان قد أحس ــ اذ ذاك ــ بدنو منيته ، ومن ثم أطلق العنان لروحه الشاعرة ، المتيمة بالانسان حيثما كان ، وأخذ يتنقل

من بستان لآخر ، كطير شارد ، الى أن لجأ الى المرفأ الحنون الذى طالما لجأ اليه من قبل .. مرفأ الحب الانسانى ، فنظم هذه الدرر القصار المشحونة ، التى تردنا الى نبع الحكمة الهندية ، بكل ما فيها من صفاء وجمال وعذوبة :

***

لست تجد قوة الله العظيمة فى العاصفة ، وانما تجدها فى النسيم الرقيق .

***

يحنو الليل على الأزهار فتتفتح فى سرية ، ثم يسمح للنهار بتلقى الشكر على ما أداه من صنيع .

***

طبعت قطرات المطر قبلاتها على الأرض ، وهمست : أماه ، اننا أطفالك الحانين البررة ، نعود اليك من السماء .

***

تمر الأفكار بذهنى كأسراب البط فى السماء .. اننى أسمع رفيف أجنحتها .

***

تحب القناة أن تحسب ان الأنهار لم توجد الا لكى تمدها بالماء .

***

ان الذى يبغى عمل الخير يطرق الباب ، أما الذى يحب فيجد الباب مفتوحا .

***

الفنان عشيق للطبيعة .. ومن ثم فهو عبدها ، وهو سيدها !

***

لا تجعل انعدام شهيتك ذريعة لتوجيه اللوم الى طعامك .

***

اننا ندنو من العظمة حين نكون عظماء فى تواضعنا .

***

العفة ثروة تأتى من وفرة الحب وسخائه .

***

يهمس القوس للسهم قبل أن ينطلق : حريتك فى يدى .

***

أيتها الأفكار الهلوعة ، لا تخافى منى .. اننى شاعر .

***

حين يغدو الانسان حيوانا يكون ـ عندئذ ـ أسوأ من الحيوان .

***

لا يمكن قط للزيف أن يتحول الى حقيقة ، ولو أدى به الأمر الى الاستعانة بالسلطة والقوة .

***

فليكن للموتى خلود الصيت والشهرة ، وليكن للأحياء خلود الحب .

***

الحب هو الحياة فى تمامها وامتلائها ، كالكأس مليئة بخمرها .

***

اطفئى المصباح متى شئت ، فاننى سوف أتبين ظلامك ، وسوف أحبه .

***

طوبى لمن لا تغطى شهرته على حقيقته .

***

ذات مرة تراءى لنا فى المنام أننا كنا غريبين ، ثم استيقظنا فوجدنا أن كلا منا عزيز على الآخر .

***

انني أجلس الى نافذتى هذا الصباح ، حيث يمر بى العالم كعابر سبيل ، فيقف لحظة ، وينحنى لى ، ثم يمضى .

***

لست أستطيع أن أتخير الأجود .. فالأجود يتخيرنى .

***

تنتمى الراحة للعمل ، مثلما تنتمى الجفون للعيون .

***

تشق الزهرة الرضيعة برعمها ، ثم تصيح : ايها العالم العزيز ، أرجوك ، لا تجعل الذبول يتطرق الى نفسك .

***

اننا نطالع صفحة العالم بطريقة تجانب الصواب ، ثم نقول انه يغرر بنا ويخدعنا .

***

تمر ريح الشاعر بالبحر والغابة ، باحثة عن صوته هو !

***

الانسان يضع المتاريس أمام نفسه !

***

فلتكن الحياة جميلة كزهور الصيف ، وليكن الموت جافا كأوراق الخريف .

***

فى الموت يصبح الكثير واحدا ، أما فى الحياة فالواحد يصبح كثيرا .

***

قالت القوة للعالم : انك ملكى ، فسجنها العالم على عرشها . وقال الحب للعالم : انى لك ، فوهبه العالم الحرية فى داره .

***

الجذور أغصان ممتدة فى باطن الأرض . والأغصان جذور فى الهواء .

***

الحلم زوجة عليها أن تتكلم ، والنوم زوج يقاسى فى صمت .

***

يولد العظيم طفلا ، وحين يموت يهب العالم طفولته .

***

اذا أنت أغلقت بابك دون الزيف والضلال ، فسوف تمتنع عليك الحقيقة .

***

الفراغ فى نشاطه عمل ، وسكون البحر يثير الأمواج .

***

قالت الكلمة للعمل : اننى خجلى من خوائى . فقال العمل للكلمة : انى أعرف كم أكون مسكينا حين أراك .

***

صوت حزين عشش بين حطام السنين ، يغنى لى فى الليل قائلا : انى أحببتك .

***

اننى أسكب الماء من جرتى وأنا سائر فى طريقى ، فلا يتبقى لدارى الا القليل .

***

اننى أترك الأشياء الصغيرة من خلفى لأحبابى .. أما الأشياء الكبيرة فاننى تارك اياها للجميع .

***

أيتها المرأة ، انك تجعلين من عمق دموعك سياجا يحف بقلب العالم ، مثلما يحف البحر بالأرض .

***

يرحل الظلام صوب النور ، لكن العمى يرحل صوب الموت .

***

المديح يخجلنى ، مع أننى أسعى اليه سرا .

***

يا أرضى ، جئت الى شاطئك غريبا ، وعشت فى دارك ضيفا ، وغادرت بابك صديقا .

***

لقد انتهى وقت العمل . فاليك وجهى يا أماه ، خبئيه بين ذراعيك ، ودعينى أحلم .

***

كلمة واحدة تبقى لى فى صمتك ، أيها العالم ، حين أموت .. هى أننى « قد أحببت » .

***

اننا نعيش فى هذا العالم حين نحبه .

***

أحب العالم الانسان عندما ابتسم ، وذعر منه عندما ضحك .

***

صمت الاله ينضج أفكار الانسان ، ويجعلها كلاما .

***

سندرك يوما ما أن الموت لايستطيع قط أن يسلب ما جنته أرواحنا من مكاسب، لأن مكاسب الروح جزء لا يتجزأ منها .

***

الهى ، دعنى أعيش بحق ، حتى يصبح الموت حقا بالنسبة لى .

***

ان تاريخ الانسان ينتظر - فى صبر - انتصار الانسان الممتهن .

***

لقد عانيت ، ويئست ، وعرفت الموت ، لكننى سعيد اذ أرانى موجودا فى هذا العالم العظيم .

***

فلتكن آخر كلماتى أننى أثق فى حبك .

موظف البريد

ترجمة : المحرر

كان موظف البريد يمارس عمله فى قرية (أولابور) . وكانت القرية صغيرة ، لاتستحق ان يقام فيها مكتب بريد ، لولا أنه كان يوجد بالقرب منها مصنع كبير ، سعى صاحبه الى انشاء مكتب البريد ، تسهيلا لأعماله . .

وكان موظف البريد قد نشأ في مدينة (كلكتا) الكبيرة ،

فأحس – فى هذه القرية النائية – باحساس السمكة حين يخرجونها من الماء . وكان مكتبه ، ومسكنه الصغير الملحق به ، فى كوخ معتم ، بالقرب من بركة موحلة . وتحيط به من كل جانب أحراش كثيفة الاشجار ..

وكان موظفو المصنع مشغولين بعملهم على الدوام ، الى جانب انهم لم يكونوا من بيئة موظف البريد ، ابن (كلكتا) الفخور بنشأته ، النفور من صحبة الغرباء .. ومن ثم لم يكن للفتى أصدقاء فى القرية ، وكان عمله قليلا ، لا يشغل كل وقته ، فازداد أحساسه بالفراغ الذى يعيش فيه !

وحاول أن يزجى وقت فراغه بنظم الشعر ، لكنه عجز عن الاستغراق بقلبه فى هذه الهواية .. فان المسكين كان يذوب شوقا وحنينا الى (كلكتا) .. كان يتمنى لو أغمض عينيه عن الغابات الموحشة التى حوله ، ثم فتحهما فاذا هو يذرع شوارع مدينته الكبرى الفسيحة ، ومن حوله العمارات الشاهقة التى تحجب سحب السماء !

وكان مرتب الفتى ضئيلا ، فكان يطهو طعامه بنفسه ، ويتقاسمه مع فتاة يتيمة تدعى «راتان» ، كانت تعنى بشؤون مسكنه المتواضع . وفى المساء ، حين تتصاعد سحب الدخان من أكواخ القرية ، وتزقزق العصافير والحشرات فى كل دغل ، ويغنى الشحاذون أغانيهم المألوفة فى أماكن اجتماعاتهم اليومية .. وحين يحس كل شاعر موهوب بانتفاضة غامضة فى أوصاله ، وهو يتأمل رعشة أوراق الشجر فى أحراش (البامبو) الكثيفة .. عندئذ كان الفتى يوقد مصباحه وينادى خادمته :

– راتان !

فتجيبه « راتان » ، التى كانت تجلس خارج الكوخ فى انتظار ندائه :

ــ هل دعوتني يا سيدى ؟

فيسألها : « ماذا تفعلين ؟ »

ــ ينبغى أن أوقد نار المطبخ ، لطهو الطعام .

فيجيبها موظف البريد :

ــ دعى نار المطبخ تنتظر قليلا ، وأشعلى لى غليونى أولا

فتدخل « راتان » ، وتنفخ فى فحمة متقدة كى تذكى نارها ، ثم تشعل له الغليون .. فيتيح له ذلك فرصة التحدث اليها . يسألها عن أمها ــ وهو موضوع للحديث لا ينضب ــ فتسترسل فى الذكريات ، وهى جالسة على الارض عند قدميه : لقد كان أبوها شغوفا بها أكثر من أمها ، ولهذا فهى تذكره فى صورة أكثر وضوحا .. ثم تروح تحدث سيدها عن أخ صغير لها كانت تلعب معه لعبة صيد السمك على شاطىء البحيرة .. ويحلو الحديث ، ويمضى الوقت : حتى يحس موظف البريد بالكسل عن النهوض لطهو أى طعام ، فيكتفى بشرائح من الخبز تقدده له الفتاة على النار ، ثم يكملان عشاءهما بالبقية الباردة من وجبة الصباح .

وفى بعض الامسيات كان الفتى يتحدث عن ذكريات أسرته هو .. عن أمه ، وأخته ، وكل أعزائه الذين يفتقدهم قلبه فى وحدته الموحشة .. ومن فرط ما ألفت الفتاة البسيطة أحاديثه عنهم ، صارت تشير اليهم فى كلامها كأنهم أمها ، واختها ، وأخوها ، وكأنها كانت تعرفهم طوال حياتها !

وذات عصر ، كان المطر ينهمر ، والنسيم البارد يهب على الغابة ، ورائحة الحشائش الرطبة تملأ الجو ، وراح عصفور يرسل نواحه الحزين الشاكى بلا انقطاع .. ولم يكن لدى الفتى ما يفعله ، فجعل يرقب اوراق الشجر التى بللتها قطرات المطر الفضية ، وهى ترتعش فى العراء ، والسحب القاتمة تتجمع من بعيد .. ولم يملك أن حدث نفسه : « آه

لو كان بالقرب منى كائن حنون يفهمنى ، وأستطيع أن أضمه الى صدرى ! » .. وخطر له أن ذلك بالضبط ما كان العصفور يحاول أن يقوله ، وهو الشعور نفسه الذى كانت أوراق الشجر الهامسة تحاول أن تعبر عنه !

ثم هز الرجل المستوحش رأسه فى اكتئاب ، وهتف مناديا : « راتان ! » . وكانت راتان متمددة تحت شجرة « الجوافة » ، تأكل بعض ثمارها الفجة ، فنهضت على عجل تلبى نداء سيدها .. الذى ابتدرها بقوله : « لقد فكرت أن أعلمك القراءة ! » .. ثم انفق بقية الامسية فى تعليمها الحروف الابجدية ، فأظهرت ذكاء وسرعة بديهة .. بينما استمر المطر يهطل بغزارة ، حتى امتلأت القنوات والحفر والفجوات ، وتعذر السير فى طرقات القرية ..

وذات ضحى ، انتظرت التلميذة النجيبة ان يدعوها سيدها كعادته ، فلما طال انتظارها ، حملت كتابها وتسللت الى حجرته فى هدوء ، فألفته مضطجعا فى فراشه . واذ حسبته نائما ، أستدارت لتنصرف فى سكون ، فاذا هو يناديها . وسألته : « هل كنت نائما يا سيدى ؟ » ، لكنه أجابها بصوت واهن : « بل انى مريض . تحسسى جبهتى . الا تجدينها ساخنة ؟ »

وفى وحشته ، وكآبة الجو المطير ، أحس بحنين الى لمسة حانية من يد ناعمة على جبينه .. وانتابه شوق الى وجود المرأة المحبة .. شوق الى قربى الأم والأخت .. ولم يخب أمله ، فقد كفت «راتان» عن أن تكون فتاة صغيرة ، وقفزت فجأة الى مرتبة الأم : فاستدعت له طبيب القرية ، وأعطته الدواء فى اوقاته المقررة ، وسهرت طوال الليالى الى جوار فراشه ..

على أنه لم يكد يبل أخيرا من مرضه ، حتى كان صبره

على الاقامة فى القرية الصغيرة قد نفد ، فكتب الى رؤسائه فى كلكتا طالبا نقله الى جهة أخرى، بسبب عدم ملاءمة القرية لصحته .

واذ أعفيت « راتان » من مهمتها كممرضة ، عادت الى مكانها السابق خارج الباب ! .. لكنها لم تعد تسمع النداء القديم . وصارت تطل أحيانا على سيدها ، فتراه جالسا فى مقعده بلا حراك ، أو مضطجعا فى سريره ينظر الى لا شىء .. فبينما كانت « راتان » تنتظر نداءه ، كان هو ينتظر الرد على طلب نقله .. !

وبعد نحو أسبوع ، سمعته « راتان » ذات مساء يناديها .. فاندفعت الى مخدعه صائحة ، من قلب خلى ، كما اعتادت أن تفعل :

— هل ناديتنى يا سيدى ؟

فأجابها : « انى راحل فى الغد يا راتان ! »

— الى أين ؟

— الى موطنى .

— ومتى ستعود ؟

— لن أعود !

واستطرد يقول : ان طلب نقله قد رفض ، فاستقال من عمله ، وتأهب للعودة الى موطنه !

لزم كلاهما الصمت ، برهة طويلة ، ثم نهضت « راتان » فمضت الى المطبخ لتحضر له وجبة طعام .. لكنها لم تكن سريعة فى انجازها كعادتها. كان رأسها قد امتلأ بأشياء كثيرة تفكر فيها . فلما فرغ سيدها من عشائه ، سألته بغتة : « هل لك أن تأخذنى معك الى موطنك ؟ »

فضحك وقال : « يا لها من فكرة ! » .. لكنه لم ير داعيا لأن يشرح للفتاة لماذا بدت له فكرتها سخيفة ومستحيلة !

..وطوال تلك الليلة ، راح جوابه الساخر يرن فى اذنيها ، فى صحوها ومنامها : « يا لها من فكرة ! » .. فلما استيقظ فى الصباح ، وجد حمامه اليومى معدا. كانت قد نهضت قبل شروق الشمس لتجلب له الماء من النهر ، فلما فرغ من الحمام سمعته يناديها ، فدخلت صامتة ، ونظرت الى وجه سيدها متطلعة ، تنتظر أوامره . فقال لها : « لا ينبغى لك أن تقلقى بسبب رحيلى يا « راتان » ، فسوف أوصى خلفى كى يعتنى بك »

يا لقلب المرأة . وغموضه ! .. لقد احتملت « راتان » فيما مضى أكثر من تقريع من سيدها ، دون تذمر ، لكنها لم تحتمل هذه الكلمات الرقيقة .. فأجهشت بالبكاء وهتفت : « كلا ، كلا ، لا حاجة بك لأن توصى بى أحدا ، فلست أبغى البقاء هنا بعد الآن »

وعقلت الدهشة لسان الفتى ، فلم يحر جوابا .. انه لم ير « راتان » على هذه الصورة من قبل !

***

ولم يلبث أن وصل موظف البريد الجديد ، فسلمه سلفه مهام عمله ، ثم أعد عدته للسفر الى كلكتا . لكنه قبل أن يبدأ رحلته ، استدعى « راتان » ، وأخرج من جيبه مرتب الشهر الأخير - فلم يحجز منه سوى نفقات السفر - ومد يده به اليها ، قائلا : « هاك مبلغ أرجو أن يكفيك لفترة من الوقت » .. لكنها بدلا من أن تتناوله منه ، ارتمت عند قدميه صارخة : « أوه ، بربك لا تعطنى شيئا . لا تزعج نفسك البتة بسببى ! » .. ثم انطلقت تعدو بعيدا ، لا تلوى على شىء !

لبث موظف البريد يرقب ابتعادها فى أسى .. وأخيرا

تناول حقيبته ورفع مظلته فوق رأسه ، ثم سار متباطئا نحو الزورق الذى سوف يقله ، وخلفه تابع يحمل صندوق متاعه المصنوع من الصفيح . وحين أوغل الزورق فى عرض النهر ، أحس بالكآبة تجثم على صدره وتثقله .. وبحافز يغريه بأن يعود ادراجه ليصطحب معه تلك الصبية اليتيمة التى لا سند لها ولا صديق .. لكن الريح كانت قد ملأت الأشرعة ، والزورق قد بلغ وسط النهر بالفعل ، مخلفا القرية بعيدا وراء ظهره .. فلم يجد المسافر عزاء له الا فى رحاب الافكار الحكيمة التى راودته : عن تعاقب اللقاء والفراق فى الدنيا .. وعن الموت ، ذلك الفراق الأكبر الذى لا رجعة منه !

لكن «راتان» لم تظفر بشىء من هذه التأملات يريح خاطرها ، فمضت تطوف حول مكتب البريد والدموع تهطل من عينيها . ربما كان لايزال يراودها الامل — فى ركن خفى من قلبها — فى ان سيدها الحبيب سوف يعود . ولعل ذلك ما انقذها من الاستسلام لليأس .. والمرء من طبعه أن يتعلق فى ضراوة بأمل عقيم ، حتى يأتى يوم يجف فيه معينه ، وعندئذ يقطع الحبال التى تقيده اليه ، ويطير لائذا بالفرار !.. تلك هى شيمة الطبيعة البشرية .. أن تستمر اخطاؤها الحمقاء . وليس من السهل أن يتغلب العقل والمنطق على الآمال العقيمة .. والاحلام الجوفاء !

.. ثم تعقب ذلك تعاسة اليقظة .. ولكن ، لا ينقضى وقت طويل ، حتى تعاود المرء الرغبة الملحة فى أن يعود الى ارتكاب نفس الاخطاء !



من حياة الشعوب

عزيزى القارىء ..

حياة الشعوب مرايا تظهر على صفحاتها صور عديدة لما يسلكه هذا الشعب أو ذاك داخل الاطار الاجتماعى الذى يعيش بداخله .. وكثيرا ما تأتى الصورة غريبة ، محيرة ، باعثة على الدهشة ، وكثيرا أيضا ما تتوافق الصورة مع ما يحمله القارىء من صور قريبة الى حياة الشعب الذى ينتمى اليه . لكن هذه الصور - على أية حال - لا تعدم عنصر الامتاع ، بل والافادة فى النهاية ..

وفى هذا الباب الجديد الذى نقدمه لك لأول مرة ، ستتعرف الى لون من ألوان الحياة لدى الشعب اليابانى . وهو لون من السلوك الاجتماعى يعتزبه اليابانيون أيما اعتزاز ، ويضعون له القواعد والأصول ، ليساير طريقتهم فى الحياة .. **أى البساطة ، والتواضع ، والرغبة فى التأمل ، وعشق الجمال .**

ان تناول الشاى - مثلا - له هنا قواعد وأصول لا يجوز الطعن فيها ، وانما هى واجبة الاحترام ، بالنسبة للكبير والصغير على السواء .. بل انها أصبحت عقيدة بذاتها .. تسمى عقيدة الشا - نو - يى ..

وقد اخترنا لك كتابا فى هذا الموضوع عنوانه :

CHA-NO-YU (Tea Cult Of Japan)

.. أى الشا - نو - يى : عقيدة شرب الشاى فى اليابان. وهو من تأليف الكاتب اليابانى « ياسينوسيكى » فيكيكيتا » . وقد أعده الزميل : **يوسف حمودة** .

***

فى العصور القديمة كان الرهبان البوذيون ، فى الصين واليابان ، يشربون الشاى ، ويعللون اقبالهم عليه بأنه يفيد الصحة ، وينعش القوى الذهنية !

وتوارث اليابانيون هذه العادة عن أسلافهم ، فاهتموا بالشاى اهتماما لايعادله اهتمام بقية شعوب العالم مجتمعة . وقد ابتكروا ـ منذ أربعة قرون ونصف ـ طقوسا لتناول الشاى ، أطلقوا عليها اسم : « شا ـ نو ـ يى » .

« الشا ـ نو ـ يى » تسلية وتقليد اجتماعى

يتناول اليابانيون الشاى خلال وبعد كل وجبة من الطعام ، كما يقدمونه لضيوفهم دون تقيد بتوقيت معين . وهم يعدونه وسيلة لخلق جو من الالفة بين المضيف وضيوفه .

والشا ـ نو ـ يى تقليد فريد تتميز به اليابان ، ويستخدم فى اعداده مسحوق الشاى لا أوراقه ، وهى طريقة ترجع ـ فى الأصل ـ الى الصينيين الذين نقلوها الى اليابان عن طريق الرهبان البوذيين .

على أن الملاحظة العابرة لطقوس الشا ـ نو ـ يى قد توحى بأنها « مجرد اتيكيت اجتماعى معقد » ، وهذا ما يرفضه أصحابها . اذ يعتقدون أنها تقليد اجتماعى راسخ ، جدير بالاحترام ، بعيد عن التعقيد .

ولهذا نوجز لك طريقة اعداد الشاى ، وكيفية تناوله ، والحفل الذى يخصص له ، ويسمى شا ـ نو ـ يى .

فعند اعداد مسحوق الشاى يلزم وضعه فى وعاء أكبر من وعاء الشاى العادى ، ثم يصب فوقه الماء المغلى .

واعداد الشاى الثقيل (كيوشا) يستلزم عجن المزيج بضغط مافى الوعاء بواسطة فرشاة مصنوعة من الخيزران .

أما الشاى الخفيف (يوسيشا) فيستلزم اضافة كمية كبيرة من الماء الى المسحوق ، ثم يحرك المزيج بشدة ، أو يرج حتى يصير كثير الرغوة . واذ تتم هذه العمليات الثلاث يبدأ تقديم الشاى الى الزوار والضيوف .

انتقال الشاى من الصين

يؤخذ الشاى من الاوراق الصغيرة ، أو من براعم شجيرات الشاى . وهو يزرع ـ كما هو معروف ـ فى الصين واليابان والهند وسيلان . وقد انتقل من الصين الى اليابان ضمن أشياء أخرى كثيرة انتقلت عن طريق التبادل الحضارى بين البلدين . ويبلغ عمر شجرة الشاى نحو مائة عام ، وقد يبلغ عمر بعضها مائتى عام . وكلما كانت الشجرة متقدمة فى العمر كانت أوراقها أعذب مذاقا .

ومن المعروف أيضا أن للشاى ـ بالاضافة الى مذاقه اللطيف ـ فائدة غذائية لا يستهان بها . **فالشاى اليابانى الأخضر يحتوى على فيتامين ا ، ث . وكذلك يحتوى ـ بدرجة كبيرة ـ على الألكالين والمنجنيز ، الذى يساعد على قتل الميكروبات** . كما أن به كمية من الحديد الذى يلعب دورا هاما فى تنقية الدم .

اساتذة الشا ـ نو ـ يى

أخذت عادة تقديم مسحوق الشاى اليابانية فى الانتشار منذ نقله الرهبان البوذيون الى اليابان فى القرن الخامس عشر .

ولقد وجد أباطرة اليابان وحكامها ـ أيضا ـ متعة كبيرة فى تناول مسحوق الشاى . بل ان بعضهم كان يخصص فى قصره حجرة خاصة ، يقدم فيها مسحوق الشاى لزواره ومريديه . ومن بين الذين وضعوا أسس الشا ـ نو ـ يى رجل الدين شيكو (١٤٢٢ ـ ١٥٠٢) والشاعر النابغ جوو (١٥٠٣ ـ ١٥٥٥) ، وقد عارض الاخير فكرة استخدام أدوات الشاى الغالية ، كما وضع مجموعة من القواعد الاقتصادية البسيطة لحفلات الشا ـ نو ـ يى **وقد كان من**

رأيه أن تقديم مسحوق الشاى انما هو تقديس للنقاء والصفاء الواجبين بين بنى البشر .

على أن هذين الأستاذين قد خلفا ـ من بعدهما ، أفرادا آخرين ، أخذوا على عاتقهم اتمام رسالة الشا ـ نو ـ يى . فمنهم من ابتكر التصميمات لغرف وحدائق الشاى ، ومنهم من تفنن فى أعداد الأدوات التى تتصل باحتفالات الشاى ، كالاوانى والعلب المختلفة الاحجام .

وهكذا أخذت تقاليد الشا ـ نو ـ يى ترسخ وتتدعم ، محتفظة ببساطتها الاولى ، رغم أن الطبقة الارستوقراطيه قد أحالت الشا ـ نو ـ يى الى مباراة فى الفخامة والاسراف !

توجيه الدعوة للشا ـ نو ـ يى

يقوم المضيف باختيار الضيف الرئيسى ، ويسمى : « شوكياكو » ، ويخطره بالدعوة قبل الحفل بأسبوع على الاقل . كما يقوم ـ أيضا ـ بدعوة أربعة ضيوف آخرين ، تتناسب مكانتهم الاجتماعية مع مكانة الضيف الرئيسى ، الذى تعرض عليه أسماؤهم لابداء الرأى فيها .

وقد كانت الدعوة فى الماضى تتم ببطاقة مكتوبة ، لكن البطاقة لم تعد الآن أمرا جوهريا ـ اذ يستعاض عنها ـ فى كثير من الاحيان ـ بالمحادثة التليفونية . على أن المتمسكين بتقاليد الشا ـ نو ـ يى لا يقبلون مثل هذا التصرف الاخير ، وانما يصرون على أن تكون دعوة الضيوف ببطاقة مكتوبة بخط المضيف نفسه .

أما موعد الحفل فهو يختلف باختلاف فصول السنة . ففى الصيف يتم فى الساعة السادسة صباحا ، أو فى وقت الظهيرة ، أو فى الأصيل . وفى الشتاء تحدد الساعة الرابعة بعد الظهر موعدا لحفلات الشاى ، حتى يتمكن الضيوف من مشاهدة الحديقة الملحقة بغرفة الشاى .

وعندما يطول النهار ، فى أشهر يونيو ويوليو وأغسطس ، يكون من الأنسب أن يبدأ الحفل فى السادسة مساء .

كما جرت العادة أن يحضر الضيوف قبل موعد الحفل بربع ساعة . وهناك نظام خاص للملابس التى يلزم ارتداؤها فى الحفل . اذ يجب أن تتكون من عباءة حريرية سوداء ، ورداء تحليه شارة العائلة باللون الابيض ، وقميص ، وخف ابيض . ومن المحرم على الزائر أو سائر رواد الحفل أن يرتدوا الملابس الزاهية ، أو ذات الألوان الفاتحة .

وعلى الضيف أن يحضر ومعه مروحة مطوية ، وبعض الورق ، وقطعة قماش حريرية ، لاستخدامها فى تنظيف الأوانى التى يستعملها !

فى مكان الانتظار (يوريتسيكى)

يتجمع الضيوف ــ قبل دخولهم حجرة الشاى ــ فى مكان الانتظار ، وهو عبارة عن حجرة متسعة ، تغطى أرضيتها ثلاث قطع من الحصير ، ولها مدخلان ، أحدهما لدخول الضيوف من الحديقة ، والآخر يؤدى الى حجرة الشاى .

وما أن يصل أحد الضيوف حتى يخف لاستقباله ــ عند المدخل الرئيسى للمنزل ــ مندوب عن رب الدار ، يقوده الى حجرة الانتظار ، حيث يقوم الضيوف بتبادل التحية والثناء على كرم المضيف .

والمحافظة على الحضور فى الموعد المحدد عنصر أساسى فى أتيكيت الشا ــ نو ــ يى ، ذلك لأن هناك اعتقادا يجعل من تأخر الضيف فألا سيئا ، يشوه بهجة الحفل .

ويقوم ممثل المضيف بمراقبة وصول الضيوف الى غرفة الانتظار ، وما أن يتم ذلك حتى يعمد الى الطرق على مدقة خشبية ، لكى يخطر المضيف بوصولهم ، فينتقل الأخير من

غرفة الشاى الى غرفة الانتظار ، ممسكا بيده اليمنى فرشاة كبيرة من الريش .

وفى أثناء الانتظار يقوم الضيوف بمشاهدة الأدوات المختلفة التى تضمها غرفة الانتظار ، كالصندوق الذى تحفظ فيه المحبرة وفرشاة الكتابة ، واللوحة المعلقة على الحائط ، وصينية الدخان ، والمدفأة الصغيرة ، والغلاية ، والفناجين المخصصة لتقديم الشراب المعطر . . ذلك لان هذه الاشياء تختار خصيصا لحفلات الشا ـ نو ـ يى ، كما يعتز المضيف بها اعتزازا كبيرا .

وما أن يقوم المضيف بفتح الباب المنزلق ـ وهو مصنوع



المضيف ، فى حالة تأمل ، قبل الشروع فى خدمة ضيوفه . وترى امامه أدوات الشاى كالوعاء والمغرفة والفرشاة .. الخ .

من الورق ويؤدى الى غرفة الانتظار — حتى ينحنى راكعا على عتبة الباب دون أن ينبس بحرف . ومعنى ذلك أن المضيف قد أصبح على استعداد لاستقبال الضيوف فى حجرة الشاى .

ويرد الضيوف تحية مضيفهم بمثلها . ثم يعود المضيف الى حجرة الشاى تاركا الباب مفتوحا نصف فتحة .

وبعد دقيقتين أو ثلاث ينتقل الضيوف الى حجرة الشاى، ويمرون من الباب المنزلق ، الذى يكون المضيف قد سبقهم الى فتحه تماما .

ويخصص لكل ضيف زوج من ((الصنادل)) ، لاستعماله فى حجرة الشاى . وحين يكون الجو ممطرا يرتدى الضيف قبقابا وقبعة كبيرة من القش . وينتظر ممثل المضيف فى الخارج غالبا ، كى يعد لكل ضيف صندله . ذلك لأن حجرة الشاى تعد مقدسة ، ولا يجب أن توطأ أرضها بالأحذية ، التى يكون الغبار قد علق بها فى الخارج .

ممر الحديقة (روجى)

ويبدأ الحفل تحت اشراف الضيف الرئيسى، فور الانتقال من غرفة الانتظار الى حجرة الشاى . ويعد لكل فرد فى الحفل مكان خاص لجلوسه .

وقد جرت العادة فى اليابان أن تلحق بكل بيت — أيا كان مستواه — حديقة خلفية . واذا كان اليابانى على ثراء ويهوى اقامة حفلات الشاى ، فانه يقوم ببناء ركن للشاي فى حديقة بيته ، أو غرفة للشاى فى مواجهة الحديقة . ولعل هذا راجع الي حب اليابانيين للطبيعة والمناظر الجميلة . **ومن ثم فهم يهتمون اهتماما كبيرا بتنسيق الحديقة ، وتوزيع الممرات والمصابيح وجداول الماء الصغيرة التى تتخلل ارض الحديقة ،**

بحيث يبدو الترابط بين الطبيعة والفن موحيا ، يدعو الى الهدوء والتأمل .

وهذا الممر ، المسمى : روجى ، يعتبر جزءا هاما فى الحديقة . ولا يقل الاهتمام بتنسيقه وزخرفته عن الاهتمام بتنسيق وزخرفة حجرة الشاى ذاتها ، ويبلغ طوله عادة نحو ٢٠ قدما وتنحصر أهميته فيما يعود على الزوار من متعة التأمل العقلى والبصرى ، التى يمارسونها حين يمرون به ، ويلحظون عدم انتظام الأحجار التى تغطيه واختلافها فى اللون والحجم والتكوين ، كما يجدون أنفسهم ملزمين بالسير داخله ، حتى لا تعوقهم الطحالب والأشواك التى تنتشر على أرض الحديقة ، خارج نطاق الممر .

وليس الممر ـ بعد هذا ـ مستقيما ، وانما يتعرج بغير انتظام ، كما أن أحجاره تكون ـ فى الغالب ـ مبتلة بالماء الذى يتلألأ فوقها ، مما يزيد فى جمال الممر وحسنه .

ويصل الضيوف ـ فى مسيرهم بالممر ـ الى نقطة قريبة من حجرة الشاى ، حيث توجد ـ عادة ـ بوابة صغيرة ، أو حاجز منخفض ذو باب .

وفى الطرف الآخر من البوابة أو الحاجز يوجد مصباح وحوض أقيما من الاحجار ، على الطراز القديم ، ليكونا مكانا للغسيل ، حيث يقوم الضيوف بغسل أيديهم وأفواههم ، واصلاح هندامهم . وهم يستعينون بمغرفة ومناشف صغيرة توجد بجوار الحوض . **ولغسل الأيدى يتناول الضيف المغرفة ويملأها بالماء بيده اليمنى ، ثم يصب ما فيها فى يده اليسرى ، وعليه بعد ذلك ألا يضع المغرفة على شفتيه !**

ويخضع الماء فى الحوض لحالة الطقس ، ففى الصيف يكون باردا ، أما فى الشتاء فيستحسن أن يكون دافئا .

وطبيعى أن يقوم الضيف الرئيسى باتمام شكليات التطهر

قبل باقى الضيوف .. وبانتهاء هذه الطقوس يستعد الضيوف لدخول حجرة الشاى .

حجرة الشاى (شاشيتسو)

ليست هناك قاعدة خاصة بموضع حجرة الشاى ، فقد تلحق بالمنزل كجزء منه ، وقد تقام فى مكان منعزل عن المنزل. وتبلغ مساحتها - فى الغالب - نحو تسعة أقدام مربعة ونصف قدم . **وبالحجرة - أيضا - مخدع ، ينحنى أمامه الضيف الرئيسى حين دخوله الحجرة ، ثم يركع شكرا واحتراما ، متوجها ببصره الى اللوحة المعلقة على الحائط ، أو الى آنية مليئة بالزهور** ، تحل محل اللوحة فى حالة ما اذا كان الحفل فى المساء .

وغالبا ما تحتوى اللوحة المعلقة على أبيات من الشعر تتعلق بمناسبة الحفل ، أو بشخص الضيف الرئيسى ، كذلك قد تحتوى على اقتباس من الأدب اليابانى أو الصينى القديم ، أو صورة نادرة لأحد كبار الرسامين القدامى .

ولكى تحظى المعلقة بتقدير الضيوف يجب أن يكون المضيف الذى اختار أبيات الشعر أو عبارات الحكمة متضلعا فى الأدب اليابانى والأدب الصينى ، وكذلك فى الرسم والخط ، كما يجب أن يكون خبيرا فى أنواع الاقمشة الحريرية لاختيار اللوحة من أجود أنواع القماش .

غرفة الخدمة

ويلحق بحجرة الشاى غرفة أخرى صغيرة تسمى : غرفة الخدمة ، وهى تشبه غرفة المؤونة - الكرار - فى بيوتنا . وفيها يتم اعداد أدوات الشاى وغسلها . أما الطعام فيعده فى المطبخ طاه ماهر تحت اشراف المضيف شخصيا ، ثم ينقل الى غرفة الخدمة ، ومنها الى غرفة الشاى .

وما أن يوصد باب حجرة الشاى بالمزلاج ايذانا بتمام حضور

الضيوف ، حتى ينهض المضيف الى غرفة الخدمة ، ثم يعود حاملا سلة مليئة بالفحم الخشبى ، بأحجام وأشكال مختلفة ، وبها كذلك حلقتان لحمل الغلاية وملقط للنار وفرشاة صغيرة من الريش .

ثم يشرع المضيف فى اشعال النار فى الموقد – وهو عبارة عن صندوق عميق مربع الشكل يبلغ حجمه نحو ١٧ قيراطا مكعبا – وبذلك يأخذ باقى الضيوف فى الانتقال قريبا منه ..

وينهض المضيف مرة أخرى قاصدا الى غرفة الخدمة ، ثم يعود ليعلن فى أدب أن ((**طعاما بسيطا**)) قد تم اعداده .

تقديم الطعام طبقا لطريقة كياسيكى

يتطلب اتيكيت الشا – نو – يى أن يحمل كل ضيف حقيبة صغيرة لا تسمح بنفاذ الماء منها ، حتى يستطيع أن يضع فيها ما يتبقى أمامه فى الصينية من طعام .

ولما كان الطعام الذى يقدم فى غرفة الشاى – كجزء من حفل الشا – نو – يى – يتطلب عناية كبيرة ، فان المضيف يأخذ على عاتقه هذه المهمة ، **ومن ثم يذهب بنفسه الى السوق ، صباح اليوم المخصص للحفل ، لينتقى أفخر أنواع السمك والخضروات ، وغالبا ما يقوم بالطهى وخدمة ضيوفه بنفسه ، دون الاستعانة بطاه أو خادمة .**

وتتضمن قائمة الطعام : خضراوات ، حساء من عجينة الفول ، أنواع مختلفة من الاسماك تقدم وحدها فى أطباق من الصينى الفاخر أو مع الخضراوات ، كما تتضمن أيضا أشياء فاتحة للشهية تقدم فى أطباق صغيرة مطلية بطلاء جذاب .

وعندما يفرغ المضيف من نقل الطعام الى حجرة الشاى ، يقوم بدعوة ضيوفه الى تناول خلاصة الارز ، فى أكواب ذات أشكال مختلفة . ثم يتجه الى الضيف الرئيسى ، ويقدم اليه شيئا فاتحا للشهية ، ويصب له خلاصة الارز ، ثم يمر بباقى

الضيوف ، موزعا عليهم خلاصة الأرز وفاتح الشهية .

وبعد الانتهاء من تناول الطعام ، يقوم كل ضيف بتنظيف صينيته بواسطة ورقة يحضرها معه . ثم ينهض المضيف فيحمل الصوانى الموضوعة أمام ضيوفه ، ابتداء من صينية الضيف الرئيسى ، وبعد ذلك يقدم لهم الحلوى . وبهذا تنتهى المرحلة الأولى من الشا ـ نو ـ يى . وعندئذ يتقدم المضيف الى ضيوفه ، داعيا اياهم الى خارج حجرة الشاى ، بقصد الراحة والاستمتاع بالهواء الطلق وجمال الطبيعة ، استعدادا للمرحلة الثانية .

الحفل المخصص للشاى الثقيل

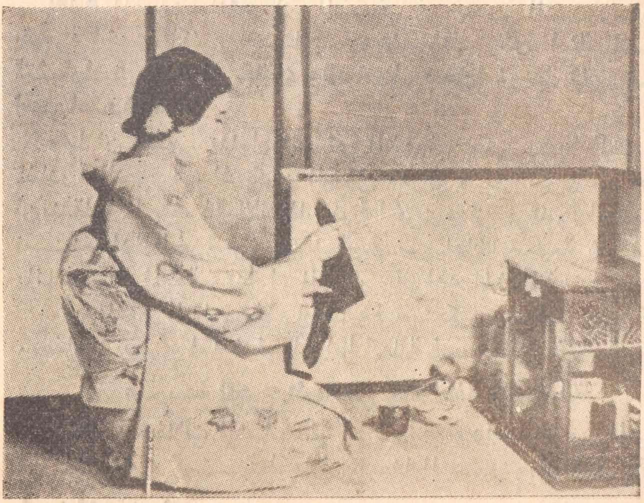
فى الفترة ما بين المرحلتين الأولى والثانية ، يقوم الضيوف بالتدخين وشغل الوقت بالحديث . وما أن تصل الى أسماعهم دقات الناقوس الخشبى أو النحاسى ـ وهى دقات خفيفة كأنها أنغام الموسيقى ـ حتى يكفوا عن الحديث ، وبذا يتهيأون للمرحلة الثانية .

وقبل الدخول الى حجرة الشاى مرة أخرى ، يقوم الضيوف باتباع ذات الشكليات التى اتبعوها فى المرحلة الاولى ، اذ يقصدون الى مكان الغسيل ، ثم يأخذون فى دخول حجرة الشاى واحدا بعد الآخر . وفى هذه المرة تكون المعلقة قد استبدلت بآنية زهور ، تضم غصنا من شجرة الكاميليا ، وبرعما نصف متفتح ، وبعض أوراق الزهور ، وكلها ينتقى بعناية وحرص حتى ترضى أذواق الضيوف . أضف الى ذلك ما تضفيه على جو الحجرة من جمال وروعة يتفقان مع جلال الحفل .

الشاى الثقيل يجب أن يكون قليل الرغوة

على أنه يجب مراعاة بعض القواعد الأساسية قبل تقديم الشاى الثقيل للضيوف ، وهى قواعد تحلو للمشاهد

مراقبتها وتتبعها . اذ يقوم المضيف بوضع المغرفة فى يده اليسرى ، ثم يرفع غطاء الغلاية ويضعه فوق قطعة من الخيزران ، وعندئذ ينقل المغرفة الى يده اليسرى ، ويصب قليلا من الماء المغلى فى وعاء الشاى الذى توجد به فرشاة من الخيزران، يقوم بتحريكها داخل الوعاء ، ضمانا لنظافته . وفى النهاية يتناول قطعة خاصة من القماش لتجفيف الوعاء . ثم يتناول المضيف مقدارا من مسحوق الشاى بالملعقة ، مراعيا عدد الضيوف ، ويضعه فى الوعاء ، ويصب فوقه الماء المغلى ، وعندئذ يقوم بعجن المسحوق بواسطة الفرشاة ، على أن يقلل — قدر الامكان — الرغوة الناتجة من تحريك الفرشاة ، **ذلك لان العادة جرت على أن يقدم الشاى الثقيل دون**



ابنة المضيف تقوم بتنظيف أدوات الشاى استعدادا لتقديمه .

رغوة ، أما الشاى الخفيف الذى يقدم فى نهاية الحفل فمن واجب المضيف أن يزيد رغوته .

وحين ينتهى المضيف من عمل الشاى يقوم بوضع الوعاء أمام الضيف الرئيسى ، الذى يقوم ـ بدوره ـ بصب جزء منه فى كوبه ، ثم ينقل الوعاء الى جاره ، وهكذا الى أن يتم صب الشاى لجميع الحاضرين .

وفى هذه الاثناء يدور بين الجميع حديث متنوع متفرق ، يتخلله حديث آخر ـ يديره المضيف بنفسه ـ خاص بنوع وتاريخ وعاء الشاى وأدواته الاخرى ..

الشاى الخفيف (يوسوشا)

يقدم المضيف الشاى الخفيف فى حجرة الشاى أو فى حجرة أخرى أكثر اتساعا . وعند ذلك تظهر ابنة المضيف لتشارك فى هذه المرحلة ، وقد تحل محلها زوجة المضيف أو احد اصدقائه .

وما ان ينتهى تناول الشاى الخفيف حتى يتهيأ الضيوف لمغادرة الحجرة ، اذ يكون الحفل قد تم ، كما يكون من حقهم أن ينتقلوا الى غرفة الانتظار مرة أخرى، كى يرتدوا أحذيتهم، استعدادا للخروج ، بعد أربع ساعات ممتعة شغلوها بالحديث والمتعة وتناول الشاى بأنواعه المختلفة .

وفى اليوم التالى يقوم الضيوف بشكر مضيفهم على كرمه وحفاوته بهم ، اما شفويا واما كتابة فى رسائل خاصة .

مدرسة للكرم الخالص والملاطفة الصادقة

تتطلب حفلات الشا ـ نو ـ يى مجهودا عنيفا من المضيف أو المضيفة ، كى يستطيعا أن يبعثا السرور والمتعة فى نفوس ضيوفهم .

غير أن الجدير بالملاحظة هنا انه ما من احد يستمتع بحفل

الشا - نو - يى قدر استمتاع المضيف نفسه . **ذلك لأن** احساسه بأن كرمه قد نال التقدير ، وأن الضيوف قد سعدوا بالحفل ، يجعله أكثر الناس سرورا وغبطة .

ان الضيافة والخدمة التى تتم فى ظل حفلات الشاى اليابانية ليست أمرا عاديا هينا ، وانما هى مدرسة يتعلم فيها الافراد دروس الكرم الخالص والملاطفة الصادقة . ويقتضى هذا أن يكون المضيف - وضيوفه بالتالى - على قدر طيب من الثقافة والحكمة . يقول أحد أساتذة الشا - نو - يى فى ذلك :

« على من يريد أن يكون أستاذا فى فن الشا - نو - يى أن يطلع جيدا ، وأن يطلع دائما . »

اليابانى يعيش الى اليوم كما كان يعيش أسلافه

ان أثر عقيدة الشا - نو - يى يبدو فى كل بيت يابانى ، رغم أن غالبية الشعب اليابانى لا تعرف دقائق وتفاصيل هذه العقيدة . والبيت اليابانى نفسه مكان لصفاء الذهن وعشق الفن ، تزيده عقيدة الشا - نو - يى - التى تهدف الى غرس الروح الجمالية فى النفوس - بساطة وتواضعا .

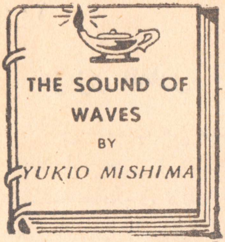
ومع أن فى اليابان الآن عددا كبيرا من المطاعم والمشارب والفنادق والاندية العصرية ، التى تتبع الاسلوب الاوربى أو الأمريكى ، **الا أن الشعب اليابانى ما يزال - حتى اليوم - يعيش حياته بالطريقة التى كان يعيش بها أسلافه فى القرون الخالية** . والطريف أن الشباب اليابانى تجده الى اليوم حريصا على تلقى أصول الشا - نو - يى ، اعتقادا منه بأنها تساهم فى غرس الاتزان والكياسة والاطمئنان والبشاشة فى نفسه ، وهى صفات أساسية تعمل على ترقيته ؛

وسائل جديدة لعصر جديد

على أن عقيدة الشا ـ نو ـ يى ليست عقيدة جافة متزمتة ؛ وانما هى قابلة للتطوير والترقية . فقد بدا كثيرون من عشاقها يستخدمون المقاعد والموائد بدلا من الابسطة والوسائد . اذ كثيرا ما تجد المضيف جالسا فوق الحصير طبقا للطريقة القديمة ، بينما قد أعد الموائد والمقاعد لضيوفه ممن لا تستهويهم الطريقة التقليدية ..

تلك هى عقيدة الشا ـ نو ـ يى التى يدين بها ملايين من اليابانيين . **وهى ـ كما رأيت ـ تصرفهم نحو التحلى بصفات وسجايا حميدة ، وتغرس فى نفوسهم الحب والاخاء والنبل ، بعيداً عن وطأة المجتمع الأوربى المسرف فى تقدير حضارته .**





غرام فى الجزيرة

القصة التى احتلت فى الأدب
اليابانى مكانة "قيس وليلى"
فى الأدب العربى
للكاتب اليابانى المعاصر "يوكيو ميشيما"



عزيزى القارىء ..

لكل شعب من شعوب العالم قصة غرامية ، يعتبرها ابناؤه مثالا لما يجب ان تكون عليه العلاقة بين الفتيان والفتيات . وغالبا مايكون ذلك الغرام عذريا ، مليئا بالعواطف السامية . ففى الادب العربى نجد من هذا النوع قصة (قيس وليلى) و (جميل وبثينة) .. الخ ، وفى الادب الانجليزى (روميو وجولييت) ، وفى الادب الفرنسى (بول وفرجينى) و (أوكاسان ونيكوليت) ، وفى الادب الاغريقى القديم (دافنى وكلو) .. الخ .

وفى اليابان ، ظهر — عام ١٩٤٥ — كتاب «صوت الأمواج» ، الذى نقدمه لك فيما يلى بعنوان « غرام فى الجزيرة » ، فهلل له النقاد وغمروه بالثناء ، وانزلوه منزلة قصص الغرام الخالدة ، فهى — على حد قول أحدهم — « قصة عالمية ، يمكن أن تدور وقائعها فى أية دولة من دول العالم ! »

والقصة من تأليف الروائى اليابانى المعاصر « يوكيو ميشيما» . وتقع حوادثها فى احدى جزر اليابان الصغيرة ، التى يعيش أهلها حياة بدائية بالغة التزمت .. ومع ان سعيهم وراء الرزق كان يفرض على الرجال منهم أن يعملوا منذ شروق الشمس الى غروبها ، وعلى النساء أن يتحملن برودة مياه البحر ، أثناء مزاولتهن مهنة الغطس التى كانت تحتم عليهن التجرد من ملابسهن ، الا ان كل ذلك لم يحل بين « شنجى » و « هاتسو » — بطلى القصة — من أن يتلاقيا ويتبادلا كؤوس الغرام . غير أن الشائعات الخبيثة سرعان ماتدخلت بينهما ، فأحدثت من التطورات فى علاقتهما ، ومن المواقف المثيرة بينهما ، ماسوف تستمتع بقراءته فيما يلى ..

من هذه المواقف ، استطاع « يوكيو ميشيما » أن يصور قصة غرامية ، بلغت حد الروعة فى تصوير العلاقة البريئة الطاهرة التى جمعت بين الفتى والفتاة ، فى أسلوب ينبض بالدفء والحنان ، كما سترى :

المؤلف فى سطور



المؤلف : يوكيو ميشيما

- ولد فى طوكيو عام ١٩٢٥ .
- تخرج من مدرسة (بير) عام ١٩٤٤ ، وقد أنعم عليه الامبراطور بوسام الشرف ، لتفوقه فى الدراسة .
- تخرج من مدرسة طوكيو للتشريع العالى عام ١٩٤٧ .
- نشرت أول رواية له عام ١٩٤٨ .
- أخرجت له المطابع ٨ روايات طويلة ، وكتاباً سياحيا ، و ١٠ مسرحيات من فصل واحد ، وما ينوف على ٤٥ قصة قصيرة . كما قدم له مسرح (كوبالى) أربع مسرحيات ناجحة .
- نالت روايته « صوت الأمواج » ، التى نشرت بعنوان « شيوساى » ، جائزة (شنشوشا) الأدبية .
- زار الولايات المتحدة الأمريكية فى أعقاب الحرب العالمية الثانية ، ونزل ضيفا على وزارة الخارجية بالاشتراك مع

جريدة «بارتيزان ريفو» . وهو يعتبر أول كاتب يابانى ينال هذا التكريم فى أمريكا .

- يمارس فى فراغه رياضتى حمل الأثقال وتربية الاجسام .

غرام فى الجزيرة

تلخيص : رمسيس شكرى

- ١ -

يقطن جزيرة (يوناجيما) - أو جزيرة الأغانى - حوالى أربعمائة نفس .. ويمتد شاطئها الى ما يقرب من ثلاثة أميال . وتمتاز الجزيرة ببقعتين بلغتا حد الروعة والجمال ، احداهما ضريح « ياشيرو » الذى شيد فى الشمال الغربى منها تكريما لاله البحر « واتاتسومى نو ميكوتو » .. ولما كان جميع سكان الجزيرة يزاولون مهنة الصيد ، فقد كان من الطبيعى أن يعبدوه و يتوجهوا اليه بصلواتهم ودعواتهم كى يمنحهم دائما بحرا هادئا ! .. **فما ان ينجو أحدهم من خطر داهم حاق به فى البحر ، حتى يهرع الى الضريح ، معربا لاله البحر عن عرفانه بالجميل ، مقدما اليه قرابينه ونبائحه !**

أما البقعة الاخرى التى لا تقل عن الاولى جمالا وفتنة ، فهى جبل (هيجاشي) ، الذى يطل على شاطىء صخرى بطول البحر ، يعلوه منار مرتفع يرسل أضواءه عبر البحر ليهدى الصيادين الى الشاطىء ، ويستطيع حارسه أن يقرأ بسهولة - خلال منظاره المكبر - اسم أية سفينة أو قارب يعبر قناة (ايراكو) !

***

كان الوقت بعد الظهر ، وقد انتصب جبل (هيجاشي) يحجب أشعة الشمس فى سعيها الى الغروب ، تاركا المنطقة القريبة من الفنار ترقد فى الظلال .. وأذ ذاك حلق صقر ضخم فى أعالى السماء الصافية الأديم فوق البحر ، وأخذ يرفرف بأحد جناحيه ثم تلاه بالآخر ، وكأنه يختبر قوتهما ! .. وفى اللحظة التى بدا فيها كأنه قد قرر الهبوط الى أسفل، اذا به يحلق عاليا مرة أخرى !

وما لبثت الشمس أن غربت تماما .. وأسرع صياد شاب يتسلق ممر الجبل فى طريقه الى (المنار) ، وقد أمسك فى احدى يديه بسمكة كبيرة أخذ يطوح بها .. وكان الفتى فى الثامنة عشرة ، طويل القامة ، ممتلىء الجسم ، فبدا أكبر من سنه ، لولا تقاطيع وجهه التى كانت تنبىء عن حقيقة عمره ، وقدأحرقت أشعة الشمس بشرته ففدا فاحم السواد .. وكان يتميز – مثل غيره من قاطنى الجزيرة – بأنف مستقيمة وعينين سوداوين صافيتين ، **ذلك الصفاء الذى يسبغه البحر على كل من يعتمد عليه فى كسب قوته ! ..** وكان يرتدى سروالا قديما ورثه عن أبيه ، وقميصا رخيصا !

ومع أن الممر الذى كان الفتى يتسلقه شديد الانزلاق بدرجة خطيرة ، فقد كان بوسعه أن يتسلقه مغمض العينين ! .. وسار فى طريقه دون أن يتعثر أو يتردد !

***

كان الفتى قد خرج فى ذلك الصباح – كعادته – الى عرض البحر، على ظهر سفينة الصيد الصغيرة (تايهى مارو) ، المزودة بمحرك بخارى، بصحبة صاحب السفينة وفتى آخر !

.. فلما غربت الشمس ، عادت السفينة الى الجزيرة تحمل نصيبها من الصيد . وما ان ألقت مرساها على الشاطىء ، حتى قفز الفتى منها وأخذ يشدها الى الرمال ، ثم نقل السمك الى قارب (الجمعية التعاونية) !

وانتقى الفتى سمكة كبيرة ليهديها الى حارس المنار وزوجته ، وبينما كان يسير على الشاطىء ، وقع بصره على جموع الصيادين ، وقد انهمكوا فى شد قواربهم الى الرمال ، صائحين مهللين .. وفجأة لمح فتاة غريبة ، لم يرها من قبل ، تستند بجسدها الى كومة من الألواح الخشبية ، لتسترد انفاسها بعد الجهد الشاق الذى بذلته فى نقل الألواح الى الشاطىء !

وكان العرق يتصبب من جبينها ، وقد توهج خداها .. واذ ذاك هب من الغرب نسيم بارد ، فأدارت الفتاة وجهها المرهق نحوه ، واستقبلته فى نشوة واستمتاع ، تاركة خصلات شعرها الطويل تتطاير خلف ظهرها ! .. وكانت ترتدى قميصا قطنيا بلا أكمام ، وسروالا نسائيا طوت طرفيه حتى ركبتيها ، وقفازا متينا !

ووقفت الفتاة ترنو ببصرها الى السماء جهة الغروب ، وأخذت تتأمل قرص الشمس القرمزى ، الذى كان يختفى بين طبقتين من الغيوم السوداء ! .. ولما أدركها الفتى تعمد أن يقف أمامها ، وراح يحملق فى وجهها ، كما يفعل الأطفال عندما يشاهدون شيئا غريبا ! .. غير أن الفتاة لم تتحرك ، وظلت واقفة تتطلع الى البحر ! .. بل ولم تلق اليه نظرة واحدة !

***

ولما وصل الفتى الى منتصف الممر ، فى طريقه الى المنار ،

أدرك فجأة ما فى تصرفه نحو الفتاة من فظاظة وسوء أدب .. وعندئذ صعد الدم الى وجنتيه خجلا وغمره شعور بالندم ! .. غير أن ذلك لم يمنعه من أن يستحث الخطى نحو المنار ، فان زوجة حارسه قدمت – ذات يوم – الى أمه خدمة جليلة . ومنذ ذلك اليوم اعتاد أن يحمل اليها جزءا من محصول صيده اليومى !

وأخيرا ، وصل الفتى الى المنزل الذى يقيم فيه حارس المنار ، فأعلن عن قدومه مناديا من الخارج .. واذ ذاك انفتح الباب وأطلت الزوجة ، وقالت :

– أوه .. أهذا أنت يا شنجي « سان » ؟ (١)

ومد الفتى يده اليها بالسمكة ، دون أن ينبس بكلمة ! .. فتناولتها منه ثم نادت زوجها قائلة :

– أيها الأب .. لقد أحضر لنا شنجي سان سمكة !

وجاء صوت حارس الفنار ، اللطيف ، من الداخل قائلا :

– أشكرك .. أشكرك .. تفضل بالدخول أيها الفتى شنجى !

– ٢ –

جلست أم الفتى وأخوه – الذى كان فى الثانية عشرة – ينتظران أوبته من البحر ، فى غرفة صغيرة من المنزل ، يضيئها مصباح تدلى من السقف ! .. لقد كان والد الفتى يعمل صيادا الى أن لقى مصرعه فى الحرب ، فما لبث أن وقع عبء اعالة الأسرة على عاتق الأم ، فعملت « غطاسة » لصيد

---

(١) سان : كلمة يابانية بمعنى « المحترم » وهى تضاف الى كل اسم ، اظهارا للاحترام ، الذى يعد من صفات اليابانيين الأصيلة !

الاخطبوط ، الذى كان يمثل ثمانين فى المائة من ثروة الجزيرة ، أما العشرون الأخرى فكانت تأتى من السمك !

فلما عاد الفتى ، ابتدرته أمه قائلة :

ـ هل حازت السمكة رضاء حارس المنار ؟

ـ نعم ، وقال لى : «تفضل بالدخول .. تفضل بالدخول» .. ثم قدم لى شرابا اسمه « الكاكاو » !

ـ وما هو هذا الـ « كاكاو » ؟ !

ـ انه شراب ، يشبه حساء الفول !

وقامت الأم وطهت بعض السمك الذى احضره ابنها . وبينما كان الفتى يتناول عشاءه ، شرد ذهنه الى الفتاة التى رآها على الشاطىء .. انه يعرف جميع فتيات الجزيرة .. ترى من تكون ؟ .. واستبد به الفضول ، لمعرفة شخصيتها ! فما أن تناول عشاءه حتى اصطحب أخاه الى الحمام العمومى ، حيث يجتمع الكثيرون من سكان الجزيرة ، ليستحموا ويتبادلوا الأنباء والأراء..غير أن رئيس الجمعية التعاونية للصيد وساعى البريد ـ اللذين تصادف وجودهما هناك ـ قضيا كل الوقت فى الخوض فى الشئون السياسية ، دون أن يعرجا على موضوع الفتاة !

***

وفى اليوم التالى ، خرج الفتى «شنجى» على ظهر سفينة الصيد « تايهى مارو » ، وأخذ يلقى الشباك بمساعدة الفتى « ريوجى » .. أما صاحب السفينة « جوكيتشى » ، فقد كان يتولى قيادتها الى أكثر الأماكن ازدحاما بالأسماك .. فلما حل موعد الغداء ، جلس الثلاثة يتناولون طعامهم الذى يتكون من خليط الأرز والشعير المغليين ، مضافا اليه شرائح من الفجل .

وفجأة ، وعلى غير انتظار ، اذا « بجوكيتشي » يرضى فضول الفتى ، ويجيب عن السؤال الذى طالما شغل باله ، فقد نظر اليه وقال :

ـ هل علمت أن العم « تيرو مياتا » قد استعاد ابنته ؟

ـ لم أكن أعلم أن له ابنة !

واستطرد « جوكيتشى » يروى للشابين القصة قائلا : « لقد انجب العم « تيرو » أربع بنات وولدا واحدا .. فلما رأى أن ما لديه من البنات يزيد عن حاجته ، عمل على تزويج ثلاث منهن ، وعرض الرابعة على راغبى التبنى . وما لبثت احدى الأسر التى تقيم فى (شيما) أن تبنت الفتاة «هاتسو» ! .. ولكن ، ماذا حدث ؟ .. لقد توفى ابنه الوحيد فى العام الماضى بداء الرئة ، فشعر بالوحدة تقتله ! .. ومن ثم أرسل الى الفتاة يستدعيها اليه ، وأعاد تسجيل اسمها فى سجل أسرته .. وهو يبحث لها الآن عن زوج يتبناه ! .. لقد نضجت الفتاة ، وأصبحت بارعة الجمال ، ولا شك فى أن كثيرين من الشبان يتمنون الزواج منها .. فماذا عنكما ؟ .. هيه ؟ »

فنظر كل من « شنجى » و « ريوجى » الى وجه الآخر ، وقد صعدت الدماء الى وجنتيهما ، الا أن احتراق بشرتهما قد اخفى ذلك الاحمرار ! !

***

وفى ذلك المساء ، حضر « شنجى » الاجتماع الذى اعتاد شباب القرية أن يعقدوه فى كوخ صغير ! .. ولما دخل « شنجى » الكوخ ، أبصر أحد الفتيان راكعا على الأرض ، وقد ترك شعر رأسه تحت رحمة مقص صدىء يمسك به أحد أصدقائه ! .. وابتسم «شنجي» ، ثم جلس علي الأرض

مستنداً بظهره الى الحائط .. وظل كعادته صامتا ، يستمع الى ما يقوله الآخرون !

وكان الشبان ينتظرون قدوم زعيمهم «ياساو كاواموتو» . ومع أنه لم يتجاوز التاسعة عشرة ، الا أنه كان ابن زعيم القرية ، ويتمتع بين أقرانه بنفوذ واسع ! .. **لقد أوتى موهبة ((قيادة الآخرين)) ، وكان يعرف كيف يجعل الجميع يتبعونه ويرضخون لأوامره وتعليماته !** .. وكان يتصرف دواما مع اتباعه على نحو يضفى على شخصه أهمية ورفعة . فكان يعمد الى الحضور آخر الجميع !

وما لبث الباب أن فتح فى جلبة ، ودلف « ياساو » الى الكوخ .. وكان بدينا ، ورث عن أبيه احمرار الوجه ، الذى كانت ملامحه تنطق بالسذاجة ، وان كانت نظرة عينيه تكشف عن خبثه وسوء طويته ! .. وما ان جلس حتى قال مسرعا :

ــ اعتذر لتأخرى .. حسنا ، لا يجدر بنا أن نضيع الوقت .. ها هو ذا البرنامج المحدد لمشروعات الشهر القادم !

وأدرك الجميع أنه كان فى عجلة من أمره ، فجلسوا فى صمت يستمعون الى برنامجه دون مقاطعة .. ولما انفض الاجتماع ، استفسر « شنجى » من أحد أصدقائه عن سبب عجلته ، فأجابه قائلا :

ــ ألا تعلم ؟ .. انه مدعو لحضور الحفلة التى يقيمها العم « تيرو مياتا » الليلة ، احتفالا بعودة ابنته « هاتسو » !

وسرعان ما أعاده ذلك الجواب الى الواقع المرير الذى كان يعيش فيه ، ذلك الواقع الذى لم يكن من قبل ليوليه اى اهتمام ! .. لقد كان صيادا فقيرا ، لا يملك من حطام الدنيا شيئا ، فأنى له أن يطمع فى تلك الفتاة الغنية التى يملك أبوها الكثير من سفن الصيد ، والتى يتهافت على الزواج منها

الصفوة من أثرياء الشبان ، من أمثال « ياساو » ابن زعيم القرية ؟ !

وما لبث أن انفض الاجتماع ، وانصرف الحاضرون الى سبيلهم ، زرافات وفرادى . أما « شنجى » ، فقد انطلق يضرب فى دروب القرية علي غير هدى .. وأخيرا وجد نفسه يسير على الشاطىء ، فى طريقه الى ضريح (ياشيرو) ، حتى بلغ أسفل الدرجات الحجرية ، التى يبلغ عددها المائتين ، والتى كانت ظلال أشجار النخيل تتراقص فوقها ، فأخذ يصعد الدرجات وصوت «قبقابه» الخشبى يطرقع فوقها . ثم ارتفعت نظراته الى أعلى ، فوجد الظلام يخيم على منزل الكاهن !

ولم يجد فى الضريح أحدا ، فتملكته الرهبة والخشوع .. ثم ألقى بعشرين « ينا » فى صندوق النذور ، وصفق بيديه الخشنتين قاصدا جذب انتباه « الاله » اليه ، وانطلقت من قلبه صلاة صامتة ، ابتهل فيها قائلا : « أيها الاله .. امنحنى بحرا هادئا وسمكا وفيرا ، واجعل قريتنا تسير من نجاح الى نجاح .. اننى لا أزال شابا ، ولكن بمرور الوقت ، دعنى أصبح صيادا بين الصيادين ، وهبنى من لدنك حكمة واحاطة بفنون البحر وأسراره ، وبكل ما يتعلق بالسمك ، والقوارب ، والطقس ! .. وباختصار ، امنحنى مهارة وتفوقا فى كل ما يوكل الي من أعمال . وأرجو أن تولى برعايتك أمى الرقيقة ، وأخى الطفل .. وأخيرا ، أتقدم اليك بأمنية خاصة أرجو أن تحققها لى .. **وفق عبدك المتواضع الفقير فى الحصول على عروس جميلة الطلعة ، طيبة القلب .. مثل ابنة « تيروكيتشى مياتا » العائدة ! »**

واذ ذاك هبت الريح ، وأخذت أغصان أشجار النخيل

تهتز وتتمايل فى عنف ، وانبعثت من داخل الضريح المظلم أصداء رهيبة ، وكأنما استجاب اله البحر لصلاة الفتى !

- ٣ -

أنقضت بعد ذلك أربعة أيام ، ثم اجتاحت البحر عاصفة هوجاء ، وطفقت الأمواج تصخب وتتلاطم فى عنف عند حاجز الميناء .. ورغم أن السماء كانت صافية ، الا أن السلطات منعت خروج قوارب الصيادين الى عرض البحر خوفا من العاصفة ! .. ومن ثم ظل أهل القرية فى منازلهم ، فطلبت أم « شنجى » الى ولدها أن يحضر حزمة من الحطب كانت قد جمعتها فى أعلى الجبل ، وعقدتها فى ربطة ، غير أنها تركتها ملقاة على الأرض فى الطابق الأول من البرج ، لعجزها عن حملها الى الدار !

وكان طريق الجبل ساكنا ، لا يخطر فيه انسان ، بل ولا كلب ضال .. فأخذ الفتى يصعد الى قمة الجبل حتى وصل الى البرج ، ثم اتجه الى الطابق الاول حيث وجد حزمة الحطب كما تركتها امه .. فلما هم بحملها ، خيل اليه انه قد سمع صوتا صادرا من أعلى البرج ، فانصت بانتباه ، غير ان الصوت كان قد تلاشى ، فاعتقد أنه كان واهما ! .. لكنه أراد أن يتأكد من الأمر ، فقرر أن يصعد الى السطح . وفيما كان يصعد الدرج ، ترامى الى سمعه فى وضوح صوت انسان ينتحب ، فأدرك انه لم يكن واهما ، ومن ثم انطلق راكضا نحو السطح !

***

وكانت ملامح الفتاة التى وجدها شنجى فى أعلى البرج تنطق بالفزع والخوف .. فقد فوجئت بظهور ذلك الفتى

أمامها ، دون أن تسمع وقع قدميه ، وكأنما قد خرج من الفضاء ! .. وكانت الفتاة تضع فى قدميها «قبقابا» خشبيا ، وقد اتكأت على حاجز البرج وراحت تنتحب ، غير أنها ما ان لمحته حتى أمسكت عن البكاء ، وأخذت تنظر اليه فى خوف ووجل !.. أما الفتى الذى عرف فيها «هاتسو» على الفور ، فقد فاض قلبه غبطة ، الا انه حسب أن عينيه تخدعانه . فلم يكن يحلم قط أن يلتقى هكذا مصادفة بفتاة أحلامه التى طالما هفا اليها فؤاده !

ووقف كل منهما يحدق فى عينى الآخر ، كحيوانين كاسرين التقيا فى الغابة على حين غرة ، وقد تضاربت عواطفهما بين الحذر والفضول ! .. وأخيرا نطق « شنجى » قائلا :

ـ انك « هاتسو سان » .. أليس كذلك ؟

فأطرقت الفتاة برأسها ، وقد تملكتها الدهشة لمعرفته شخصيتها ، غير أن هاتين العينين السوداوين أعادتا الى ذاكرتها فجأة صورة ذلك الفتى الذى كان يحملق فى وجهها على الشاطىء منذ أيام !

واستطرد شنجى متسائلا :

ـ لقد كنت أنت التى تبكين .. أليس كذلك ؟

ـ نعم !

ـ ولماذا كنت تبكين ؟

وعندئذ أخذت « هاتسو » تقص عليه كيف انها كانت فى طريقها الى حضور درس تعقده زوجة حارس (الفنار) لتلقين الفتيات العائدات الى الجزيرة قواعد اللياقة . واذ وصلت مبكرة الى المكان ، خطر لها أن تتسلق الجبل ، فاذا بها تضل طريقها !

ولما انتهت من روايتها ، تطوع « شنجى » لان يهديها الى الطريق ، وأن يصحبها بنفسه ـ ان شاءت ـ الى (الفنار) ،

فارتسمت على شفتيها ابتسامة فاتنة ، وأن لم تحاول أن تمسح الدموع التى انسابت فوق خدها . فأخذ قلب الفتى يخفق بشدة من فرط سعادته ، غير أن الوقت كان يمر بسرعة فائقة ، وحان موعد عودة الفتاة الى (الفنار) .

فلم تلبث هذه ان ابتعدت عن سور الاسمنت الذى كانت تتكىء عليه ، واستدارت الى شنجى قائلة :

ـ يجب أن أعود الآن !

ولمح « شنجى » بقعة سوداء تلطخ قميص الفتاة الأحمر ، فتتبعت الفتاة نظراته وشاهدت بدورها بقعة فوق ثدييها حيث كانت تستند فوق سور الاسمنت ، فأخذت تدلك مكان البقعة بكفها حتى زالت تماما !

وأخيرا انطلق الفتى يهبط درجات البرج متقدما الفتاة التى تبعته فى صمت . وفيما كانت قدماه تنتقلان من درجة الى درجة ، عاد الى ذهنه منظر ثدييها الممتلئين وهما يهتزان فى رقة ونعومة تحت تأثير تدليكها ! .. فلما بلغا الطابق الأول ، انفجرت الفتاة ـ فجأة ـ ضاحكة فى مرح ، فتوقف « شنجى » ، واستدار نحوها فى حيرة ، ثم سألها :

ـ ما الذى يضحكك ؟

ـ ان بشرتى سمراء ، غير أن بشرتك سوداء .. كالفحم !

فضحك « شنجى » ، ثم تابع نزوله . غير أنه ما كاد يغادر البرج ، حتى عاد أدراجه راكضا .. فقد نسى أن يحضر حزمة الحطب التى طلبت أليه أمه احضارها ! !

ـ ٤ ـ

كان شنجى يعيش ـ حتى ذلك الحين ـ حياة بسيطة راضية ، لا يحس فيها بمرارة الفقر الذى يرزخ تحته . غير أن فؤاده ما كاد يتعلق بـ « هاتسو » ، حتى أخذت الأفكار

تعذبه وتحرمه لذة النوم الهانىء ، وقد اضناه الشعور بأنه لا يملك ما يغرى فتاة مثل « هاتسو » بقبوله زوجا لها .. حقيقة انه كان يفيض صحة وقوة ، وان المرض لم يعرف الى بدنه طريقا ، كما انه كان فى وسعه أن يسبح حول الجزيرة خمس مرات دون توقف ، الا أن كل تلك الصفات ما كانت لتجذب قلب الفتاة نحوه !

وأراد « شنجى » أن يتخلص من هذه الأفكار التى تؤرقه وتعذبه ، فافرغ همه فى العمل ، فكان يقضى احدى عشرة ساعة كاملة كل يوم ، على ظهر السفينة (تايهى مارو) ، فى صيد الاخطبوط ، دون أن يدع لنفسه وقتا للتفكير !

وكان من المعتاد أن يقوم كل قارب بتسليم حمولته من السمك الى سفينة الجمعية التعاونية التى تتولى بيعه مقابل عمولة تحصل عليها .. وكان اليوم العاشر من كل شهر هو موعد سداد قيمة السمك لكل صياد .. وفى ذلك اليوم ، قبض « شنجى » من مخدومه نصيبه الذى بلغ أربعة آلاف « ين » ، ما ان وضعه فى جيب صديريته حتى انطلق عائدا الى منزله .

وبينما كان يسير على الشاطىء ، وقع نظره على بعض النسوة وهن يجذبن قاربا نحو الرمال ، فتقدم منهن ، ونزل الى الماء ، ثم أخذ يدفع القارب من الخلف بساعديه المفتولين القويين ، فما لبث القارب أن انزلق فوق الرمال !

ولما عاد شنجى الى المنزل ، وجد أخاه يقرأ كتابا ، بينما كانت أمه تجلس أمام الموقد تطهو الطعام .. ولم يجب « شنجى » على ترحيب أمه بكلمة ، بل استلقى فوق الفراش دون أن يخلع حذاءه ! .. وكان يحب دائما أن يسلم أمه مظروف النقود دون أن ينبس بكلمة ، أما هى فقد كانت تتظاهر بأنها قد نسيت أن ذلك اليوم هو اليوم العاشر .. يوم قبض

ثمن السمك ، اذ كانت تدرك مقدار سروره عندما يرى الدهشة ترتسم على وجهها !

ودس شنجى يده فى جيب صديريته الأيمن ، ثم فى الجيب الأيسر ، ثم فى بقية جيوبه ، غير أنه لم يجد النقود ! .. وأدرك انها لا بد قد سقطت منه على الشاطىء أثناء دفعه للقارب ، ومن ثم انطلق خارج المنزل راكضا دون أن يفوه بكلمة !

وبعد قليل ، سمعت الأم نداء عند الباب ، ولما خرجت لاستطلاع الامر ، رأت فتاة جميلة تقف فى الظلام ، ممسكة بمظروف فى يدها .. وأبتدرت الفتاة المرأة العجوز سائلة :

— هل « شنجى سان » موجود .. بالمنزل ؟

— كلا ، لقد حضر منذ قليل ، ثم خرج ثانية !

— لقد عثرت على هذا المظروف على الشاطىء .. ولما كان اسمه مكتوبا عليه ، فقد ..

— ان هذه لمكرمة منك .. لا بد أنه خرج ليبحث عنه !

— أتودين أن أذهب لأخبره ؟

— أحقا تفعلين ؟ شكراً لك .. شكراً لك !

***

وكان الشاطىء يسبح فى ظلام دامس ، عندما لمحت « هاتسو » شبح « شنجى » ، منحنيا خلف أحد القوارب ، وقد راح ينقب فى الرمال . ولم يشعر الفتى بقدومها الى أن وقفت أمامه .. وأفضت اليه « هاتسو » بأنها عثرت على مظروف نقوده ، الذى كان يربض فى تلك اللحظة آمنا بين يدى أمه ! .. واستطردت تشرح له كيف انها اضطرت أن تسأل ثلاثة أشخاص عن عنوان منزله قبل أن تستطيع الاهتداء اليه !

وتنهد شنجى بارتياح ، ثم ابتسم وقد ومضت أسنانه البيضاء من خلال الظلام .. ولما كانت الفتاة قد أقبلت راكضة

طوال الطريق ، فقد أخذ نهداها يعلوان ويهبطان بسرعة جعلت « شنجى » يستعيد فى ذهنه صورة أمواج البحر الرجراجة ! ٠٠ ورغم أن رؤيته للفتاة قد أزاحت التعب والجهد اللذين لاقاهما طوال يومه ، وأعادت الانتعاش والغبطة الى روحه ، فانه لم يستطع أن يحبس الكلمات التى انطلقت من فمه بغير ارادته ، فقد وجد نفسه يسأل الفتاة :

ـ لقد سمعت انك سوف تتزوجين من ياساو كاواموتو ٠ فهل هذا صحيح ؟!

وكان وقع سؤاله عليها عجيبا ! ٠٠ فقد انفجرت ضاحكة ، ثم علا ضحكها وأخذ يدوى شيئا فشيئا حتى كادت تختنق !٠٠

وحار شنجى كيف يسكتها ، لكنه اقترب منها ، وأراح كفه فوق كتفها ٠ ورغم أن لمسته كانت رقيقة ، الا أن الفتاة سرعان ماسقطت فوق الرمال ، وهى لاتنقطع عن الضحك٠٠

واذ ذاك انحنى شنجى فوقها ، وقد أمسك بكتفيها ، وراح يهزها بعنف متسائلا : « ماذا دهاك ؟ ٠٠ ماذا دهاك ؟ » ٠٠ وسرعان ماخف ضحكها ، ثم نظرت الى عينى الفتى فى جد واهتمام ٠ فأدنى « شنجى » وجهه منها ، وأعاد سؤاله قائلا :

ـ أخبرينى ٠٠ هل هذا صحيح ؟

ـ أيها السخيف ، انها لأكذوبة كبرى ٠٠ أكذوبة حقيرة !

وفى اللحظة التالية ، كان الاثنان يجلسان فى ظل أحد القوارب ، وقد ضم كل منهما ركبتيه الى صدره ٠٠ وفجأة وضعت الفتاة يدها على صدرها ، وقالت :

ـ أوه ٠ ٠ لكم أوجعنى قلبى ! ٠ ٠ لقد انسقت فى الضحك حتى وخزنى قلبى ٠ ٠ هنا ٠٠ فى هذا الموضع !

وفى غير وعى ، وضع شنجى يده على قلبها ، فلامست أصابعه ثديها الأيسر ، وما لبثت أن سألها :

– كيف حالك الآن ؟

– لقد شعرت بتحسن بمجرد ضغط كفك على صدرى !

وسرت عدوى اللهاث الى « شنجى » ، وأخذ صدره يخفق بشدة ·· وفجأة تقارب خداهما حتى كادا أن يتلامسا ، فسرت رائحة جسد كل منهما ودفئه الى الآخر ، ولم يشعرا الا وقد التحمت شفاهما الجافة المتشققة فى قبلة طويلة ، فذاق شنجى فى شفتيها شيئا من طعم الملح ، أشبه بطعم أعشاب البحر !

وأخيرا ، انقضت اللحظة ، فابتعد الفتى عن الفتاة ناهضا ، وقد شمله شعور بالذنب وتأنيب الضمير ، فى أول تجربة له من هذا القبيل ! ·· لكن بعد قليل ، استرد الفتى هدوء نفسه ، وقال فى صوت هادىء يفيض رجولة :

– غدا ، سأذهب ببعض السمك الى منزل حارس المنار ، بمجرد انتهائى من الصيد !

وفى اليوم التالى ، عاد « شنجى » من البحر يحمل هديته المعتادة الى حارس المنار وزوجته · وسار فى طريقه الى الفنار يؤرجح سمكتين من سمك الثعبان لايقل طول الواحدة منهما عن ست بوصات ! · · وما أن جاوز مؤخرة ضريح (ياشيرو) ، حتى تذكر انه لم يقدم بعد الى اله البحر صلاة الشكر ، لاستجابته الى طلبه بمثل هذه السرعة · فقفل عائدا ، ودار حول الضريح الى أن بلغ واجهته ، وهناك وقف يصلى فى خشوع !

وفى تلك الأثناء ، اتجهت « هاتسو » ، فى طريقها الى منزل حارس المنار ، تحمل لزوجته هدية من « خيار البحر » ملفوفة فى صحيفة قديمة ، فقوبلت بالترحيب الحار من الحارس وزوجته · وسرعان ما استغرق الثلاثة فى الحديث

فى مختلف الشئون ! ٠٠ فلما غربت الشمس ، وخيم الظلام على الجزيرة ، لمحت الزوجة للفتاة بأن موعد عودتها الى منزلها قد حان ، وان القلق قد يساور قلب أبيها لغيابها ٠٠ غير أن الفتاة تظاهرت بعدم ادراك قصدها ، ولم تبد عليها أية رغبة فى الانصراف ، بل تطوعت بمساعدة المرأة فى اعدادطعام العشاء !

وأخيرا ، وصل الى مسامعهم صوت وقع أقدام فى الخارج ، وانبعث صوت من ثنايا الظلام ينادى قائلا : « طاب مساؤكم » ، فنظرت الزوجة من باب المطبخ ، ثم قالت : « أيها الأب ٠٠ لقد أحضر لنا « شنجى سان » بعض السمك » ٠ فأجاب الزوج الذى كان يجلس بجوار الموقد قائلا للفتى : « أشكرك مرة أخرى ٠٠ تفضل بالدخول ، أيها الفتى شنجى !! »

وفى غمرة ذلك الترحيب ، التقت نظرات الفتاة والفتى ٠ وصادف أن اتجهت الزوجة بنظرها نحوهما ، فلمحت « شنجى » و « هاتسو » وهما يتبادلان الابتسام ، فقالت :

ـ أوه ٠٠ يبدو انكما قد تعارفتما من قبل ٠٠ هذا حسن! ٠٠ انها لقرية صغيرة ٠٠ تفضل بالدخول يا « شنجى سان » ٠٠ أوه ٠٠ لقد تذكرت ٠٠ لقد أرسلت ابنتنا « شيوكو » خطابا من طوكيو ، وألحت فى السؤال عنك وعن أحوالك ، يا « شنجى سان » ٠٠ وهى تقول انها ستعود الى الجزيرة خلال عطلة الربيع !

ثم أردفت قائلة وهى تبتسم فى مكر :

ـ لاشك ـ اذن ـ فى أن اختيارها قد وقع عليك ٠ لذا أرجو أن تحرص على رؤيتها عندما تجىء !

وكانت قدما « شنجى » قد اجتازتا عتبة الدار ، غير أن تلك الكلمات التى باغتته ، دفعته الى التقهقر فى خطوات عجلى متعثرة ٠ وأخذ الجميع ينادون عليه ، غير انه واصل

تراجعه ، وقد راح ينحنى لهم بين خطوة وأخرى ٠٠ فضحكت الزوجة ، وقالت :

ـ هذا الـ « شنجى » ٠٠ انه حقا لفتى خجول !

***

وقبع الفتى فى الظلام ينتظر قدوم « هاتسو » ٠ ولم يمض وقت طويل حتى رأى شبح الفتاة تسير فى الممر المؤدى الى (منحنى النساء) ، وقد أمسكت فى يدها بمصباح كهربائى صغير ، ينير بشعاعه الطريق أمامها ٠٠ وجاوزته الفتاة دون أن تفطن الى وجوده ، فركض خلفها حتى أدركها ، ثم أحاطها بذراعيه من الخلف ٠٠ واذ ذاك أطلقت الفتاة صرخة فزع ، ثم سقطت على الارض ٠٠ وما لبث « شنجى » أن انحنى فوقها ، فقبض على ذراعيها ، ثم جذبها الى أعلى حتى وقفت على قدميها ، ثم أخذ ينفض التراب الذى علق بثوبها فى رقة وحنان !

أما هاتسو ، فقد وقفت كالطفل لا تحرك ساكنا ، وقد أسندت يدها فوق كتفيه القويتين ٠٠ وفيما كان شنجى ينفض التراب عن ثوبها ، لاحظ علامات الغضب والاستياء تبدو على قسمات وجهها ، فلم يملك أن سألها :

ـ لماذا أنت غاضبة ؟ ٠٠ أتراني قد فعلت مايثير استياءك ؟!

ـ انه كل ذلك الحديث عن ٠٠ « شيوكو سان » !

ـ يالك من غبية !

ـ اذن ، فالأمر ليس صحيحا ؟

ـ كلا ، ليس صحيحا !

وبعد قليل ، كان الاثنان يسيران الهوينا ، وقد أمسك شنجى بالمصباح ، لينير أمامهما الطريق الوعرة المنحدرة ، وكأنه قبطان بأخرة ! ٠٠ واذ كان الصمت يخيم حولهما ، أراد الفتى أن يبدد ذلك السكون ، فأخذ يبث الفتاة أمانيه

وآماله ، مؤكدا انه يرجو أن يتمكن ، ذات يوم ، من أن يقتصد من المال مايكفل له شراء سفينة صيد صغيرة ، حتى اذا تحقق له ذلك ، عمل جاهدا على توفير السعادة لأمه وأخيه الصغير وسائر أهل الجزيرة !!

وأنصتت « هاتسو » الى حديثه دون أن تنبس بكلمة ، غير انها كانت تطرق برأسها ـ بين اللحظة والأخرى ـ علامة الموافقة ، ولم يطرق الشك أو الملل ـ من حديثه ـ قلبها لحظة واحدة ، بل فاض وجهها بتعبير صادق عن مدى ثقتها به ، مما بعث الغبطة والنشوة فى قلب الفتى الولهان !

- ٥ -

أفرغت السفينة (كاميكازىمارو) حمولتها من الطلبة والطالبات العائدين لقضاء عطلة الربيع فى الجزيرة ، على رصيف (توبا) الذى يقع فى الجانب المقابل لها .. ووقفت جموع المسافرين تنتظر وصول القارب الذى سيقلها الى الشاطىء ، وبينهم « شيوكو » ابنة حارس (الفنار) التى كانت تتلقى العلم فى (طوكيو) .. وكانت ترتدى ثوبا بسيطا ، بنى اللون ، وقد خلا وجهها من أى أثر للزينة ، وارتسم عليه تعبير مكتئب من فرط احساسها بحرمانها من الجمال ، مما دفعها الى أن تعتزل الناس وتهجر المجتمعات ، فتفرغ قنوطها ويأسها فى الكتب .. وكانت تشكو ، دائما وأبدا من انها قد ورثت قبح الخلقة عن أبيها !

وفيما كانت تنتظر مجىء القارب ، وقد أوشك صبرها على النفاد ، شعرت بيد تربت على كتفها ، فالتفتت الى الخلف ، فاذا بها ترى « ياساو كاواموتو » رئيس جمعية الشبان الذى وقف ضاحكا وقد التمعت سترته المصنوعة من الجلد تحت أشعة الشمس .. ولم يلبث أن قال لها :

ـ هوه ٠٠ مرحبا بعودتك ٠٠ لقد حلت عطلة الربيع ، أليس كذلك ؟

ـ نعم ، فلقد انتهت الامتحانات البارحة ٠

ـ اذن ، فقد عدت كى ترتشفى جرعة أخرى من « لبن أمك ؟!

وكان ياساو يتحدث اليها كمن يحاول أن يثبت لتلك الفتاة التى تتلقى العلم فى الجامعة ، انه لايقل عنها طلاقة فى الحديث !

غير انها ادركت فى الحال ما يكمن خلف المرح والحيوية اللذين لاحا من خلال حديثه ، فقد كان ينظر اليها وكان لسان حاله يقول : « لاريب ان هذه الفتاة معجبة بى ! » ٠٠ واذ ذاك عاودها الاحساس بالقنوط والأسى ، وراحت تسائل نفسها : ترى ألن يقدر لها قط أن تقابل ـ يوما ـ ذلك الشخص الذى ينظر فى عينيها ، فيقول لها : « اننى أحبك » ، بدلا من أن يقول : « انك تحبيننى » ؟ ! ٠٠ **لطالما راودها ذلك الحلم الجميل ، غير ان زمنا طويلا قد انقضى منذ أن يئست تماما من تحقيقه !**

وأفاقت من تأملاتها على صوت « ياساو » وهو يقول : « لقد أوشك القارب على الاقلاع » ٠٠ فلما حاولت أن تصعد الى القارب ، مد لها الفتى يده فأمسك بساعدها ٠٠ وكان يتمتع ـ حقا ـ بعضلات قوية ، ولكن شتان مابين يده التى كانت تفيض قوة وحيوية ، وبين ماتعشقه فى يد « شنجى » ـ الذى كان يملأ فؤادها وأحلامها ، والذى كانت تتحرق شوقا الى رؤياه ـ من رقة وحنان !

فلما استقرا فى القارب ، جلس « ياساو » الى جوارها وخيم عليهما صمت طويل ، قطعته شيوكو أخيرا بقولها :

ـ ماهى آخر أنباء الجزيرة ؟

ــ لا جديد ٠٠ أوه ، نعم ٠٠ لقد استعاد العم « تيرو مياتا » ابنته ٠٠ انها تدعى « هاتسو » ، وهى بارعة الجمال !

واذ ذاك غيمت سحابة من الحزن على وجهها ٠٠ فقد كان « الجمال » الكلمة الوحيدة التى لاتنفك تطاردها أينما حلت ، فتعيد الى ذاكرتها دمامة وجهها وبشاعة خلقتها ! ٠٠ واسترسل « ياساو » فى ثرثرته قائلا :

ــ ان العم « تيرو » يفضلنى على سائر الشبان ٠٠ لذلك يقول كل من فى القرية ان اختياره سوف يقع على لأكون زوجا لابنته !

غير ان أفكار الفتاة كانت شاردة بعيدا ، فلم تستمع الى حرف واحد مما قاله لها ٠٠ !

***

وصل « شنجى » الى برج المراقبة والمياه تقطر من ملابسه ٠٠ لقد هبت فى ذلك اليوم عاصفة هوجاء ، وزمجرت الريح وأرعد البرق ، ثم هطلت الامطار بغزارة ٠٠ غير ان غضب الطبيعة الثائرة ماكان ليعوقه عن موافاة حبيبته حسب اتفاقهما فى اليوم السابق !

فما أن وصل الى البرج القديم المتهدم ــ الذى كان يستخدم فى مراقبة جنود الاعداء أثناء الحرب ــ حتى لجأ اليه ليحميه من العاصفة ، وهناك جمع بعض الحطب وأشعل نارا ، ثم جلس يستدفىء من البرد الذى سرى فى جسده من ثيابه المبتلة ، محتضنا ساقيه ٠٠ لقد وصل الى موعد اللقاء مبكرا ، فلم يعد أمامه ما يفعله سوى أن ينتظر قدوم محبوبته !

وسرعان ماتسلل الدفء شيئا فشيئا الى جسده المرهق فلم يمض وقت طويل حتى كان قد استغرق فى نوم عميق ٠

فلما استيقظ ، أخذ يتساءل عما اذا كان قد نام فترة طويلة .. وكانت النار مازالت تتوهج مثلما رآها قبل غفوته ، غير انه لمح شبحا غامضا يقف فى الجانب الآخر من النار .. أتراه كان يحلم ؟ .. كلا ، لم يكن هذا حلما ، ولا كانت عيناه تخدعانه . فقد كان - بالتأكيد - يرى فتاة تقف خلف النار وهى تنشر قميصا أبيض اللون ليجف ، وقد ظهر بجلاء النصف الاعلى من جسدها عاريا .. وأدرك انها « هاتسو » ، واذ ذاك راودته فكرة خبيثة ، هى أن يتظاهر بالاستغراق فى النوم ، حتى يستطيع أن يراقبها خلسة بعينيه نصف المغمضتين !

وكانت نساء الجزيرة اللواتى يحترفن مهنة الغطس لصيد الاخطبوط ، قد تعودن ان يجففن أجسادهن أمام النار بمجرد خروجهن من الماء .. ومن ثم فان « هاتسو » لم تتردد فى أن تفعل الشيء عينه ! .. لقد وجدت نارا مشتعلة ، ورأت فتاها مستغرقا فى النوم ، فقررت فى الحال ، دون تردد - وكما يفعل الاطفال - الا تضيع الوقت ، فانتهزت فرصة نوم « شنجى » لتجفيف ملابسها وجسدها المبتلين ! .. ومجمل القول ، أن فكرة اقدامها على التجرد من ملابسها امام رجل غريب ، لم تكن لتخطر لها على بال اطلاقا ، وغاية مافى الامر ، انها لم تكن قد وجدت نارا سوى هذه ، وان الفتى كان مستغرقا فى النوم !

ولو أن « شنجى » كان أكثر خبرة بالنساء ، لأدرك على الفور ، أن ذلك الجسد العارى ، الذى يقف خلف النار ، كان جسد فتاة عذراء ! .. لقد كان لون بشرتها ابعد ما يكون عن البياض ، نتيجة لتعرضه الدائم لحرارة الشمس وماء البحر .. وكان صدرها عريضا ، يبرز منه نهدان نافران صغيران ، أشاح كل منهما - قليلا - عن الآخر ، وكأنه خجلان من رفيقه ،

كما أطلت من طرفيهما برعمتان بلون الورد !

غير ان « شنجى » لم يستطع أن يستمر طويلا فى القيام بدور المستغرق فى النوم ، فقد كان من العسير عليه أن يراقب ذلك الجمال الفتان دون أن يتحـرك ، ومن ثم مالبث أن طـرف بعينيه ٠ وفى سرعة البرق سترت الفتاة تدييها خلف قميصها المبتل وهى تصيح : « أغمض عينيك ! » ٠٠ فأطاعها الفتى « الشريف » ، وأطبق عينيه تماما ، وقد أخذ ضميره يوبخه على اقدامه على تلك الفعلة الذميمة ٠٠ على أن الذنب لم يكن ذنبه ، فهو لم يقصد قط أن يستيقظ فى تلك اللحظة بالذات !

واستولت الحيرة على « هاتسو » ، ولم تدر كيف تتصرف ، بل انها لم تحاول أن ترتدى قميصها ، فاذا بها تهتف مرة أخرى فى صوت يفيض بنبرات الطفولة : « اغمض عينيك » ٠ غير أن شنجى لم يحاول - هذه المرة - أن يتظاهر باغلاق عينيه ، فلم يكن منظر امرأة عارية بالأمر الغريب عليه ! ٠٠ لقد اعتاد - منذ نعومة أظفاره - أن يرى نساء قريته عاريات كما ولدتهن أمهاتهن ، وان كانت هذه هى المرة الاولى التى يشاهد فيها الفتاة التى يهواها ٠ وقد تجردت من الملابس !

وأخيرا نهض شنجى واقفا ، **وتقدم من الفتاة التى أخذت فى التقهقر الى الخلف فى وجل ، بينما انتصبت النيران حائلا بينهما** ٠٠ وسألها : « لماذا تفرين منى ؟ »

- لماذا ؟ ٠٠ لأننى أشعر بالخجل !

واذ ذاك ، زمجرت الرياح فى الخارج وازداد هطول الأمطار بغزارة ، وصفقت فى عنف نافذة المبنى المتهدم ، فأجفلت الفتاة فى رعب وقد أوجست شرا ، ومن ثم راحت تتقهقر فى خطوات متعثرة - وقد أدركت الا مهرب أمامها -

حتى لامس ظهرها حائط المبنى المصنوع من الاسمنت ٠٠ ومد « شنجى » ذراعيه نحوها ، هاتفا فى توسل : « هاتسو ! » ٠٠ ثم قفز فوق النار ، فلما بلغ الفتاة ، ولامس صدره ثدييها ، طوق جسدها العارى بذراعيه القويتين ٠٠ ومع انه كان يظن أن الفتاة ستقاومه ، فانه لم يلبث أن أحس بذراعيها تضمانه اليها ٠٠ وسرعان ما هوت الفتاة الى الأرض ، جاذبة الفتى معها ٠٠ وأخيرا همست قائلة :

ــ ان الأرض ملأى بالأشواك ٠٠ انها تؤلمنى !

ومد الفتى يده بالقميص محاولا أن يفرشه تحت جسدها ، غير أنها أمسكت بالقميص وكورته فى يدها ، ثم وضعته أسفل وسطها ، محاولة أن تستر جسدها العارى ٠٠ وقالت فى لهجة تفيض عفة وطهرا :

ــ انها لخطيئة ٠٠ انها لخطيئة ! ٠٠ من العار أن تفعل الفتاة هذا قبل الزواج !

ــ هل تعتقدين حقا انها خطيئة ؟

ــ انها خطيئة الآن ٠٠ لأننى قررت أن تكون أنت الرجل الذى سوف أتزوجه !

وكانت ذراعاه لا تزالان تحتضنانها ، وقد أشعلت القبلة الطويلة التى تبادلاها ، النار فى جسده المشتاق ٠٠ غير أن عبارتها الأخيرة ما لبثت أن أحالت ذلك العذاب الى سعادة طاهرة مقدسة ! ٠٠ وبعد أن ارتدت الفتاة ثيابها أصبح فى وسعهما أن يتبادلا القبلات فى راحة وأمان !

***

ولما شرع الاثنان فى العودة الى منزليهما ، لم تكن العاصفة قد هدأت بعد تماما ، ومن ثم اختار « شنجى » الطريق المألوفة التى تمر بالفنار ، غير عابىء بما عساه أن يتبادر

الى ذهن الحارس وزوجته ، لو صادف أن لمحاه يعبر الطريق المهجورة متأبطا ذراع « هاتسو » !

وفى تلك اللحظة ، كانت « شيوكو » ـ ابنة حارس المنار ـ تطل من النافذة ، وقد سرحت ببصرها الى طريق الجبل ، مستغرقة فى التفكير ، متسائلة عن السبب الذى قد عاق « شنجى » عن الحضور لزيارتها ٠ وفجأة لمحت شبحى فتى وفتاة وهما يهبطان الجبل ، وقد التصق كل منهما بالآخر ٠ فأخذت تدقق النظر حتى استطاعت أن تتعرف عليهما ٠٠ فأسرعت بالابتعاد عن النافذة ، وأخذت تجول بنظرها فى أرجاء الغرفة ، وقد اعتصر الألم قلبها ٠٠ وكانت أمها تجلس بجوار المدفأة تحيك بعض الملابس ، بينما انهمك أبوها فى تدخين غليونه ٠٠ وكانت العاصفة ماتزال تزمجر خارج المنزل ، بينما كان الهدوء يسود فى الداخل ، **ولكن ، هل كان بوسع أحد أن يدرك حقيقة ما يعتمل داخل قلب « شيوكو » المعذب من اكتئاب ووحشة ؟!**

- ٦ -

وفى اليوم التالى ، كانت العاصفة قد هدأت والبحر قد خمد ، والسماء قد صفت ، فعادت القوارب الى الاقلاع فى عرض البحر ، بحثا عن الصيد ٠٠ ولم تكد الشمس تشرق حتى يممت « شيوكو » صوب متجر « ياساو » ٠ ورغم أنها جاهدت نفسها طويلا ، حتى لا تبوح لياساو بما شاهدته أثناء العاصفة ، فانها مالبثت أن سردت عليه ماكان من شنجى وهاتسو ، ورؤيتها اياهما وهما يسيران عبر ممر الجبل متعانقين !

ونزل الأمر على « ياساو » نزول الصاعقة ، وأصاب

كبرياءه فى الصميم ، فقضى ليلته يتقلب فى فراشه وقد اعتمل الغيظ والحقد فى صدره ٠٠ لقد كان ابن أغنى رجل بالجزيرة ، وكان الوحيد الذى يملك ساعة ذهبية فوسفورية ، فكيف استطاع اذن ذلك الغلام « البكر » ، الذى لا خبرة له بالنساء ، أن يستحوذ ـ دونه ـ على عواطف ومشاعر أجمل فتيات القرية ؟! ولم يشك ياساو قط فى أن الفتى قد فاز بجسدها أيضا ، كما انه أيقن من انه لم يرغمها على الرضوخ له ، وأن الأمر لابد قد تم بمحض رغبتها واختيارها ! ٠٠ **وكان أشد مايؤلمه ان ذلك الفتى الفقير قد كسب منه جولة غرامية ، وهو الذى طالما تباهى بأن الفتاة التى تستطيع مقاومة سحره وفتنته لم تكن قد ولدت بعد !**

فلما انبلج الفجر ، هداه تفكيره المضطرب الى الخطة التى يجب أن يتبعها حتى يصل الى تحقيق مأربه ٠٠ لقد كانت فى القرية بئر واحدة يستقى الماء منها جميع أهل الجزيرة ، ومن ثم فقد عمدت السلطات ـ منعا للتزاحم والشجار ـ الى تحديد ساعة معينة من كل يوم ، تذهب خلالها فتاة من كل أسرة لجلب الماء من البئر ٠ وكان ياساو قد قرأ فى القائمة المعلقة اسم عائلة « تيروكيتشى مياتا » أمام الساعة الثانية بعد منتصف الليل ٠ وكان ذلك يعنى ان « هاتسو » سوف تذهب الى البئر بمفردها ، بينما تكون القرية فى سبات تام ، فما الذى يمنعه من أن ينتظرها فى الظلام ، حتى اذا ماحضرت هاجمها واغتصبها ٠٠ انها لن تجرؤ ـ بعد أن يتم الأمر ـ على أن تفضى الى والدها بما حدث !

وقضى « ياساو » اليوم التالى وهو يترقب فى لهفة حلول الظلام ، فلما غربت الشمس عاد الى منزله واستلقى فى فراشه ٠ ورغم أن الغيرة والحقد اللذين استبدا بكيانه ضد

شنجى ، كانا كفيلين وحدهما بطرد النوم من عينيه ، فقد طفق يقرص فخذيه حتى لايستغرق فى النوم !

وفى الساعة الواحدة والثلث ، تسلل « ياساو » الى خارج المنزل ، فترامى الى سمعه فى وضوح صوت أمواج البحر الهادئة ، بينما كان القمر يرسل أشعته الفضية فوق أرجاء الجزيرة ، والسكون العميق يخيم على القرية النائمة . واجتاز ياساو المدرسة الابتدائية ، ثم صعد الدرجات الحجرية ، وتابع سيره حتى بلغ بناء مكتب البريد . وهناك استند الى جذع شجرة ضخمة فى انتظار حضور الفتاة !

***

ولما حلت الساعة الثانية ، لمح ياساو « هاتسو » مقبلة نحوه ، وقد حملت فوق كتفيها عصا غليظة يتدلى من كل طرف منها دلو فارغ .. واذ كانت الفتاة خالية الذهن تماما عن الخطر الداهم الذى يتربص بها فى الظلام ، راحت تسير بدلويها فى خطوات مرحة رشيقة ، وكأنها تجد متعة فى أداء ذلك العمل الشاق !

وفى تلك اللحظة ، استوقف الضوء المنبعث من ساعة « ياساو » الفوسفورية ، انتباه (دبور) كان يحوم حول المكان ، فأقبل يطن فى فضول بحثا عن مصدر الضوء . واذ لم يجد فى الساعة مايرضى فضوله ، صوب ذنبه نحو ساعد الفتى وغرسه فيه بقوة جعلت « ياساو » يصرخ من شدة الألم !

وأجفلت « هاتسو » ، ثم استدارت بسرعة تبحث عن مصدر الصيحة . وفى لمح البصر ، اذا بها تلقى بالدلوين أرضا وتمسك بالعصا الغليظة ، وقد اتخذت لنفسها موقف الدفاع . فأدرك « ياساو » انه قد فقد عنصر المفاجأة ، ومن ثم قرر

أن يتظاهر بأنه كان يقصد مداعبتها ، فبرز من مكمنه ، وضحك ضحكة مصطنعة ، ثم قال :

ــ هيه .. لقد نجحت فى ادخال الرعب الى قلبك .. أليس كذلك ؟ .. لقد ظننتنى عفريتا !

ــ يا للسماء .. انه الأخ « ياساو » !

ــ لقد اختبأت هنا كى أفزعك !

ــ ولكن .. أفى مثل هذه الساعة من الليل ؟

وتقبلت « هاتسو » تفسيره دون تفكير ، وصدقت فعلا انه كان يقصد مجرد مداعبتها .. واذ ذاك استغل « ياساو » فرصة ثقتها به واطمئنانها اليه ، فاختطف العصا فجأة من يدها ، ثم أمسك بساعدها فى قوة قائلا :

ــ والآن ، استمعى الى .. اذا كنت لا ترغبين فى أن يعرف الجميع بامر العلاقة التى بينك وبين « شنجى » ، فاصغى الى جيدا .

وصعد الدم الى وجهها ، وأخذ صدرها يعلو ويهبط فى غضب ، ثم قالت :

ــ دع ذراعى .. ماذا تعنى بالعلاقة التى بينى وبين « شنجى » ؟

ــ كفاك تظاهرا بالبراءة ، وكأنك لم تستسلمى لشنجى !

ــ انك تكذب .. تكذب .. اننى لم ارتكب هذا الفعل !

ــ اذن ، ما الذى كنتما تفعلانه فوق الجبل ، فى ذلك اليوم .. يوم العاصفة .. أتذكرين ؟ .. لا تخشى شيئا . لسوف أفعل أنا أيضا عين الشىء .. هيا .. هيا !

وقالت « هاتسو » وهى تحاول أن تتملص من قبضته :

ــ اذهب عنى .. ابتعد عنى !

غير أن « ياساو » لم يكن بوسعه ــ فى تلك اللحظة ــ أن

يتركها تفلت من يده ، اذ لو انه فعل ، لهرعت من فورها الى أبيها وقصت عليه كل شيء ، أما لو نال منها مأربه ، فلن تجرؤ - في هذه الحال - على أن تتفوه أمامه بكلمة !.. واستطاع «ياساو» - أخيرا - أن يطرحها على الأرض ، فرأى خياشيمها تتحرك في عصبية ، وعينيها تومضان ببريق عجيب !

وفجأة ضمت « هاتسو » شفتيها ، ثم استجمعت قوتها وصوبت الى وجهه بصقة كبيرة أصابت ذقنه ! .. وعندئذ ، غلت الدماء في عروقه ، وازدادت الرغبة في جسده اشتعالا . واذ ادنى وجهه من خدها ، وأخذت شفتاه تبحثان في جنون عن شفتيها ، شعر بثدييها يهتزان تحت جسده !

غير أن (الدبور) عاد الى الطنين حوله من جديد ، فلدغه لدغة موجعة في مؤخرته . واذ ذاك أفلت « ياساو » الفتاة وهو يسب ويلعن ، فنهضت هذه بسرعة ، وأخذت تعدو حتى بلغت شجرة مرتفعة ، سرعان ما تسلقتها .. فلما حاول « ياساو » أن يلحق بها ، قذفته بحجر ، فتراجع الى الخلف ثم راح يتوسل اليها قائلا :

- انزلي من الشجرة .. أقسم انني لن امسك بسوء !

- كلا ، لن أنزل !

- أتوسل اليك .. وسأفعل كل ما تطلبينه مني !

فلما لم يسمع جوابا ، استطرد قائلا :

- أتوسل اليك .. لا تخبري أباك بشيء .. انني على استعداد لأن أفعل أي شيء ، لو قطعت على نفسك وعدا بعدم الافضاء بشيء لأبيك !

- حسنا .. لن أقول له شيئا ، على شريطة أن تحضر لي الماء من البئر وتوصله الى المنزل !

- أحقا ؟

ـ حقا !

ـ حسنا ، سوف أفعل .. فليس العم « تيرو » بالشخص الذى يستهان به !

وانطلق ياساو يقوم بالمهمة التى أخذ على عاتقه اتمامها ، دون أن ينطق بكلمة .. فما أن ملأ الدلوين بالماء ، وعلقهما بالعصا ، حتى حملهما على كتفيه ، ثم سار فى الطريق يتقدم الفتاة .. وكانت القرية لا تزال ترقد فى سبات عميق ، وسقوف المنازل تسبح فى بحار من ضوء القمر الفضى ، بينما كانت « هاتسو » تتبع خطوات « ياساو » من بعيد ، فاذا ما توقف توقفت ، واذا ما تابع سيره تبعته فى سكون !

- ٧ -

عاد « هيروشى » ـ أخو « شنجى » ـ الى المنزل ، وقد كاد يسقط من فرط الجوع ، بعد الجهد المضنى الذى بذله فى اللعب مع أصدقائه . ولم يكن « شنجى » قد عاد من الصيد بعد ، فوجد أمه تدفع بالحطب الى الموقد الذى وضعت فوقه وعاء الطعام ، فسرت رائحة الطعام اللذيذة فى أرجاء المطبخ !

واستلقى «هيروشى» فوق الحصير ، وما لبث أن التفت الى أمه فجأة ، وسألها :

ـ أماه .. ماذا تعنى كلمة « أوميكو » ؟ .. لقد أخبرنى أحد الصبية أن هذا ما فعله « شنجى » مع « هاتسو » !

وقبل أن يتم عبارته ، اذا بأمه تجلس الى جواره ، وقد انقلبت سحنتها ، وأومضت عيناها ببريق مخيف ، ثم قالت :

ـ هيروشى .. أنت .. أين سمعت هذا ؟.. من قال لك هذا ؟

ـ انه « سوشان » !

ـ اياك ان تردد مثل هذا الكلام مرة أخرى ، بل اياك أن

تنطق بكلمة منه أمام أخيك .. أسمعت ؟ والا فسوف أحرمك من الطعام تماما .. أفهمت ؟ !

لقد كانت أمه تنظر ـ عادة ـ الى العلاقات الغرامية التى تدور بين فتيان الجزيرة وفتياتها ، برحابة صدر .. وحتى فى أثناء موسم الصيد ـ حين كانت تقف النساء أمام النار ليجففن ملابسهن ، ويرددن الاشاعات ـ كانت تحرص هى دائما على أن تمسك لسانها ! .. ولكن . لما كانت الاشاعات الخبيثة تدور ـ هذه المرة ـ حول ابنها ، فقدرأت أن أمومتها تفرض عليها أن تتدخل فى الأمر !

فما أن استغرق « هيروشى » فى النوم ، حتى اقتربت من « شنجى » ـ وكان قد عاد من الخارج ـ ثم همست فى أذنه بصوت حازم :

ـ هل تعلم أن الناس يرددون شائعات عن وجود علاقة دنيئة بينك وبين هاتسو ؟

فهز شنجى رأسه وقد صعد الدم الى وجهه خجلا .. لقد كانت أمه تعانى بدورها من الحرج ، غير انها استجمعت شتات جرأتها حتى تواصل حديثها فى صراحة تامة ، ثم استطردت تقول :

ـ أخبرنى ، هل ضاجعتها ؟

فهز شنجى رأسه مرة أخرى . فقالت الأم :

ـ اذن ، فأنت لم ترتكب شيئا يصلح لأن يكون مادة للاشاعات ! .. أتقول الحق ؟

ـ نعم ، لقد أفضيت اليك بالحقيقة !

ـ حسنا ، اننى أصدقك .. ولكن ، أرجو أن تكون أكثر حرصا فى المستقبل ، فان الناس لا يملون أبدا التدخل فى شئون غيرهم !

***

وفى مساء اليوم التالى ، شهدت أم شنجى اجتماعا عقد فى نادى (الاله القرد) ، وهو النادى النسائى الوحيد فى الجزيرة . وما أن ولجت النادى حتى توقفت النسوة فجأة عن الحديث ، وأخذن يتطلعن اليها وكأنها قد القت عليهن ببطانية مبللة ! .. فأدركت فى الحال انهن كن يثرثرن حول علاقة ابنها الغرامية !

وحدث الشىء ذاته عندما ذهب « شنجى » الى جمعية الشبان ، فقد وجد مجموعة من الفتيان يلتفون حول منضدة فى وسط النادى ، وقد راحوا يتجاذبون أطراف الحديث . فما أن لمحوه حتى أخلدوا الى الصمت فجأة ، وساد المكان سكون مطبق لم يعكره سوى صوت أمواج البحر !

وبعد هاتين الواقعتين بأيام قلائل ، وبينما كان « شنجى » يتناول غداءه على سطح السفينة (تايهى مارو) ، اذا بزميله « ريوجى » يكاشفه بمكنون نفسه ، فيقول :

ـ أيها الأخ شنجى ، ان الدم ليغلى فى عروقى ، عندما استمع الى ما يردده « ياساو » فى أرجاء القرية عنك وعن ..

واذ ذاك اندفع « جوكيتشى » رئيس شنجى قائلا :

ـ لقد سمعت أنا أيضا هذا الكلام .. غير أن الغيرة والحقد هما اللذان يدفعان هذا الفتى ـ المغرور بنفوذ والده وثرائه ـ الى نشر هذه الاشاعة الدنيئة .. ولكن ليس هنالك ما يدعوك الى القلق ، فان صادفتما أية متاعب ، فلن أتوانى عن الوقوف فى صفكما !

وهكذا أخذت الاشاعة تنتشر فى أنحاء القرية انتشار النار فى الهشيم ، حتى لم يبق ثمة انسان لم يسمع بها سوى والد « هاتسنو » ! .. وحتى هذا ما لبث أن علم بها

أخيرا ، اذ بينما كان يخلع ملابسه فى « كابين » ملحق بالحمام العمومى ، تناهى الى سمعه صوت شابين ، يدور بينهما حديث على النحو التالى :

ـ لا ريب فى أن العم «تيرو مياتا» قد عاد طفلا من جديد !

.. انه ما زال يجهل أن ابنته قد أصبحت «أبريقا مشروخا» !

ـ وهذا الـ « شنجى » .. لقد خدع الجميع بتظاهره بالسذاجة والطهر ، فبينما يعتبره الجميع طفلا ، اذا به يستولى على الفتاة تحت أنظار أبيها ، ودون أن يحرك هذا ساكنا !

وما أن بلغ بهما الحديث هذا الحد ، حتى اندفع العم خارجا من « الكابين » ، وقد استبد به الغضب ، فقبض على عنقى الشابين ، وما لبث أن ضرب راس كل منهما برأس الآخر ، ثم قذف بجسديهما فى الماء المغلى !

***

وفى اليوم التالى ، أبرز جوكيتشى ـ رئيس شنجى ـ ورقة مطوية ، وعرضها عليه وهو يضحك ضحكة ذات مغزى ، ثم قال :

ـ بينما كنت أمر هذا الصباح أمام منزل العم « تيرو » ، رأيت « هاتسو » واقفة أمام الباب ، فما أن لمحتنى حتى اقتربت منى فى خطوات خجلة ، ثم دست هذه الورقة فى يدى . فلما فضضتها وجدت أنها قد استهلت بعبارة : « عزيزى شنجى » ، ومن ثم قبلت أن اقوم بينكما بدور ساعى البريد ، فأحضرت لك الرسالة !

وأمسك شنجى بالرسالة فى حرص ، ثم أخذ يفضها فى بطء بالغ ، خشية تمزقها .. فلما شرع فى قراءتها ـ بصوت مرتفع ـ وجدها تقول : **« فى الليلة الماضية ، وفيما كان**

والدى يستتحم ، اذا به يستمع الى اشاعة حقيرة تدور حولنا ، فثار ثورة عارمة ، وحرم على أن أرى ((شنجى سان)) مرة أخرى .. أرجو أن تفكر فى طريقة ما ، فاننى أخشى أن أبعث اليك برسالة عن طريق البريد ، لأن ساعى البريد سوف يعلم بالأمر .. لذلك رأيت أن أكتب اليك كل يوم رسالة ، أضعها فى مقبض الجرة الموضوعة أمام المطبخ .. كما أرجو أن تضع رسائلك أيضا فى نفس المكان .. لكن ، اياك أن تحضر شخصيا ، والأفضل أن تكلف صديقا تثق به كى يقوم بهذه المهمة نيابة عنك !

((أواه يا ((شنجى سان)) .. لنظل على حبنا واخلاصنا ، بقلبين ثابتين لا يتزعزعان .. سوف أصلى كل يوم أمام ضريح (ياشيرو) ، داعية الاله أن يحفظ ((شنجى سان)) من أخطار البحر ، واننى لواثقة من أن الاله فى السماء يعلم جيدا ما يدور بين جوانحى !))

وبينما كان « شنجى » يقرأ الرسالة ، كان التعبير المرتسم على وجهه يتغير ـ من لحظة الى أخرى ـ من الأسى والحزن لافتراقه عن محبوبته ، الى الفرحة بتسلمه الدليل الدامغ على صدق عاطفتها نحوه !

وما أن انتهى من قراءة الرسالة ، حتى أخذوا يتناقشون فى شأن من يصلح للقيام بمهمة احضار رسائل الفتاة ، وأخيرا استقر رأيهم على أن « ريوجى » ـ زميل شنجى ـ خير من يستطيع القيام بهذا العمل ، فقد كان يمر ـ عادة ـ أمام منزل الفتاة عند ذهابه الى السفينة صباحا وأوبته منها فى المساء !

***

واصبحت الرسائل اليومية المتبادلة بين الفتى والفتاة ،

الموضوع الرئيسى الذى يشغل الأصدقاء الثلاثة خلال تناولهم طعام الغداء فوق ظهر السفينة (تايهى مارو) ، فكان كل من جوكيتشى وريوجى يشارك الفتى فيما كانت تثيره خطابات الفتاة فيه من مشاعر وأحاسيس .. وقد أثارت رسالة الفتاة الثانية غيظهم وغضبهم ، اذ روت فيها «هاتسو» كيف أن « ياساو » كمن لها فى الظلام ، بعد منتصف الليل ، وكيف انه حاول أن يغتصبها عنوة ، فلما فشل فى بلوغ وطره منها ، أخذ يروج الشائعات الدنيئة عنهما .. لقد حاولت الفتاة كثيرا أن تقنع والدها ببراءة وطهر العلاقة التى تجمع بينهما ، غير انه قرر انه ما دام الجميع يعرفون بأمر هذه العلاقة ، فليس بوسعه أن يقبل زواجها منه !

وكان شنجى يقرأ الرسالة ، وقد احمر وجهه وشعت من عينيه نظرة قاسية . فأدرك جوكيتشى ما قد استقر عليه عزم الفتى ، فابتدره قائلا :

ـ اننى أعرف جيدا ما يدور بخلدك .. انك تزمع أن تنهال على « ياساو » ضربا .. ولكن ، مهلا ، مهلا .. أنصحك بالصبر ! .. ان الفتى لغبى أبله ، فدعه وشأنه .. انك صياد ، وتدرك جيدا مدى الصبر الذى يلزم لصيد سمكة .. فليكن الصبر رائدك ، واننى لعلى ثقة من أنك سوف تفوز بفتاتك فى النهاية !

- ٨ -

بعد ان كانت أم شنجى تضيق بالصخب والضجيج اللذين كان ابنها يثيرهما فى المنزل ، أيام هنائه وصفاء باله ، صار القلق يملأ نفسها ، بعد أن زايل ولدها مرح الشباب وبهجته ، وغدا دائم الوجوم والانعزال !

وفى أحد الأيام ، ارتدت ملابس الخروج ، ويممت صوب

منزل والد الفتاة التى استولت على لب ابنها ، وما أن وصلت الى المنزل حتى هتفت من الخارج قائلة : « طاب يومكم » .. فلما لم تسمع جوابا ، عاودت الكرة مرة أخرى .. وسرعان ما ظهرت « هاتسو » ، فلما رأت أم شنجى أخذت ترحب بها قائلة : « مرحبا بك يا عمتى ! » .

ووقفت الأم تتأمل الفتاة ، وراحت عيناها تنتقلان من وجهها الذى أصابه الشحوب وعينيها المتورمتين الى جسدها الرشيق المتناسق ، فأدركت الفتاة أن المرأة كانت تتفحصها بنظراتها ، فصعد الدم الى وجنتيها خجلا !.. وما لبثت الأم أن استجمعت شتات شجاعتها ، وقالت :

ـ هل والدك بالمنزل ؟

ـ نعم .

ـ أرجوك أن تخبريه بأننى أرغب فى التحدث اليه .

ـ لحظة واحدة من فضلك .

وبعد قليل ، عادت الفتاة وقد بدا الاستياء على ملامحها ، وأطرقت برأسها ثم قالت :

ـ ان أبى يقول .. انه لا يرغب فى التحدث اليك !

ـ أتعنين انه يرفض مقابلتى ؟

ـ نعم ، ولكن ..

ـ حسنا .. اذن ، فأنت تقولين انه يرفض أن يستقبل فى داره أرملة فقيرة مثلى ؟ .. انك تعنين انه لا يرغب فى أن اجتاز عتبة بيته مرة أخرى ، أليس كذلك ؟ .. حسنا .. قولى له .. آتسمعين ؟ .. قولى له اننى لست راغبة فى ذلك ، واننى لن أجتاز عتبة بيته اللعينة ما حييت !

ـ ٩ ـ

وأخيرا حل موسم الغطس ، فاستقبلته نساء القرية

وفتياتها بالحبور والغبطة ، تماما كما يفعل تلاميذ المدارس بعد الانتهاء من الامتحان النهائى ! .. ذلك أن شهرى يوليو وأغسطس كانا أكثر الشهور نشاطا وأوفرها رزقا بالنسبة للنسوة اللاتى يحترفن مهنة الغطس . وكان من عادة الغاطسات ان يتجردن من كل ملابسهن ويزاولن عملهن عاريات، على الشاطىء المنعزل ، البعيد عن الأعين المتلصصة !

وفى أول أيام الموسم، حضرت أم «شنجى» الى الشاطىء ، فوجدت زميلاتها واقفات وقد تجردن من ملابسهن ، ورحن يعرضن صدورهن العارية ، محاولات معرفة من منهن صاحبة أجمل ثديين ! .. فما ان وقع بصرها على « هاتسو » ، حتى وقفت من بعيد تتأمل صدر الفتاة فى اعجاب ، فأدركت على الفور لماذا خمدت - بمرور الوقت - تلك الشائعات التى دارت فى القرية عن وجود علاقة بين الفتاة وابنها . فقد كان مجرد النظر الى ثدييها يقطع بكذب تلك الاشاعة ، اذ كان منظرهما لا يدل فقط - بما لا يدع مجالا للشك - على أن صاحبتهما عذراء لم يمسها رجل ، وانما كان يؤكد أيضا عدم نضجهما ، وانهما ما زالا فى طور التكوين والامتلاء !

ومع أن الأم لم تستطع أن تنكر - بينها وبين نفسها - ما كانت تتمتع به الفتاة من فتنة وجمال ، فانه لم يسعها أن تنسى ما بدر من أبيها ، وقررت أن تتجنب الاقتراب منها والتحدث اليها .. غير أن « هاتسو » ما لبثت أن اتجهت نحوها ، فى خطوات خجلة متعثرة ، وقدمت اليها حقيبة يد صغيرة ، بنية اللون ، وهى تقول : **« أرجو يا عمتى أن تتقبلى منى هذه الهدية المتواضعة ، التى فزت بها فى مسابقة الغطس ! »**

- ولكن .. لماذا ؟ .. لا استطيع !

- أتوسل اليك أن تقبلى .. اننى أرغب فى أن أعتذر الى « عمتى » عما بدر من أبى نحوها ، فى ذلك اليوم !

واذ ذاك هللت بقية النسوة قائلات : « يا لها من فتاة طيبة القلب ! » . وأخذن يمتدحن تصرف الفتاة ، ويحثثن المرأة على أن تقبل الهدية ، فأمسكت الأم بالحقيبة ، وقد تضرجت وجنتاها ، اذ امتلأت نفسها فرحا وسرورا لما أظهرته الفتاة من احترام واريحية ، واغتبطت لتوفيق ابنها فى اختياره لعروسه !

***

ورغم أن موسم الغطس قد جلب معه مزيدا من الرزق لجميع سكان الجزيرة ، فانه لم يحمل لشنجى سوى الألم والحزن ، بعد أن انقطعت فجأة ، وبلا سابق انذار ، رسائل هاتسو اليه ! .. واذ حاول استجلاء الأمر ، علم أخيرا أن أباها قد اكتشف الطريقة التى ابتدعتها « هاتسو » لتوصيل الرسائل اليه ، فحرم عليها ذلك !

وقبل أن ينتهى موسم الغطس ، وصل قبطان الباخرة « يوتاجيما مارو » ــ وكانت أكبر سفينة فى أسطول العم « تيرو مياتا » ــ الى شاطىء الجزيرة ، فاتجه رأسا الى منزل بتروكيتشى ، ومن هناك ذهب لزيارة « ياساو » .. وفى المساء ، قابل « جوكيتشى » رئيس شنجى ، ثم يمم شطر منزل شنجى !

وما أن وطىء بقدميه عتبة البيت ، حتى أخذ يفاوض أم الفتى فى أمر الحاق ابنها بالسفينة التى يقودها ، فقد جرت العادة ، فى الجزيرة ، أن يتدرب كل شاب يبلغ السابعة عشرة ، على العمل باحدى سفن الصيد الكبيرة التى تعبر المحيطات . ولما كان شنجى قد جاوز تلك السن ، فقد وقع اختيار القبطان عليه ، لما سمعه عنه من ثناء وتقدير .. وعندئذ أجابه شنجى بأنه يتعين عليه أن يستشير رئيسه ،

قبل أن يستطيع أن يبت فى ذلك العرض ، فقال القبطان أنه قد حصل بالفعل على موافقة « جوكيتشي » قبل أن يفاتح الفتى فى الأمر !

غير أن ثمة شيئا غامضا أثار حيرة الفتى .. لقد كانت السفينة « يوتاجيما مارو » يمتلكها « تيروكيتشي » ، الذى يحقد على شنجى حقدا لا مزيد عليه ، فما الذى دعاه الى أن يلحقه بالعمل لديه ؟ ! .. وسرعان ما أجاب القبطان على تساؤله بقوله : **« ان العم « تيرو » ليس بالرجل الغبى .. انه يعلم جيدا انك بحار ماهر ، فما أن رشحتك ، حتى وافق على الفور ! »**

وفى اليوم التالى ، صعق شنجى حين علم أن « ياساو » أيضا سوف يقضى فترة تمرينه على نفس السفينة ، غير أن هذا ما كان ليوافق على ذلك ، لولا أن العم « تيرو » علق موافقته على زواجه من ابنته على اجتيازه فترة التمرين بنجاح !.. وأخيرا حل موعد الرحيل، فصعد شنجى وياساو الى ظهر السفينة ، واستندا بجسديهما على الحاجز الأمامى راقبان المودعين .. لقد أقبل حشد كبير لتوديع «ياساو» ، واستطاع شنجى ان يلمح «هاتسو» من بينهم . أما شنجى ، فلم يحضر لتوديعه سوى أمه وأخوه « هيروشى » .

ولم تلتفت « هاتسو » الى ناحية شنجى مطلقا ، ولكن ما أن أوشكت السفينة على الاقلاع ، حتى همست بشىء فى اذن أمه ، ثم دست فى يدها لفافة صغيرة ، سارعت الأم الى توصيلها اليه فى الحال .. فلما فض اللفافة ـ بعد أن اقلعت السفينة ، وانصرف الجميع الى النوم فى ذلك المساء ـ وجد بداخلها صورة صغيرة لهاتسو ، ورقية من ضريح (ياشيرو) ، وخطابا تقول فيه : **« سوف أواظب كل يوم على زيارة ضريح (ياشيرو) كى أدعو الاله أن يحفظك سالما .. ان قلبى ملك**

لك وحدك ، لذا أرجو أن تحافظ على نفسـك وإن تعود الى فى أتم صحة .. أرفق مع هـذا صورة لى التقطت فى رأس (دايو) ، لتكون بمثابة قطعة منى ترافقك فى رحلتك ! .. لم يفاتحنى أبى فى شأن سفرك ، غير اننى أعتقـد أن لا بد لديه سببا يكمن وراء ارسالكما ، أنت وياساو ، للعمل سـويا .. ان هاتفا يداعب خيالي بأن ثمة بصيصا من الأمل أمامنا ، لذا أرجو ألا تستسلم لليأس ، وأن تستمر فى كفاحك ! »

وبعث خطاب محبوبته فى نفسه شعوراً بالقوة تسرى فى ساعديه ،وامتلأ احساسـا بالتفاؤل وبأن الحياة جديرة بأن يحياها المرء !

***

وأخـذت السـفينة تشق عباب اليم . الى أن رست فى ميناء (أوكيناوا) ، حيث أفرغت شحنة من الخشب ، ثم مضت فى طريقها عائدة الى (كوبى) . وكان البحارة يقومون بأعمالهم المعتادة ، ثم يجلسون ـ فى المساء ـ يتناقشون فى أمور « سـخيفة » ، كالحب والزواج وغيرهما .. وكان «ياساو» يظهر مهارة فائقة فىادارة دفة الحديث والمناقشة ، تلك المهارة التى اكتسبها أثناء شغله منصب رئيس جمعيـة الشبان . أما « شنجي » فقد كان يجلس دائما ، محتضـنا ساقيه ، لا ينبس بكلمة ، منصتا الى ما يقوله الآخرون ، مما جعل البعض يحسبونه غبيا !

غير أن البحارة سرعان ما اكتشفوا أن « ياساو » كان بالغ الكسل ، على عكس « شنجى » الذى كان يقوم بكل ما يعهد اليه من أعمال ، بل كان يضـطلع أيضا بالنصيب الأكبر من عمل ياساو .. وذات يوم ، فاجأ النوتى الأول « ياساو » وهو يتسكع على ظهر السفينة ، فانفجر فيه غاضبا ، غير أن الفتى نظر اليه فى برود ، ثم قال :

ـ حسنا .. على كل حال ، ما أن تنتهى هذه الرحلة . حتى أصير « ابن » العم تيرو ، ومالك هذه السفينة بمن عليها !

ورغم أن النوتى الأول كاد ينفجر غيظا ، فقد آثر أن يمسك لسانه ، فمن يدرى ؟.. أليس من المحتمل أن يتحقق كلام الفتى ؟! .. وفى تلك الأثناء ، كان « شنجى » دائب العمل لا يكل صموتا كعادته ، ولم يتسع أمامه الوقت ، كى يتأمل صورة « هاتسو » ، الا لفترة قصيرة قبل ذهابه للنوم ، أو أثناء قيامه بنوبة الحراسة . وذات يوم ، وقف يستمع الى « ياساو » وهو يتباهى بأنه سوف يتزوج ابنة صاحب السفينة ، فلم يستطع أن يمنع نفسه من أن يسأله عما اذا كانت « هاتسو » قد أهدت اليه صورتها ؟ .. فأجاب « ياساو » بغير تردد : « نعم .. لقد فعلت ! » . واذ لم يكن يخامر شنجى أدنى شك فى أن الفتى كان يكذب ، فقد امتلأ قلبه بشعور الحقد والاحتقار نحوه . غير أن « ياساو » لم يلبث أن سأله بعد لحظات قلائل ، قائلا : « وأنت ؟ .. هل أهدت اليك صورتها ؟ »

ـ كلا .. لم تفعل !

وكانت تلك هى المرة الوحيدة التى لم يتردد فيها « شنجى » فى أن ينطق بأكذوبة متعمدا !

***

وفى ذات ليلة ، وقبل منتصف الليل بقليل ، صعد شنجى وياساو وأحد البحارة الشبان الى ظهر السفينة ليقوموا بنوبة الحراسة، وكانت الريح تعصف بشدة ، فتلفح وجوههم وكأنها وخزات الابر ، وتدفع أجسادهم الى الخلف ، مما اضطرهم الى أن يزحفوا على أيديهم وركبهم كى يصلوا الى

نقطة الحراسة . فما أن بلغوها حتى تشبثوا بالحاجز ، حيث ربضت السلسلتان والحبلان التى كانت تربط عوامة الارشاد بالسفينة !

وعندئذ صلصلت السلسلتان ، فأحدثتا دويا يشبه الصراخ ، فنظر كل من الفتيان الثلاثة الى الآخر ، وقد خيم عليهم صمت مطبق . وكان عملهم الرئيسى فى تلك الليلة يقضى بمراقبة ارتباط العوامة بالسفينة وانذار القبطان فى حالة تفكك السلاسل أو الحبال .. وبعد أن قضوا فى وقفتهم مدة طويلة ، اذا باحدى السلاسل ترتفع فجأة فى الهواء ثم ترتطم بالحاجز فى عنف . وكان من حسن حظهم أن استطاعوا الافلات من الموت فى الوقت المناسب ، فلو أن السلسلة أصابت أحدهم لقضت عليه فى التو واللحظة .

وأسرع « ياساو » راكضا ، لينذر القبطان بما حدث . فلما أقبل هذا ، نظر الى الفتيان الثلاثة متفحصا وجوههم ثم قال : « **ليس أمامنا سوى أن يسبح أحدكم بالسلسلة حتى يصل الى العوامة ثم يربطها بها .. فمن منكم ، أيها الفتيان ، يتطوع بالقيام بهذه المهمة ؟** » .. وعندئذ ارتجفت شفتا « ياساو » ، ثم اذا به يخفى رأسه بين كتفيه . أما شنجى فقد هتف فى صوت مرتفع ، واضح النبرات : « **أنا أتطوع !** » ..

وأصدر القبطان تعليماته الى البحارة ، الذين ما لبثوا أن قيدوا طرف السلسلة بالحاجز ، وسلموا الطرف الآخر الى « شنجى » ، وصاح القبطان فى اذن شنجى قائلا : « أعقد طرف السلسلة حول خصرك ، حتى اذا ما وصلت الى العوامة ، اربطها بها ، ثم عد بأقصى سرعة ! » .. ومع أن العوامة لم تكن تبعد عن السفينة أكثر من خمس وعشرين ياردة ، وأن الفتى كان ماهرا فى السباحة ، بحيث كان بوسعه

أن يسبح حول الجزيرة خمس مرات دون توقف ، فان كل ذلك لم يبد له كافيا لبلوغ العوامة !

ووقف شنجي ينظر الى الأمواج الصاخبة فى تردد ، غير انه ما لبث أن ألقى بجسده فى اليم ، بعد أن تحسس صورة ((هاتسو)) فى جيبه ، تيمنا بها ، ثم اندفع يشق طريقه خلال الأمواج ، فخيل اليه أن ضربات ذراعيه القويتين كانت تمضى فى الماء عبثا ، وكأنه كان يسبح خلال كتلة سميكة من الشحم !.. فما أن وصل ـ أخيرا ـ الى العوامة ، ولامستها يداه ، حتى لطمته موجة عنيفة فجذبته الى الخلف . غير أن السماء أرسلت اليه ـ فى تلك اللحظة ـ موجة أخرى دفعته الى الأمام ، فلم يشعر الا ويداه قد تعلقتا بها ، فأخذ يلهث من الاعياء وقد جف ريقه وأوشك على الاختناق !

ولما عاد الفتى الى ظهر السفينة ، ربت القبطان على كتفه فى تقدير واعجاب ، ثم أمر « ياساو » بمرافقته الى غرفته ، حيث التف البحارة حوله وراحوا يجففون ملابسه وجسده . وفى اللحظة التى لامس فيها جسده الفراش ، استغرق فى سبات عميق !

***

وأخيرا عادت السفينة « يوتاجيمه مارو » الى الجزيرة ، متأخرة عن موعد وصولها ، فلما نزل البحارة الى الجزيرة كانت احتفالات موسم (المصباح) قد انتهت . وتوجه شنجي فور وصوله الى ضريح ياشيرو حيث وقف يتعبد فى خشوع ، ومن هناك انطلق راكضا الى منزله !

وفى المساء لبى دعوة رئيسه « جوكيتشى » لحضور الحفل الذى أقامه تكريما له . ورغم ان شنجى لم يكن قد ذاق طعم الخمر من قبل ـ ومن ثم عارض كثيرا فى تناول شىء

منهـا فى أول الأمر ـ فانهم اصروا على ملء كأسـه شراب « الساكى » عدة مرات !

وبعد يومين ، عاد «شنجى» الى العمل مع رئيسه القديم . ومع أن الفتى لم يفض الى أحد بشىء مما وقع أثناء الرحلة ، فان « جوكيتشى » كان قد عرف القصة من القبطان ، ومن ثم ازداد عطفه وحدبه على الفتى .. وأخـذ شنجى يترقب طويلا أن يعرج أحد على موضوع « هاتسو » ، الا أن أحـدا لم ينطق بحرف عنها ، فأفرغ همه فى العمل من جديد ، وقد اكتنفه شعور عميق بالوحشـة والوحدة ، ذلك العمل الذى كان يلائم نفسيته تماما ، وكأنه حلة غلفت جسده فى احكام فلم تترك له مجالا للهموم والأفكار !

- ١٠ -

وحلت أجازة الصيف ، وانتظر حارس المنار وزوجته فى لهفة عودة ابنتهما « تشيوكو » ، فبعثت الأم اليها برسـالة تحثها فيها على الاسراع فى العودة . وبعد عشرة أيام وصـل رد الفتاة ، فـكان ردا مفاجئا ومذهلا فى الوقت نفسـه .. **لقد اعترفت الفتاة فى رسالتها بجريرتها ، وسردت على أمها كيف فرقت بين العاشقين الصغيرين ، وكيف أوقعت وشايتها بالاثنين فى متاعب جمة ..** واسـتطردت تقول أن ضميرها ما زال يبـكتها ، وانها لن تجرؤ على العودة قبل أن يجتمع شمل العاشقين ، **فلو أن أمها توسطت فى الأمر واسـتطاعت أن تقنع « تيروكيتشى » بأن يوافق على زواجهما ، ففى هذه الحـالة فقط ـ وكان هـذا هو الشرط الذى اشترطته ـ يصبح فى وسعها ان تقضى العطلة فى الجزيرة !**

وما أن قرأت الأم رسالة ابنتها حتى سرت القشعريرة فى جسدها ، وقد خطر لها فجأة انها ما لم توفق فى مساعيها ،

فان ابنتها - التى لا ينفك ضميرها يؤنبها - قد تقدم على الانتحار !.. ولم تضيع وقتا ، فاتجهت من فورها الى منزل « تيروكيتشى » الذى رحب بها . فما أن استقبلها داخل منزله حتى ابتدرته قائلة : « أرجو أن تنصت الى دقيقة واحدة ، فان لدى ما أود أن أتحدث اليك بشأنه ؟ »

- حسنا .. هل هنالك ثمة خدمة استطيع أن أؤديها اليك ؟

- اننى ارغب فى أن أتحدث اليك بشأن ابنتك « هاتسو سان » ، وذلك الفتى ابن عائلة كويو .. شنجى سان !

- هاتسو وشنجى ؟

- نعم .

ولأول مرة منذ أن بدأت المرأة تتحدث ، نظر اليها الأب بامعان ثم قال :

- اذا كان هذا هو الموضوع الذى يشغل بالك ، فاننى أود ان اصارحك بأن ((شنجى)) هو الذى وقع عليه اختيارى ليكون زوجا للفتاة .. لقد غضبت عندما علمت بالشائعات التى انطلقت فى القرية عن وجود علاقة غير شريفة بين الاثنين ، غير أن الفتاة أقسمت لى بأنه لم يحدث بينهما ما يمس الشرف . ولما كنت أثق بصواب نظرتها الى الأمور ، فاننى لم أجد ما يحول بينى وبين وضعه تحت الاختبار لفترة من الزمن ، كى اقارن بينه وبين الشخص الآخر الذى تقدم لخطبتها . ولقد أخبرنى القبطان بأننى لن أجد خيرا منه زوجا لها !

ثم رفع صوته ، وقال فى حماس :

- ان كل انسان فى هذه الدنيا عرضة لأن يولد فقيرا ، غير أن الموهبة الحقيقية التى تميز الرجل الكفء هى قدرته على الكفاح ، فان هذه الموهبة هى التى نحتاج الى توفرها فى رجال

الجزيرة .. ألا توافقينني على هذا الرأى ، يا سيدتى ؟ . ان شنجى قد أوتى هذه الموهبة ، اعنى موهبة الكفاح ، على عكس الآخر الذى لا يجيد شيئا سوى الكلام !

***

وصار شنجى فى حل من أن يزور خطيبته علانية .. وفى ذات ليلة ، قصد الى منزلها ، فور عودته من الصيد ، مرتديا سروالا وقميصا نظيفين . وكانت « هاتسو » تنتظر قدومه ، اذ تواعدا على الذهاب سويا لزيارة زوجة حارس المنار ، كى يعلنا اليها خطبتهما ، وليعبرا لها عن عمق امتنانهما لما قامت به من مسعى حميد فى سبيل جمع شملهما !

وكان شنجى يستند بجسده الى الباب فى انتظارها ، فلما ظهرت أمامه لوحت باحدى قدميها اللتين البستهما قبقابا أنيقا ، وكأنها تريد أن تطرد بها الحشرات ، ثم غمغمت قائلة : « ان البعوض لمزعج ! » .

ـ نعم ، انه لكذلك !

وقبل أن يذهبا لزيارة زوجة حارس المنار ، رأيا أن يعرجا على ضريح (ياشيرو) . فلما بلغا المكان ، صعدا سويا الدرجات الحجرية التى تقود الى الضريح ، فى خطوات بطيئة ، وقد غمرهما شعور بالرضا والقناعة . **فما أن وصلا الى القمة ، حتى وقفا يتأملان السماء التى تلألأت النجوم فى صفحتها ، ويستمعان الى صوت الأمواج وهى تغمغم فى هدوء ، وكأنما استغرق البحر فى سبات عميق !** .. وأمام الضريح ، أحنت « هاتسو » رأسها ، وأخذت تتعبد فى صمت .. ومن أسفل ياقة (الكيمونو) الذى كانت ترتديه ، لمح شنجى عنقها الذى بدا له ـ وان لم يكن قد تميز بالبياض الناصع ـ وقد فاق فى فتنته أكثر الاعناق بياضا . وعندئذ

فاض قلبه بسعادة غامرة ، اذ أدرك أن الآلهة قد استجابت الى كل دعواته ، وحققت له أمانيه .

ولما انتهى الاثنان من صلواتهما التى استغرقت وقتا طويلا ، تابعا سيرهما قاصدين الى المنار . وفى منتصف الطريق ، أمسك « شنجى » بيد الفتاة ، ثم قال لها هامسا : « اننى أفكر فى اجتياز اختبار ، كى أحصل على شهادة تؤهلنى لأكون نوتيا أول . »

ـ انها لفكرة رائعة !

ـ أعتقد اننى اذا ما حصلت على هذه الشهادة ، أصبح فى حل من التعجيل بعقد القران .

فابتسمت « هاتسو » فى خجل ، ولم تنبس بكلمة !

***

وبعد أن اجتازا منحنى (النساء) ، واقتربا من منزل حارس المنار ، نادى الفتى معلنا عن قدومهما ، أمام الباب الزجاجى الذى لمحا من خلاله شبح الزوجة وهى تطهو وجبة العشاء . فلما فتحت الزوجة الباب ، رأت الفتى وخطيبته وهما يقفان فى الظلام ، وقد ترددا فى الدخول ، فقالت لهما :

ـ أوه .. ها قد أقبلتما .. مرحبا بكما .. مرحبا بكما !

ثم نظرت داخل المنزل ، وصاحت :

ـ أيها الأب ، لقد حضر « شنجى سان » وخطيبته !

وانبعث صوت الزوج من الداخل وهو يقول :

ـ تفضلا بالدخول ، تفضلا بالدخول .. اننى أقدم اليكما خالص تهانئى !

فلما دخلا ، وأغلقت الزوجة الباب ، نظرت اليهما فى غبطة وفرح ، ثم قالت : « ان شيوكو ـ أيضا ـ سوف تحضر غدا !؟ »

وقضيا فى المنار ما يزيد عن الساعتين ، والسعادة ترفرف

حولهما . فلما سارا فى طريق عودتهما ، أخذ شنجى يفكر قائلا لنفسه انه رغم كل ما مر به هو وحبيبته من أحداث ، فها هما فى النهاية يشعران بالحرية داخل اطار التقاليد والأخلاق ، الذى نشآ فيه .. وقصارى القول ، **فان هذه الجزيرة المغلفة بالظلام ، هى التى صانت سعادتهما ، وعبرت بقصة غرامهما بحر الشائعات الظالمة ، ورست بها الى شاطىء الأمان !**

وفجأة ، استدارت « هاتسو » نحو شنجى ضاحكة ، ثم أخرجت من كمها صدفة صغيرة وردية اللون ، كان شنجى قد أهداها اياها قبل أن تفرق بينهما الأحداث ، ثم قالت :

ـ أتذكر هذه ؟

ـ نعم ، أذكرها !

وابتسم الفتى ابتسامة فاتنة ، ثم أخرج من جيبه صورة « هاتسو » ، ودفع بها الى خطيبته ، فلمستها هذه برفق ، ثم أعادتها اليه وقد ومضت عيناها زهوا وخيلاء ، اذ حسبت أن صورتها هى التى صانته من أخطار البحر !





واصف بطرس غالي



تقاليد الفروسية عند العرب

ترجمة : أنور لوقا   تقديم : الدكتور طه حسين

عرض وتلخيص : الدكتور أنور لوقا

المؤلف : بين السياسة والأدب

بين الأهازيج الرائعة التى يوحيها موكب القومية العربية لأبناء هذا الجيل ، يطيب لنا اليوم أن نصيخ الى نبرات هذه التحية البليغة ، وقد أرسلها من وراء القبر صوت راحل كريم من أبناء الجيل الماضى وأعلامه البارزين .

لقد كتب **((واصف غالى))** هذا الكتاب الجامع عن ((تقاليد الفروسية عند العرب)) بين عامى ١٩١٤ و ١٩١٦ ، ونشره بالفرنسية فى باريس عام ١٩١٩ . على أن جمهور القراء لدينا يقرن اسم ((واصف غالى)) قبل كل شىء بثورة ((سعد)) ، والوزارات الأولى ، والسياسة الخارجية ، وقد لا يتوقع أن يطالعه الاسم نفسه على غلاف كتاب من مصنفات الأدب . والحق أن هذا السياسى المجاهد كان أديبا رقيقا ، وشاعرا مطبوعا ، التقت فى وجدانه جذوة الوطنية وجذوة الفن .

ويعرف القراء عن ((واصف غالى)) المجاهد أنه الفتى الذى **رفع صوت أمته عاليا فى محافل باريس عند انعقاد مؤتمر ((فرساى)) عام ١٩١٩** ، أيام كمم الاحتلال البريطانى افواه المصريين وضيق عليهم الخناق ، فواصل بخطابته وبيانه كفاح الرواد الأول ، ومرافعة ((مصطفى كامل)) فى صدر القرن العشرين دفاعا عن قضية البلاد أمام محكمة الضمير الدولى . ويعرف القراء عنه أنه **الثائر البر الذى آزر ((سعد زغلول)) ، فحكم عليه الانجليز بالاعدام تارة وبالسجن تارة أخرى ، حتى أعلن استقلال مصر ، وألف ((سعد)) وزارته ، فاستعان به وزيرا للخارجية وآثره بتقديره ووده** . ويعرف القراء أيضا أنه هذا الوزير الذى اتصف بكفاءته الممتازة ، ودماثة خلقه ، وعفة نفسه ، وابائه ووقاره ، مما حفظ اسمه فوق مستوى المهاترات الحزبية والمشاحنات الشخصية ، الى

أن توفى فى عزلته سنة ١٩٥٨ ـ عن ثمانين عاما ـ بعد أن رفض أكثر من مرة الاشتراك فى وزارات عهد فاروق الأخيرة .

ولكن القراء الذين يذكرون هذا كله من سيرة الوزير النبيل ، قد يغيب عن أذهانهم أنه كان كذلك من صفوة أهل الثقافة والفكر والأدب ، وأنه دبج المقالات ونظم القصائد وأنشأ الفصول والكتب ، بل وأنه حاضر عن الأدب العربى فى باريس . لقد غدا فى منصب وزير الخارجية المصرية خير سفير لنا بين ممثلى الدول المتقدمة ، اذ تولى تعريف شعوب الغرب بالحضارة العربية مؤلفا ومترجما ، شاعرا وناثرا ، مجادلا وخطيبا ، واستخدم فى ذلك جلده على البحث ، وكلفه بجمع الوثائق والتواريخ ، وطاقات قريحته المواتية ومواهبه النادرة التى أتاحت له اتقان اللغة الفرنسية على نحو جعله من المتفننين فى تصريفها ، وفى عداد كتابها الذواقين الذين شهد لهم نقاد الجيل الماضى فى الأدب الفرنسى ولا سيما « جول ليمتر » .

وفى ديوان أنيق عنوانه **« جنة الأزهار »** ، ترجم « واصف غالى » الى شعر فرنسى روائع الشعر العربى ، من جاهلى واسلامى ، ونقل الى قرائه لمحات شائقة من الحياة العربية كما عاشها أولئك الشعراء الفحول . وفى كتابه **« اللؤلؤ المنثور »** أظهر أهل الغرب على ما للعرب من قصص وأساطير تصور شيمهم ، ومثلهم العليا . وهو فى كتابه **« تقاليد الفروسية عند العرب »** يتعمق فى تلك الحياة ، ويتلمس جذورها الاجتماعية والأخلاقية ، ويسجل ما ساد سلوك الفرسان من مبادىء الشجاعة والوفاء والجود ، والمروءة والعرض والشرف .

واصف غالى .. بقلم طه حسين

وتستهل الترجمة العربية التى ظهرت أخيرا لهذا الكتاب الجامع ، مقدمة طلية كتبها أستاذنا الكبير الدكتور طه حسين بعنوان « واصف غالى كما عرفته ». وفيها يستعيد الصديق الوفى ذكريات الألفة التى اتصلت بينه وبين هذا الرجل « الكريم النفس » . فقد كانا يلتقيان فى مصر وفى فرنسا ، تجمعهما دائما أحاديث الأدب . ويعجب عميد الأدب العربى بهذا السياسى الذى كان لاتساع ثقافته « يظهر غريبا بين رجال السياسة » ، وكان لعلمه بأسرار السياسة « يظهر غريبا بين الأدباء » . ويروى قصة نشأته وتربيته وجهاده ، ثم يعرف بكتبه التى نشرها بالفرنسية ، والدور الذى أدته فى اظهار حضارة وطنه للغرب « نقية مبرأة من كل الشوائب التى شابتها فى نفوس الغربيين نتيجة للجهل بها أو لتعمد الغض منها » . ويذكر — الى جانب هذه المناقب — ما امتاز به واصف غالى من تواضع وزهد فى الشهرة ، ولا أدل على ذلك من نزوله عن عضوية مجمع اللغة العربية فور انتخابه بالاجماع ، وعلى الرغم من المحاولات التى بذلها لاقناعه بالقبول رئيس المجمع والدكتور طه حسين نفسه .

وبعد أن نقل للقارىء هذه الصورة الأمينة لشخصية المؤلف وأعماله ، خص الدكتور طه حسين كتاب « الفروسية عند العرب » — فى أصله الفرنسى وترجمته العربية — بحديث العالم الذى يقوم مادة هو خير حجة فيها ، وحديث المواطن الذى يبين أهمية هذه الدراسة فى نشر وعى سليم لدى الغربيين ولدى العرب .

أصول الفروسية

والمؤلف لا يعمد فى كتابه الى تعريف الفروسية . فهى

طائفة من الأفكار والعواطف والنظم ، هيهات أن تحتويها صيغة محددة . وبعد أن يشير الى ظهور منظمات الفرسان فى فرنسا أثناء القرون الوسطى ، ويبين ما تمتاز به من مبادىء انسانية على الحضارتين اليونانية والرومانية ، يتساءل : هل الفروسية نزعة طبيعية فى نفوس البشر أينما وجدوا ، أم قد استعارتها من شعب معين شعوب أخرى ؟

ويستعرض اجابات الباحثين الذين ذهبوا ـ معتمدين على أسانيد تاريخية أو شعرية ـ الى أنها ذات أصل رومانى ، أو عربى ، أو جرمانى ، أو مسيحى ، أو الى انها جرمانية عربية مسيحية فى آن واحد .. وفى رأيه أن جميع أولئك المؤرخين قد أخطأوا اذ نظروا الى الفروسية على أنها منظمة ثابتة الشكل والأوضاع مهما يختلف الزمان والمكان ، فالحق أنها عمل انسانى لم يمسك عن التبدل والتطور عبر التاريخ . وقد يكون المنهج السليم لدراسة الفروسية هو الوقوف عند كل مرحلة من مراحلها لاستقصاء أسباب ما أعتراها من تحول ، ثم استخلاص فكرة كاملة عن الفروسية بجمع نتائج ذلك التحليل .

ولكن المؤلف لا يتبع هذا المنهج ، ويكتفى بالبحث عن التأثيرات التى أدت الى خلق الفروسية وتنميتها ، حتى يجتلى أصولها . وهو يعنى الفروسية الفرنسية ، لأنه يكتب للفرنسيين ، فيقول لهم ان فروسيتهم « فرنسية » المنبت ، ثم يستدرجهم الى الاعتراف بأنها قد تأثرت بحضارة العرب ..

وهكذا كان سياسيا أديبا فى تقديم الموضوع ، فهو ـ كما يقول الدكتور طه حسين ـ « لم يهجم على الفروسية العربية منذ بدأ كتابه حتى لا يفجأ قراءه من الغربيين بما ليس لهم به عهد ، وانما تحدث عن الفروسية الفرنسية والغربية ثم

ما زال فى حديثه هذا حتى وصل فى لباقة ورفق الى الفروسية العربية »

ولتوضيح أثر العرب ، توقف عند العلاقات التى نشأت بين الشرق والغرب منذ القرن السابع حتى القرن الخامس عشر ، ولاسيما بين الأندلسيين وأهل جنوبى فرنسا ، متخيرا طرائف الوقائع من التاريخ والنصوص الأدبية .

ولقد اتخذت الفروسية الغربية صورة هيئة اجتماعية منظمة ذات قواعد وقوانين وطقوس خاصة تهدف الى غاية محددة ، **فهل قامت فى الشرق هيئة من هذا النوع تولت زعامة الفروسية ؟** كلا . . وما حاجة العرب الأولين الى انشاء منظمة للفروسية ؟ لقد كانوا فرسانا على السليقة ، وكانوا ينكرون الفروق الاجتماعية والامتيازات أو الألقاب ، وكان رجال القبيلة الواحدة اخوة لا يعوزهم الارتباط بعهود ومراسيم دينية . **وهذه المساواة قد دفعت العرب الى التفوق بعضهم على بعض فى ميدان الفضائل والمآثر** . لقد كانوا يحبون الفخر و «حسن الذكر» . ألحت عليهم حاجات العيش فى بيئة مجدبة فحفزتهم الى النشاط والجرأة . وسادت الروح الحربية بلاد العرب ، لأن الحرب ـ بما تتيحه من غنيمة ـ كانت صناعة البدوى الكبرى . ومن هنا كان الاعتماد على النفس ، والاستخفاف بالثروة التى تقبل وتدبر مع الكر والفر ، والاهتمام بالقوة وما تدعو اليه من العناية بالأسلحة البتارة والجياد الكريمة .

تلك هى الأصول الطبيعية للفروسية العربية ، التى لم تتخذ شكل منظمة ـ على النمط الأوربى ـ الا فى القرن الثانى عشر ، عندما ضعفت عواطف المروءة . ويوجز المؤلف فصوله الثلاثة الأولى فى هذه العبارة الجميلة : « يبدو أن تبادلا فى

الأفكار والعواطف قد تم فى القرن الثانى عشر بين الشرق والغرب : فقدم الغرب الهيكل أى النظام الذى كان خليقا بأن يسند تقاليد العرب النبيلة ، وقدم الشرق مقابل ذلك حضارة مرهفة ، وفهما عميقا رقيقا للفضيلة ، فأزهرت بذلك أبهة الفروسية الأوروبية » . ثم يعلن أن **هدف كتابه هو التعريف بأخلاق العرب التى يجهلها السواد الأعظم ، مع أنها جزء قديم من حضارة الانسانية ، وانها تؤكد للمعاصرين أن الشر فى صراعه ضد الخير لم يكن صاحب الكلمة الأخيرة دائما .**

الحسب وتعظيم الآباء

ويبدأ المؤلف وصف أركان الفروسية العربية بفصل عن « الحسب وتعظيم الآباء » وقد نشأ الاعتزاز بالأجداد عن المساواة الاجتماعية ، اذ كان كل عربى فى خيمته سيدا ولو كان فقيرا . وأما رئيس القبيلة فنفوذه نسبى ، وينتخبه أهلها تقديرا لفضائله وهى بوجه عام : الجود والبطولة الحربية والجلد والحلم والتواضع والفصاحة . انه بمثابة الملك الدستورى ، ولكن بلا امتيازات أو مخصصات ، بل وعليه أن يؤدى لقومه « ما يؤدى العبد لسيده » .

وبعد ظهور الاسلام أصبحت الدولة جمهورية استفتائية يتولاها رئيس تنتخبه الجماعة ، ويقول كعمر : **((يا قوم من رأى فى اعوجاجا فليقومه)) .**

لذلك لم تنشأ فى جزيرة العرب أرستقراطية ثروة ، ولا أرستقراطية نسب ، بل سادت أرستقراطية فردية شخصية مؤقتة تخلعها على المرء بطولته وفصاحته ومآثره ، وهى مكملة لتلك الارستقراطية العامة المستمدة من صفة العروبة وحدها .

ولم يقنع العرب بنسب خرافى — كالأمة الفرنسية التى

تنتمى الى « اينيه » الذى نجا من واقعة «طروادة» فى ملحمة « فرجيل » - بل انتسبوا الى اسماعيل . وبات الفخر جماعيا ، يتمثل فى القبيلة . وداخل أرستقراطية القبيلة نهضت أرستقراطية الأسرات ، حتى جعل الاسلام تقدير الشرف من وجهة نظردينية : « ان أكرمكم عند الله أتقاكم » .

تعظيم المرأة

ومن أسمى العواطف التى جاءت بها الفروسية عاطفة الحب . فقد ارتقى الحب عما كان عليه فى ظل الرومان واليونان ، وتنقى من الشوائب الحسية ، وأصبح لونا من الابتهال الصوفى ، أنجب التورع ومغالبة النفس والتضحية . **فالحب عند الفرسان مدرسة للفضائل ، ومنهج كامل من مناهج التربية ، بل منظمة اجتماعية لها رموزها وقوانينها ومحاكمها وشهداؤها .**

وما الذى أثر فى اتجاه الحب القديم فأحاله من مبدأ للشر والاعتداء الى منبع للخير والصلاح ؟ لقد نادت المسيحية بنقاء القلب والتضحية ، ولعل تعظيم العذراء مريم قد أدى الى تحسين حال المرأة ، وان كنا نلاحظ فى القرون الوسطى وجود فروسية مستقلة عن الكنيسة ، تعظم المرأة وتقتحم الأهوال للفوز برضاها .

ويستبعد المؤلف هنا أيضا تأثير الجرمان ، وينصرف عن شمال أوروبا الى جنوبها ، حيث ازدهر فى « البروفانس » شعر الغزل الرقيق . ويجمع أوجه الشبه بين شعراء العرب وشعراء جنوب فرنسا المعروفين «بالطروبادور» ، فى حياتهم وأساليبهم وتصويرهم للحب .

ومن بطون الكتب العربية القديمة ، يقتطف باقة عاطرة

من تعريفات الحب ، تظهر روحانيته ، كقول أبى مالك الحضرمى : « العشق نفث السحر ، وهو أخفى وأحر من الجمر ، ولايكون الا بازدواج النفسين وامتزاج الشكلين . . » . ثم يروى قصة « قيس وليلى » وقصة « عروة بن حزام وعفراء » . **ويستخلص أن الحب العربى شعور عفيف ، ساذج وعميق ، كأنه تعبد حالم ، وان كان العرب قد اتخذوه فيما بعد مادة للهو والدعابة والمجون .**

ويوازن بين المرأة الأوروبية فى العصور الوسطى والمرأة العربية فى الجاهلية ، فيرسم لوحتين بديعتين . .

ولقد وجهت الى الأوروبية فى القرون الوسطى اتهامات عديدة ، ولكن المؤلف يدافع عنها ، اذ كانت تعيش فى مجتمع طغى رجاله . وفى ارتقاء تلك المرأة التى استطاعت ــ بفضل دهائها ومثابرتها ــ أن تستأنس المقاتل الجلف وتهذبه ، وأن تصبح شريكته ونظيرته ، درس بليغ يلقيه واصف غالى على نساء الشرق اللواتى رحن اذ ذاك يسعين الى التحرر .

وأما المرأة العربية فقد كانت ربة بيت طيبة، تربى أطفالها ، وتعرف الأنساب ، وتشترك فى أعياد القبيلة ومآتمها ، وتحسن الرثاء . وهى ذات دل تستخدم جمالها فى اثارة الحماسة ، وصنع الأبطال ، والهام الشعراء . ولقد كان التغزل بها مطلع القصائد التقليدية . وهنا يستشهد المؤلف بالمعلقات . ويعترف بأن المرأة الجاهلية كانت أدنى منزلة من الرجل ، الا انه يبرز قوة شخصيتها ، ويعدد مواقف البطولة النسائية وما أكثرها فى « الأغانى » و « العقد الفريد » . .

ويستعرض أنواع الزواج التى مارسها العرب فى الجاهلية ، من زواج « الصفا » (أى زواج التجربة الذى تفصم عراه اذا لم تكن التجربة مرضية للطرفين) ، وزواج « المتعة »

(الذى يعقد لمدة محددة) ، ونكاح « الرهط » بين امرأة وعدد من الرجال لا يتجاوز العشرة ، الى نكاح « البدل » (حيث ينزل الرجل عن زوجته لرجل آخر مقابل تنازله له عن زوجته بالمثل) ، و « نكاح الاستبضاع » الذى تعمد فيه المرأة — وهى فى عصمة زوجها — الى الحمل من رجل ممتاز فى الشجاعة أو الكرم ، رغبة فى نجابة الولد .. **وهى ألوان من الزواج يستنكرها العصر الحديث** ، ويتعذر على المؤلف أن يوفق بينها وبين ما سلف من احترام العرب للمرأة فى جميع العهود ، فيقول انها « كانت زيجات استثنائية » ، ويجتهد فى تبريرها اجتماعيا وأخلاقيا ! ثم يستقى من أخبار العرب وقائع يتجلى فيها استقلال بعض الفتيات عن ارادة أهلهن عند اختيار الزوج ، مثل « ماوية » التى بعد أن امتحنت خطابها الثلاثة فى قرض الشعر وفيض الكرم تخيرت أشعرهم وأكرمهم وهو « حاتم الطائى » .

ويذكر المؤلف المهر ، والطلاق ، عند قدماء العرب ، ويرى فيما اتبعوا من عرف صورة لمجتمعهم . **ويقص طلاق « هند بنت عتبة » من زوجها « الفاكه » الذى شك فى وفائها ، ثم احتكم معها الى كاهن يمنى ، وبعد أن شهد الكاهن لها ، أراد أن يستردها فرفضت ، ثم تزوجها « أبو سفيان » فولدت له « معاوية »** .

قصة تطور المرأة العربية

ولم تلبث فتوح الاسلام ان أخضعت العرب لحضارة الفرس والروم ، فقد اقتبس البدو أساليب اللهو والترف ، وأنستهم الأسيرات المهذبات زوجاتهم الصارمات . ونستطيع أن نميز منذ ذلك الحين بين طائفتين من النساء : الزوجة الوقور التى تضع الأولاد وتربيهم وتعيش فى عزلة عن

المجتمع ، ويدل جهلها على فضلها . والجارية الحسناء التى تجيد الغناء والرقص وترتجل الشعر وتروى القصص وتسحر عظماء الرجال فى عصور الحضارة المرهفة كأيام الرشيد وملوك غرناطة والفاطميين . على أن الجوارى كن يسعين الى أن يصبحن فى آخر الأمر زوجات شرعيات ، واذ ذاك يتكلفن صفات السيدات الحرائر ، من جهل واعتزال واحتشام ! وهكذا عم الجهل جميع النساء ، ولم تعد المرأة طوال الاثنى عشر قرنا الماضية الا الخادم الرسمية لزوجها وأولادها .

ولما كان الرجل هو الأقوى ، فقد استسلم لغرائزه الأمارة بالسوء ، وأذل تلك التى كان من حقها أن تظل رفيقته ، بل وتعسف فى تفسير النصوص الدينية ليثبت بها ظلمه وطغيانه .

وهنا يتأمل المؤلف ما ورد فى القرآن والحديث من قواعد معاملة المرأة. ويرى النبى « يحسن معاملة المرأة — لا زوجاته فحسب بل جميع النساء — فيلقاهن بالبشر والعطف ، ويرعى حرمتهن ويرفق بهن » ، ويعلم الرجال أن « الجنة تحت أقدام الأمهات » ، ويزين بهن دار النعيم ، فالفردوس تعمره الحور العين ، وتلك « أروع وأرق تحية صدرت عن مؤسس دين من الأديان » .

وأما تعدد الزوجات فقد كان فاشيا فى الجاهلية . وكان من المخاطرة أن يقدم امرؤ على معارضة الأوضاع الاجتماعية المتأصلة ، والغائها طفرة واحدة . ولذا عالج الاسلام المشكلة باحتياط ، فأنقص عدد الزوجات الى أربع ، واثنى على من يكتفى بواحدة . واشترط المساواة بين الزوجات ماديا وعاطفيا : وقد يتيسر العدل فى توزيع الغذاء والكساء والنفقة بين أربع نساء ، ولكن العدل فى توزيع الحنان والمحبة شرط

من المحال تحقيقه . وهكذا ينتهى التحديد الى التوحيد : « فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة » .

وكذلك نظم الاسلام الطلاق على نحو أكثر رعاية لمصلحة المرأة ، فأجاز الطلاق بناء على رضا الطرفين ، أو حكم القاضى على أثر طلب الزوجة . وزود المرأة بسلاح يحميها من ظلم الرجل ، عندما أتاح للزوجين عند اقترانهما أن يضمنا العقد نصوصا فى صالح المرأة : « لا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة » . ويدعو المؤلف الى أبسط الحلول وهو « الغاء الطلاق فى النطاق الذى لا يتعارض ونص الشريعة القرآنية » . ويقترح أن تضاف الى عقود الزواج رسميا هذه الصيغة : « فيما عدا الاتفاق على غير ذلك يعتبر أن الزوج قد تنازل عن حقه فى الطلاق » . وهذا التأويل يطابق الروح الحقيقية لما يهدف اليه الشارع الأسمى ، ففيه الانصاف وحماية كرامة الزواج . وليس من شأنه أن يلغى الطلاق ، وانما أن يحد من انتشاره .

وللحجاب أيضا قصة . فقد كان فى عصور الاسلام الأولى من علامات الامتياز ، للتفريق ضمن النساء بين الحرائر والجوارى « اللواتى لم يكن يفوت الشبان أن يتعقبوهن » . ثم عمم الحجاب ، وأصبح فاصلا بين الذكر والانثى . وازدادت كثافته حتى أدت الى عزل المرأة . وليس فى القرآن ما يخول فرضه أو يعذر من يستغله ، فقد أجمع مفسرو الكتاب على أنه يجوز للمرأة أن تكشف عن وجهها ويديها .

ولا ينبغى عزل النساء عن الرجال بتعميم قوانين استثنت على وجه التخصيص لصون كرامة زوجات النبى ، فقد صدر لهن الأمر بالبقاء فى بيوتهن وعدم كشف وجوههن لأجنبى ، كما حرم عليهن أن يتزوجن بعد وفاته ، نظرا الى شرف

مكانتهن. ولقد فهم أصحاب الرسول تلك الوصايا على هذا النحو، **وشهدت عصور الاسلام الأولى اختلاط النساء فى حرية بالرجال، واشتراكهن فى اجتماعاتهم وندواتهم الأدبية والدينية، بل وفى مشاجراتهم**. وأدل مثل على ذلك اضطلاع «عائشة» - أرملة النبى - بدور هام فى المنازعات الحزبية التى تلت مقتل عثمان، وساهمت بصورة فعالة فى موقعة «الجمل».

وهكذا منح محمد المرأة ما يكاد يساوى حقوق الرجل: فهى أهل لأن ترث وتشهد وتتولى أمر ما تملكه، وتبيع وتشترى وتوصى دون حاجة الى اذن الزوج، وأن تزاول الوظائف العامة كالافتاء وتعليم الفقه والقضاء بالعدل بين الرجال أنفسهم!

لا يجب اذن فى البحث عن سر تأخر هذه المرأة، الخلط «بين الشريعة الاسلامية وبين التأويلات المغرضة المشئومة، التى تفتقت عنها عقول الرجال فى عصور الفساد والانحطاط».

تعظيم الفرس

ولابراز قيمة الحصان - فلا فارس بلا فرس - يرسم المؤلف الشاعر هذه الصورة الجميلة لمهد الحياة العربية:

«تخيلوا مساحات شاسعة من الرمال، تناءت فيها العيون والمراعى ومضارب الخيام. هناك لا أنهار ولا سفن، ولا سبيل الى التواصل السريع سوى الحصان. وتخيلوا من ناحية أخرى حياة العرب المضطربة بالأحداث، وقتالهم الذى لا ينقطع بين هجوم ودفاع، وتنقلهم الفجائى، ورحيلهم المتلاحق لانتجاع الكلأ. فعلى سرعة الطرد أو السلب تتوقف سرعة العودة بالصيد أو الغنيمة.. وعلى قدر خفة الجواد يقصر أو يطول البعد بين الفارس ومحبوبته..!»

ولم يكن مالك الجواد يعتز به لأنه مجلبة للمنافع فحسب ، بل ولأنه نعم الرفيق الذى يقاسمه أخطار المغامرات والمعارك ، وأشواق الحب اذا انطلقا الى موعد غرام. ولقد أبدع شعراء العرب فى وصف الجياد ، والتعبير عما يربطهم بها من مشاعر الشكر والزمالة والاحترام المتبادلة . وكان الفارس وفرسه يتشاطران الحياة ويتلازمان الى درجة استوجبت تعريف كل منهما باسم الآخر : « فرس عمرو » أو « فارس بهرام » ..

ولقد أرخ العرب للحصان فقالوا انه عاش متوحشا كالغزال والنعامة ، وان أول من ركبه «اسماعيل» . وهناك قصص خيالية عن خلق الحصان ، فقد جبله الله من حفنة من ريح الجنوب ! ويتتبع المؤلف «أنساب الخيل» ـ كما وردت فى الكتب القديمة ـ من داود الى سليمان الى أزد الى بنى تغلب . . وخلاصتها أن الجياد العربية كانت من نسل حصان داود المسمى « زاد الراكب » ، الذى ينتسب الى الجياد الشريفة التى وهبها الله عبده اسماعيل .

وللحصان تربية تقليدية خاصة منذ يولد حتى يشب ، ويتدرب على الركض ، ويقترن بفرس عريقة النسب رافهة ذكية ، فان مصاهرة الجواد الأصيل خيلا أدنى منه نسبا وصمة عار تلحق بالأسرة وبالقبيلة جمعاء !

ويستشهد المؤلف بأجمل ما قيل فى الجياد من أبيات الشعر ، ثم يذكر مشاهير الأفراس ، ومنها « جذيمة » ، و « جلاب » التى نحرها حاتم لاطعام ضيوفه ، و « عوج » التى قطعت قيودها و انطلقت تعدو أربعة أيام حتى وجدت صاحبها ، و « داحس والغبراء » وقد أشعل تنافسهما فى السباق حربا بهذا الاسم دامت أربعين سنة بين قبيلتى عبس وذبيان !

الأسلحة والحرب والمبارزة

كما ترنم الشعراء — في قصائد طويلة — بسمو الجياد ، كذلك أشادوا بفضل الأسلحة . ولا عجب أن تعلو قيمة الأسلحة فى اقليم جعلت طبيعته الصيد أهم وسائل العيش ، وفيه تنشأ المشاحنات لأوهى الاسباب بين أهله .

بدأ ذلك « الشعب الشاعر » باستخدام الاسلحة فى قضاء حاجات أصبحت يوما تلو يوم مشروعة ، ثم أحب الأسلحة لذاتها ، وتوسم فيها آيات الجمال ، بل ورموز الحب : **فانحناءة القوس تحكى « حاجبى » الحبيبة ، والسهام لا تصيب كما تصيب « سهام العيون النجل » ، والرمح أسمر مستقيم لدن كجسم الحبيبة الرقيق ! ..** وخلع العرب على الأسلحة الجيدة شخصيات مستقلة ذات أصول وأنساب ، ورصعوها باللآلىء . وأطلقوا على السيوف والرماح والدروع أسماء ، ونقبوا عن تاريخ صانعها مهما غاب فى ليل الزمن وأيا كان هو انسا أو جنا ، وأحاطوها بالأساطير كما طعموها بدقيق الزخارف .

وبعد أن استعرض المؤلف أنواع الأسلحة العربية ، بحث عن رأى العرب فى الحرب — وهم الذين شغفوا باصطكاك السيوف والرماح — فوجده واضحا فى قول **زهير :**

وما الحرب الا ما علمتم وذقتمو
وما هو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة
وتضرى اذا ضريتموها فتضرم

وقول امرىء القيس :

الحرب أول ما تكون فتية
تبدو بزينتها لكل جهول

حتى اذا حميت وشب ضرامها
عادت عجوزا غير ذات حليل
شمطاء جزت رأسها وتنكرت
مكروهة للشم والتقبيل

وقول معاوية :

«الحرب أولها نجوى، وأوسطها شكوى، وآخرها بلوى».

وكانت المعارك أشبه بالمباريات تسبقها المنافرة . فقد كان أحد المقاتلين ينفصل عن رفاقه ويتقدم الى خطوط العدو ، فيستثير مقاتلا معينا يرى أنه جدير به ، أو يصيح متحديا « هل من منازل كفء لى ؟ » . وكان الاستنفار فى العادة ببيت أو أبيات من الرجز ، يهدد فيها قائلها بالموت السريع الرهيب ذلك الخصم . وفى الحال ينبرى من معسكر العدو شجاع يرد على التحدى بأبيات من نفس البحر ونفس القافية ونفس الافراط فى التهديد ، ثم يبدأ النزال ..

وحمل العرب معهم هذا الأسلوب فى القتال الى الأندلس ، حيث انتشرت المبارزات فيما بعد . وكثيرا ما كانت المصارعة أو المبارزة - دون سفك دماء - رياضة بين الأفراد على مشهد من الجماعة .

تعظيم الشرف

يشبه المؤلف الشاعر « الشرف » بنبتة فواحة نمت فى صحراء العرب ، أزهارها : الوفاء والولاء والاقدام والجود والمروءة .

ولم يظهر تعظيم الشرف فى أوروبا الا ابان القرون الوسطى ، وكان صفة اختصت بها طبقة الامراء والفرسان الارستقراطية ، بقصد تأمينهم أولا ضد وحشية المقاتلين ؛ ثم نفذ الشرف الى أعماق الاخلاق وأصبح الحافز على أفعال الفروسية .

وعلى نقيض ذلك كان الشرف سلوكا عاما لدى العرب ، لا تمتاز به طبقة دون سواها . وكان النبع الفياض الذى غذى فصاحتهم وصدرت عنه جميع بطولاتهم . أدت الى ذلك بيئتهم التى جعلتهم أكثر أهل الارض تمتعا بالحرية ، فدفعتهم بالتالى الى أن يتفاهموا على حصر وتحديد الاخطار التى تعرضهم لها حياتهم المليئة بالمغامرات والاحتياجات وأسباب الفخار والشجار ، وهم الذين لم يعترفوا بسلطان عليهم لأمير أو قانون أو حكومة . أجمعوا اذن — من تلقاء انفسهم — على احترام المرأة والضيف والجار والمظلوم ، لأنه كان من مصلحة كل منهم ألا يلحق به ولا بأهله أذى . ومن هنا نبذوا الغدر والجبن والدناءة ، وقدسوا العهد والعرض.

ولم يصغ قانون الفروسية لدى الأوروبيين فى نصوص واضحة ، الا أنه يتلخص فى عدد قليل من الوصايا ، يختص بعضها بفروض الدين ونظام الاقطاع ، وبعضها بدعائم العسكرية والفروسية . وقد عرض المؤلف هذه الوصايا ، وأورد ما يقابلها من النصوص القرآنية . ثم وقف وقفة أطول بالوصايا التى تشمل فضائل الفروسية الأربع الرئيسية وهى : الشجاعة **(لا تتقهقر أمام العدو)** ، والوفاء بالعهد **(لا تكذب وأوف بعهدك)** ، والكرم **(كن جوادا وأغدق على الجميع)** ، وحماية الضعيف **(احترم جميع الضعفاء)** .

واستمد المؤلف من « الأغانى » و « العقد الفريد » و « ديوان الحماسة » أمثلة بليغة تبين وفاء الافراد والقبائل بالعهد فى مختلف الظروف .

وواصل سرد الأمثلة التى تصور الكرم . والكرم فى رأيه ثلاثة : السخاء (كرم اليد) ، والتسامح (كرم النفس) ، والعفو عن الذنوب والشهامة ازاء العدو (كرم القلب) .

وكان السخاء العربى ينطوى على ثلاث صفات جوهرية

هى السرعة والتبذير والاستخفاء . ومن الطريف أن العرب – قبل ظهور الاسلام بزمن طويل – كان لديهم ما يشبه صندوق أغاثة المعوزين حاليا ، دون أن يحمل أية تسمية تجرح كبرياء المعوز ، وكان يغذيه لعب الميسر . فكانوا يلعبون بتسعة سهام – لكل منها اسم معين – توضع فى جعبة ، يتناول منها كل لاعب سهما . وكان الرهان فى أغلب الأحيان جملا ، ينحر ويوزع لحمه على المساكين . **فما كانوا يلعبون الميسر ابتغاء لمتعة المقامرة فحسب ، بل ابتغاء لمتعة اطعام البائسين أيضا .**

وكان أسلوب العرب فى العطاء أروع من عطاياهم . فهذا « هرم بن سنان » كما يقول « **زهير** » :

تراه اذا ما جئته متهللا

كأنك تعطيه الذى أنت سائله

ولم يكن ترحيب العرب بضيوفهم أداء لواجب نص عليه قانون ، كما كان الحال لدى الجرمان والبورجنديين ، بل كان تقليدا قديما ينسب الى ابراهيم جد العرب (سورة الذاريات) .

ومن أمثلة كرم النفس – أى التسامح – ينقل واصف غالى عن الشيخ محمد عبده هذه الواقعة :

عندما أحس طبيب « المنصور » بدنو أجله ، استأذن فى أن يعود الى بلاده حتى يدفن بين أهله . فحاوره الخليفة قائلا : « أسلم حتى نلتقى فى الفردوس ! »

فرد المريض بقوله : **« انى أوثر أن ألحق بأجدادى ، سواء أكانوا فى السماء أم فى الجحيم . »**

واستظرف المنصور رده فضحك ، وأنعم على الطبيب بعشرة آلاف دينار ، وأمر له بحراس يرافقونه حتى مسقط رأسه .

وأما « كرم القلب » ـ أى الحلم ـ فنجتليه فى آلاف الأمثلة . ومنها قصة « عمر بن الخطاب » الذى أمر بسجن رجل مخمور فسبه سبا فاحشا . واذا بعمر يعفو عنه قائلا : « لقد أفلح فى أن يغضبنى ، وآخشى اذا عاقبته أن اكون متشفيا لا عادلا » . ويقال ان « ريشار قلب الاسد » عندما مرض فى الحرب احتاج الي فاكهة ، فجعل « صلاح الدين » يرسل اليه الكمثرى والخوخ والبلح الطازج الذى يأتى به رجاله من الجبل كل يوم !

وما أكثر الأمثلة المؤثرة التى تدل على حماية الضعيف ضد القوى ، ومعنى الانتصاف للمظلوم من الظالم ! اننا نحيل القارىء اليها فى الفصل الذى خصصه المؤلف لهذا الموضوع .

الخلاصة

وقبل أن يضع المؤلف قلمه ، يستخلص الدرس العملى من بحثه هذا المتشعب : « ليعرف العرب أنفسهم ! ولا ينبغى أن يتعمقوا فى تاريخهم لكى يستسلموا للطرب الذى تغمرهم به أمجادهم الغابرة . بل ليقفوا على فضائلهم العريقة ، ويترسموها فى السعى الى مصيرهم . »

وعواطف الفروسية ليست مزية عصر أو بلد . فمن المآثر التى سجلها الكتاب ما اقتطفه المؤلف على ضفاف الفرات وبردى والاردن والنيل والوادى الكبير ، ومنها ما سبق ظهور الاسلام ومنها ما أتى بعده . وهذا يعنى أن تلك فضائل عامة تحلت بها جميع الاجناس ذات الثقافة العربية واللغة العربية والتقاليد والذكريات العربية ، لا فارق بين جنس وجنس أو بين دين ودين . فالارض وحدها لا تصنع الانسان ، بل يتألف الوطن من التربة التى تنبت الابدان ومن الآداب والفنون التى تنشىء النفوس .

وما أصدق حدس المؤلف حين يقول - وكأنه يتنبأ بالوحدة العربية : « وفى المصريين - مسيحيين أو مسلمين - وفى السوريين وأهل ليبيا وتونس والجزائر والمغرب نفس الروح العربية التى نجدها لدى اهل العراق أيضا . وعلى الجميع واجب مزدوج هو السعى الحثيث لانهاض البلاد التى ولدوا فيها ، واحياء الفنون والآداب والفضائل العربية التى أصبحوا ورثتها الشرعيين . »

ويستقصى واصف غالى علة التخلف فى العالم العربى ، ويردها الى نظام الحكم التركى الذى ابتلينا به حتى القرن الماضى . ويهاجم روح الاستعمار وسياسة الطغيان عند الاتراك ، ويشرح كيف كانت مصدر جميع الرذائل التى يتهم بها الغرب الاسلام جورا . ويفرق بين الروح العربية والروح التركية . ويحمل على أولئك الذين « بكروا بالمجىء الى الاسلام ، تغريهم المنفعة أكثر مما تحدوهم الرحمة ، فكوروا العمائم ، ونحروا الخراف فى الاعياد ، وتباهوا بالصوم والزكاة - ولكن نفوسهم ظلت تتارية همجية ولم يفلح الاسلام فى تهذيبهم ، **وعندما تولى هؤلاء المتوحشون الأمر عمدوا الى الشريعة يفسرونها على هواهم ، لتطابق أوضاعهم أو تقضى رغبات لهم عابرة . »**

انهم لتوطيد سلطانهم نشروا عقيدة القدر المحتوم ، أى الاذعان لهم لا الثورة عليهم . كما منعوا العرب من البحث العقلى خشية أن يفسروا النصوص ، وأن يناقشوا أسس السيادة ، وان يكتشفوا ما اغتصب الدخيل من حقوقهم ، فالجهل ضمان لبقاء الامر الواقع .

والآن وقد تخلص العرب من التتار ، عليهم أن يستأصلوا من قلوبهم جراثيم الشر التى بذرتها الهمجية ، وأن يعودوا

الى تقاليدالرجولة والمروءة ، عارفين قدر أنفسهم ، شاعرين بكرامة الانسان وكرامة المواطن .

ويستنكر المؤلف جهل الشعوب بعضها ببعض ، ويقدم لأبناء الغرب كتابه هذا للتعريف بالعرب وانصافهم ، ويستبشر بما انجلت عنه الحرب العظمى من اثبات حقوق الشعوب والمساواة بينها . ويشيع عهد الاستعمار الجائر بهذه السطور البليغة :

« لقد انقضى العصر الذى كان يستبيح فيه الأوروبى أن يستغل أرضا غير أرضه ، يتجبر على أهلها ، ويسومهم العذاب ، ويتحدى مطالبهم الشرعية . انما عليه ان يعين الشعب المتخلف معونة صديق مرشد ودود . وأحرى بالأوروبيين أن يتعرفوا عواطفنا ومبادئنا وروح الفروسية الفعالة فى حياتنا ، فهى خير ما يرسم لهم مثل العهد والجوار . »

وتراود خيال الشاعر صورة الانسانية متآلفة ، كحقول القمح والذرة والشعير تنبسط فى ريف واحد ، أو ثمار التين والزيتون والاعناب تنضج فى بستان واحد . وما أجمل أن نرى ، جنبا الى جنب فى رحاب الله ، ثقافات متنوعة تنمو وتزدهر ، من الثقافة العربية الى اللاتينية والانجليزية السكسونية والصقلبية .. فى سبيل غاية واحدة ، هى التقدم والخير للجميع !

قديم .. جديد

وهكذا تنطوى بين يدينا صفحات هذا الكتاب القديم الجديد . ان فصوله تتسلسل رشيقة بديعة ، لا يرهقنا فيها جفاف البحث العلمى ، بل تطربنا عذوبة الشعر ويهزنا صدق العاطفة . وذلك فضل من يكتب هاويا لا محترفا .

ولا شك فى أن « واصف غالى » قد أكثر من نقل النصوص فأصبح كتابه كمجموعة « المنتخب من أدب العرب » ، ولم يكن يرجع الى الأصول بقدر ما كان يكتفى بالاخذ عن المستشرقين وترجماتهم . ومنهج الجمع هذا يستبعد منهج الدراسة فى أغلب الاحيان . غير أن المؤلف قد عوضنا عن التعمق بجمال أسلوبه الممتع فى التعبير وفى السرد .

ولعل الذى يمتاز به هذا الكتاب فوق ذلك كله — وقد أيد واقع اليوم أمنية الأمس — هو جلاء البصيرة ، وصفاء المورد ، وسمو الغرض . لقد أطلق « واصف غالى » تلك الدعوة الى مثل الفروسية العربية — مثل الكرامة والحرية — منذ أن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها ، فهو بحق من رواد القومية العربية . ولم يصدر فى دعوته الى هذا البعث الا عن سجيته المرهفة ، التى ألهمته اصالته ، وأطلعته على صورة نفسه ، فعبر بأسلوب الشاعر عما تردد فى أعماق قلبه . ذلك أن فضائل الشهامة والاباء والشرف ، أى خلائق الفروسية العريقة ، قد تغلغلت فينا جيلا بعد جيل .. **وما كان أسعد «واصف غالى» لو أن الأجل امتد به قليلا ليشهد حلمه وقد تحقق بقيام دولتنا الفتية على أسس الفروسية التى نادى بها فى فجر النهضة !**



الأفريقي

بقلم : وليام كونتون

أول رواية أفريقية لكاتب من أبناء القارة المكافحة ، تثير إعجاب النقاد فى أوربا وأمريكا

تلخيص : عبد الواحد الامبابي

عزيزى القارىء ..

للمرة الأولى يقدم لك (كتابى) فيما يلى تلخيصا وافيا لرواية أفريقية خالصة ، بقلم كاتب من أبناء القارة أنفسهم ، هى رواية « الأفريقى » ، التى ظفرت بالتقدير والثناء من جانب نقاد الأدب ومتذوقيه فى أوربا وأمريكا ، طوال الشهور الاخيرة .

ولقد جرت العادة أن يطالع القارىء العربى أعمالا لكتاب أوربيين وأمريكيين يتخذون من القارة الافريقية مسرحا ومادة لانتاجهم . أما أن يطالع القارىء هذه الاعمال لكتاب من البيئة الأفريقية ذاتها ، فهذا مالم يكن يسير المنال ، نتيجة للسيطرة الاستعمارية ، وما جرته على أقطار القارة من وبال ما تزال آثاره واضحة الى اليوم ..

ومؤلف هذه الرواية - « وليم كونتون » - هو نفسه « كيزيمى كامارا » ، بطلها وراويها . وهو أيضا أحد كتاب غرب أفريقيا اللامعين ، الذين فرض عليهم المستعمر لغته الانجليزية .

وعندما ظهرت هذه الرواية - فى أواخر عام ١٩٦٠ - استقبلتها الصحف والدوائر الأدبية فى انجلترا وأمريكا بعاصفة من التقدير والثناء . وقد علق المحرر الأدبى لصحيفة (الاوبزيرفر) الانجليزية على صدورها بقوله : **« لقد استطاع كونتون - باصداره هذه القصة الطويلة الممتعة - أن يحتل لنفسه مكانة مرموقة بين الكتاب الأفريقيين المحدثين ، من أمثال « أموس توتولا » و « شينوا اشيب » ، وغيرهما من الكتاب الذين تقرأ لهم باللغة الانجليزية ، والذين لا يقل ادبهم - من حيث**

الشكل أو المضمون الواقعي المعبر عن ظروف البيئة وما يسودها من تيارات مختلفة - عن مستوى أعظم الكتابات الأدبية التي تطالعها اليوم لمشاهير أساتذة الأدب والقصة في أوربا وأمريكا ..»

ان هذه القصة تصور البيئة الافريقية في غرب القارة تصويرا رائعا ، لا يقل طرافة عن الأصل ذاته.. وتمضي صفحاتها في بساطة ، متتبعة تاريخ حياة أحد أبناء أفريقيا - على لسانه - مما يجعلها أقرب الى ما يسمونه في الخارج بأدب الأنا ، أي اليوميات والاعترافات والمذكرات وغير ذلك من ألوان أدبية ..

والآن يمكنك أن تمضي في مطالعة هذا العمل الأدبي الممتاز ، الذي يشعرك - منذ البدء - بأنك لست غريبا عنه :

***

اسمي « كيزيمي كامارا » .. ولدت في قرية (لوكا) بمنطقة غرب أفريقيا البريطانية ، في موسم كانت أمطاره شديدة الغزارة .

وكان والدي يفلح فدانا من الارض ، يقع حول دارنا المتواضعة ، كما كان يقوم - في اوقات فراغه - بصيد السمك في مجرى نهري قريب موحل . وكنت أنا ثاني أولاد الأسرة التي تضم أحد عشر فردا ..

أمي تبيع النبيذ والملح وحب العزيز

أما أمي المسكينة فقد كانت تدير - بالاضافة الى عملها المنزلي - حانة لبيع «عرقي» البلح ، وحانوتا لبيع الملح وحب العزيز وبعض الفواكه الطازجة .. وكانت تضع حصيلة

البيع فى صندوق سجائر قديم ، ترفعه أحيانا الى أعلا ، وتحركه فى الفضاء ، ولم تكن تستطيع أن تخنق البسمة على شفتيها حين يزداد رنين قطع العمله المتكاثرة فيه .

ولست أذكر أننى سمعت يوما ، أبى وأمى يتناقشان حول موضوع الحاقى بالمدرسة . غير أننى فوجئت ذات يوم ــ وكان عمرى اذ ذاك عشر سنوات ، على ما أظن ، اذ كانت يدى تصل الى الاشياء المدلاة من السقف ــ بأبى ينادينى قائلا بصوت وقور فيه رنة فرح :

ــ كيزيمى .. عليك أن ترتدى أحسن ثيابك ، وأن تغسل قدميك جيداً ، ثم تتبعنى .

ورمقت والدى ، فرأيته يرتدى سترته الكاكية النظيفة التى اعتاد ان يرتديها عندما يكون عازما على لقاء شخص ذى مكانة فى القرية .

الآنسة ((شوارتز)) ذات البشرة البيضاء !

وسار فى الطريق وأنا أتبعه على قيد خطوات منه ، الى أن بلغنا مبنى المدرسة التى تديرها احدى الارساليات الأمريكية بقريتنا .. وفى احدى الحجرات التقينا بسيدة أمريكية على قسط وافر من الجمال . وما أن لمحتنا حتى نهضت لتحيتنا ، كأنما كانت تعرفنا منذ زمن طويل .

كانت بشرتها بيضاء مشربة بحمرة ناعمة ــ حتى اننى تمنيت أن ألمسها ، وأن أتحسسها بيدى ! ــ ثم تحدثت الينا ، فخيل لى أن صوتها غير موسيقى ، وغير عادى أيضا . وكانت تتحدث بسرعة ، لدرجة أن الصبى الذى استدعته ليقوم بالترجمة لم يكن يفهم تماما ما كانت تريد أن تقوله ، ولم يكن يستطيع ملاحقتها .

كان التعليم فى هذه المدرسة بالمجان . وقد أحسست ــ

آنذاك – أن أبى قد ألقى بى فى طريق طويلة لا نهاية لها ، مما دفعنى الى التشبث بمعرفة كل شيء حولى .. وذات يوم أعلنت الآنسة شوارتز – وهذا اسمها – عن حاجتها الى أحد تلاميذ المدرسة ، كى يعيش معها ويساعدها فى أعمال المنزل بعد الفراغ من اليوم المدرسى. وكان أن وقع اختيارها على – فى النهاية – من بين عدد كبير من زملائى ، مما جعلنى أعد ذلك نصرا لى ولوالدى على السواء ، اذ كان يعنى زوال مسئوليته تجاه أحد الأفواه التى يسعى لاطعامها !

لماذا يترك الأمريكيون وطنهم ليعيشوا بيننا ؟

والواقع أن الآنسة شوارتز كانت تعيش بشخصية مزدوجة . اذ كنت أراها فى الصباح فتاة مرحة ، لا تفارق البسمة شفتيها ، حتى اذا ما ضمها المنزل سرعان ما تتحول الى امرأة قلقة شاردة الذهن . وكانت تشاركها المسكن فتاة أمريكية أخرى تعمل طبيبة فى ذات الارسالية ، وتشرف أيضا على شئون الصحة فى قريتنا وما جاورها من قرى . وكثيرا ما ساءلت نفسى عندما كبرت قليلا :

لماذا تركت هاتان الفتاتان بلديهما ، وجاءتا للعيش والحياة فى وطن ناء غريب عنهما ، بين أناس تختلف طباعهم وتقاليدهم وحضارتهم عن طباع وتقاليد وحضارة شعبهما ؟ لقد كنت أرى اختلافا كبيرا بين سلوك هاتين الآنستين وسلوك سيدات وطنى وفتياته . فابتساماتهما متكلفة ، وفى معاملتهما للغير تصنع وافتعال !

وكان يتردد على مسكنهما – بين الحين والحين – مساعد حاكم الاقليم ، وهو شاب طويل القامة ، برونزى اللون ، اسمه « أندرسون » ، وقد ظل يتردد على الفتاتين فترة طويلة ، الى أن علمت فيما بعد أنه نقل الى مقاطعة

أخرى ، فحزنت كثيرا ، لأن زياراته المتكررة كانت تساعدنى فى توسيع ثقافتى الانجليزية . والحق أنه لولا هذه الفرصة التى أتاحها لى القدر داخل منزل هاتين الآنستين الأمريكيتين ، لما بلغت ذلك المستوى الذى جعل أساتذتى جميعا يقررون صلاحيتى وأهليتى للالتحاق بالمدرسة الثانوية فى (ساجريسيا) .. العاصمة .

ولقد كانت مدينة (ساجريسيا) تعنى ـ بالنسبة لى ـ عالما مثيرا وجديدا . وقد عرفتها عن طريق الوصف الرائع الذى كان يسبغه عليها بعض أصدقائى من سائقى اللوريات ، ومن بعض الكلمات التى كانت تتردد عنها أحيانا فى أحاديث الآنستين . أما والدى وأهل قريتى فلم يكونوا على وفاق مع هذه المدينة ، اذ كانت تشكل ـ بالنسبة لهم ـ خطرا كبيرا ، ناشئا عن « تفرنجها » الزائد ، وابتعادها عن روح القرية البسيطة المسالمة !

الرحيل عن القرية

ومع ذلك وافق والدى فى النهاية على رحيلى الى (ساجريسيا) ، وكان يوم الرحيل قارس البرد غزير المطر ، الا أننى صعدت الى السيارة الكبيرة دون تأفف من برد أو مطر . وكان بجوارى والدى والآنسة شوارتز ، بينما وقف الأهل والأصدقاء فى انتظار تحرك السيارة . وتطلعت الى أمى فلمحت فى عينيها بريق الفخار والزهو .. وفجأة أدير محرك السيارة ، فتحركت معه صدورنا جميعا ، وارتفعت الهمهمات حتى غدت صراخا ، وامتدت الأصابع الى الوجنات تلتقط حبات الدموع الساخنة ، التى دفعت بها العواطف العميقة الى مآقى العيون ..

وجلست الآنسة شوارتز فى الدرجة الاولى ، بينما اندسسنا ـ والدى وأنا ـ بين ركاب الدرجة الثانية . وما

أن ابتعدنا عن القرية حتى عم السكون الا من عواء المحرك المتواصل .

وراحت السيارة تقطع الطريق بنا ، وتصعد مرتفعا لتهبط آخر ، الى أن لاحت أمام ناظرى بيوت شاهقة لم تألفها عيناى من قبل ، وعند ذاك أدركت أننا بلغنا (ساجريسيا) .. العالم الجديد الذى أراه لأول مرة !

وتوقفت السيارة فجأة عند ناصية شارع نظيف مرصوف ، ونزلت الآنسة ، وأشارت لنا أن نتبعها . ثم دلفت الى منزل – عرفت أنه مركز الارسالية – وهناك قدمتنا الى رجل أمريكى ، كان المسئول عن شئون الطلبة ، فدار بيننا حديث عن امتحان القبول ، لم يستغرق وقتا طويلا . وعندذاك أخرج والدى بعض الهدايا التى أحضرها معه من القرية لمثل هذه المناسبات ، وقدم منها لهذا السيد الأمريكى شيئا من الفواكه الطازجة ، فشكره الأخير بحرارة .

رسالة من أبى .. تغير مجرى حياتى !

واستقر بى المقام فى المدينة الكبيرة ، وأحببت أن أتجول فى شوارعها ، لأتعرف على أهم معالمها ، فتملكتنى الدهشة اذ رأيت الناس تزدحم بهم الطرقات ، وتغص بهم الاسواق ، وهم – بين هذا وذاك – يتفاهمون بلغة أجنبية ، ليست الانجليزية بالطبع ، كما انها لم تكن لغة (الحوصة) التى نتحدث بها فى قرانا .

وكان يعذبنى الشعور بالغربة أشد العذاب ، فما كنت أطمع يوما فى أن أغترب عن قريتى وأهلى ، لأحل فى مدينة كبيرة تختلف كثيرا عما ألفته فى قريتى الصغيرة . غير أن الفضول وحب الاستطلاع دفعانى الى معرفة المزيد ، وشق أغوار كل ما هو مجهول غامض .

وكنت – منذ عاد والدى الى القرية – مشغولا بالدراسة ، والاستعداد لأداء امتحان القبول .. وما ان ظهرت نتيجة الامتحان حتى أسرعت – فى فرحة بالغة – الى قلمى ، فسطرت رسالة الى والدى ، أنبأته فيها بنجاحى . ثم مرت أيام ، واذا بى أتلقى ردا منه ، عرفت فى سطوره خط معلمى ، الذى تلقيت على يديه – فى مدرسة القرية – مبادىء القراءة والكتابة .

ولست بمستطيع الآن أن أنكر الدور الخطير الذى لعبه هذا الخطاب فى حياتى ، لا لأنه كان أول خطاب أتلقاه من والدى ، وانما لأنه كان كالمهماز الذى يستعين به الفارس على مضاعفة سرعة حصانه . لقد كان يتضمن – الى جوار التهنئة بالنجاح – نصيحة ثمينة ، ظل مغزاها يلازمنى طوال شطر كبير من حياتى .. قالت النصيحة ، على لسان والدى :

« **ولدى كيزيمى :**

« لقد شرعت الآن فى تسلق شجرة النخيل ، التى كان من العسير عليك أن تتسلقها فى الماضى . وان الجميع – هنا ، فى (لوكو) – قد أصبحوا ، أكثر من أى وقت مضى ، مترقبين خطواتك نحو الصعود . **وانك لمدرك أن الثمار الناضجة توجد دائما بأعلى الشجرة ، فاذا ما فشلت فى بلوغ القمة فان جميع هؤلاء الذين يرقبونك – سواء منهم من سيظل حيا أو من سيموت – سوف يصبون فوق رأسك جام لعناتهم واحتقارهم .**

« **.. واذا ما قدر لك أن تبلغ هذه القمة وتقطف الثمار لتأكلها بمفردك ، وتستأثر بها دون غيرك ، فان التخمة ستصيبك بالاعياء ، وحينئذ ستسقط على الارض وتموت .**
أما اذا عدت الى وطنك بعد جنى هذه الثمار ، وأشركت معك

أهل بلدك ومواطنيك ، فان الجميع سيمتدحونك ، ويثنون على من جاء بك الى هذه الحياة . »

لقدجئت اذن لهدف أكبر من هدف تعلم اللغة الانجليزية ، بل أكبر من مجرد وجودى فى هذه العاصمة ، بين قوم أكثر مدنية وحضارة من أهل (لوكو) .. اننى هنا ــ وسأظل فى كل مكان ــ من أجل بلدى وأبناء قومى !

وكانت المدرسة الثانوية التى التحقت بها عبارة عن مبنى كبير منسق ، يشبه معظم مبانى مدينة (ساجريسيا) . وكنت أرى نفسى ، بين تلاميذ الفرقة الأولى ، اكبر منهم فى السن الى حد ما ، اذ كنت أبلغ من العمر يومذاك سبعة عشر ربيعا . وكانت الدراسة صعبة للغاية ، ولم يكن أمام المدرسين من عقاب سوى الضرب بالمسطرة على ظهور أصابع اليد . ومع ذلك اجتهدت فى دروسى ، وكنت التلميذ « الحوصوى » الوحيد الذى احتفظ بزيه القومى وتقاليده الريفية ، بينما استبدل الجميع من أهل لغتى وعشيرتى أزياءهم بأخرى أفرنجية .

لا وقت للحب !

وثمة حقيقة يجب على أن أؤكدها هنا. تلك هى أن حياتى الرومانتيكية ، أو بعبارة أخرى اهتمامى بالفتيات وتعلقى بهن ، لم يكن لها وجود بالمرة . واذكر أننى كنت أسير مع صديق لى فى شارع الأمير هنرى ، فى احدى الأمسيات ، فوجدت نفسى أمام أسراب الفتيات ، وحرت ، لكننى لم أزد عن التطلع اليهن ، والصفير اعجابا بهن !

وقال لى صديقى «كودجو» ، وهو يشير الى فتاتين كانتا تسيران أمامنا بملابس المدرسة ، انه يعرف احداهما ، ثم طلب الى ان احث الخطى قليلا حتى نلحق بهما . ووجدتنى

أسرع الخطو مع « كودجو » دون ارادة ، حتى أصبحنا على قيد خطوة أو اثنتين منهما . وما أن أحست الفتاتان باقترابنا حتى اضطربت خطواتهما ، وخيل الى أنهما تريدان الفرار ، فالتفت الى كودجو أستفسره تعليلا لهذا الموقف الجديد ، فخاطبنى باللغة الحوصوية ، مؤكدا لى أن من الوقاحة بعد ذلك أن نواصل مطاردتهما . ومن ثم قفلنا عائدين .

وقد حدث أن نظمنا محاضرة عن « بلدية (ساجريسيا) وأثرها فى تنظيم هذه المدينة » ، فدعونا مستشار البلدية وعمدة المدينة للاشتراك فى القائها . وخشى ناظر المدرسة أن نقوم بأى تصرف من شأنه أن يسىء الى الضيفين الكبيرين ، فحذرنا . لكننا لم نكن فى حاجة الى مثل هذا التحذير ، لأن الأفريقيين ــ بصفة عامة ــ يحسون احساسا عميقا متوارثا باحترام كل من كان كبيرا فى السن .

وتحدث الضيفان ، ودام الحديث طويلا ، الا أننى خرجت من المحاضرة ــ فى النهاية ــ بأمرين على جانب كبير من الأهمية : أولهما أن الدستور على الورق أمر يختلف اختلافا بينا عن الدستور فى عالم الواقع ، وثانيهما أن الكبار لا يميلون الى اجراء أى تغيير فى النظام السياسى الذى تعودوه . واقتنعت بعد ذلك بأنه اذا كان نجاح حركة التطور الوطنى يتوقف على تغيير جذرى فى النظام السياسى القائم ، فان مركز النفوذ السياسى يجب أن ينتقل ــ حتما ــ من أيدى الجيل القديم الى أيدى الجيل الجديد .

التفرقة العنصرية تتدثر بالنفاق !

وقبل الامتحان بأسبوعين وقعت مشادة عنيفة بينى وبين « صامويل » ، ابن أحد المدرسين ، امتزج فيها الدم الساجريسي بالدم اللوكي . وكم كان غريبا أن يدعونا والد

صمويل بعد هذا الى بيته ، مصلحا بيننا ، قارئا علينا ـ بصوت متهدج ـ بعض نصوص الانجيل التى تنادى بالأخوة والمساواة والسلام بين بني البشر جميعا . على أن هذا الأستاذ قد بدا فى نظرى منافقا ، كما بدا فى نظر ابنه خائنا ، ذلك لأن مظاهر التفرقة والاختلاف بيني وبين ابنه حقيقة واقعة لا تحتاج الى بيان .

ثم جاء الامتحان ، وظهرت النتيجة بعد فترة من القلق والترقب ، وكنت ـ وصامويل ـ من بين الطلبة المتفوقين . ومعنى ذلك انبلاج أمل قوى أمامنا ، أمل الحصول على منحة دراسية تجعل من حقنا أن نواصل تعليمنا العالى .

وفى تلك الليلة التى أعلن فيها نجاحنا ، قمت وصامويل ـ بعد أن زالت أسباب سوء التفاهم بيننا ـ بنزهة خلوية ، دامت طويلا ، استمتعنا فيها بجو كله مرح وصفاء ، واقبال على الحياة . لقد كان الاحساس بأننا قد شرعنا فى الوقوف على عتبات حياة أكاديمية جديدة ، ندق أبوابها بروح الجندى المنتصر ، يملأ علينا كل ذرة فى حياتنا .

الزواج بالأجنبيات .. ممنوع !

ومرت أربعة شهور ، ألفينا أنفسنا بعدها ـ فجأة ـ على ظهر باخرة ، أبحرت بنا الى انجلترا لتلقى العلم فى جامعاتها . وكنت قد عزمت على دراسة اللغة الانجليزية وآدابها . بينما أصر صديقى صامويل على دراسة الطب .

ووقعنا ـ قبل السفر ـ تعهدا كتابيا ، ألزمنا بخدمة الحكومة الوطنية مدة خمس سنوات بعد العودة من انجلترا . هذا بالاضافة الى شرط آخر ألزمنا بعدم الزواج فى الخارج الا بعد موافقة الحكومة . ولست أدرى ما شأن الحكومة بهذه الأمور الشخصية !

وكنت قد قضيت الاسبوعين الأخيرين فى قريتى – (لوكو) – بين أقاربى ومعارفى . وأذكر أن أخى ، الذى وصل الى (ساجريسيا) لتوديعى ، قد وقف ليشد على يدى مصافحا للمرة الاخيرة . واذ أسلمت له يدى محييا ، دس فيها قطعة كبيرة من الماس ، وأخبرنى أن والدى يرجونى أن أحتفظ بهذه الماسة معى دائما ، حتى تذكرنى بقيمة اخلاص شعبى وعواطفه نحوى . ولما كان قانون (ساجريسيا) يحرم على الناس حمل مثل هذه الماسة ، فان المغامرة بأخذها معى قد أضافت الى قيمتها معنى كبيرا فى نظرى .. لقد ظلت هذه الماسة حتى الآن أثمن ما أعتز به من ثروه فى حياتى . ذلك لأننى كنت – وما زلت – أرى فيها الشعلة المجيدة لروح أفريقيا ، والثراء الوفير لخيراتها ، بل كنت أرى فيها الطرف الحاد لطاقتها وقدرتها .. لقد أصبحت هذه القطعة الماسية تمثل أمام عينى – فى كل وقت – الشعاع المتسلل لنجمة الحرية فى أفريقيا ، والضوء الذى سيوقظ العملاق الأسود الذى يرقد على سرير القارة العذراء !

لا مكان للسود على ظهر السفينة !

وسارت السفينة تمخر بنا عباب اليم ، وكانت حكومة ساجريسيا قد حجزت لى أنا وصامويل مكانين فى الدرجة الأولى ، فتأكدنا من أننا سنختلط بالانجليز البيض الموجودين فى الباخرة ؛ ونتحدث اليهم ، ونأكل معا طعاما شهيا ، مما يقدم لركاب الدرجة الأولى . الا أن آمالنا سرعان ما انهارت فجأة حين صدرت التعليمات بعدم اختلاط البيض بالسود .. فتحول تفاؤلى الى تشاؤم حزين ، غير أن هذه الكآبة لم تدم طويلا ، اذ التقينا لحسن الحظ – أنا وصامويل –

بثلاثة طلبة آخرين من أبناء منطقة غرب أفريقيا البريطانية ، وكانوا يعانون مثلنا مرارة سياسة التفرقة العنصرية .

لقد كنا شبابا تملأ أذهاننا مشروعات جديدة بناءة ، وكنا طموحين ، متحمسين لاحداث انقلاب جذرى فى كل مجالات الحياة فى بلادنا ، ثم اذا بنا نصدم بهذه الخرافة التى يدين بها البيض ، ويطبقونها حرفيا .. غير أننا أدركنا أن سعادتنا لن تكون فى صحبة الاجانب ، وانما هى فى صحبة أبناء وطننا ، ولذلك قررنا نحن الخمسة أن نتحد فى رابطة لاتنفصم عراها .

وفى ميناء (لاس بالمز) ، وهو الميناء الذى يقع قبل ليفربول ، كنا أول من هبط الى الشاطىء ، وآخر من عاد الى الباخرة . وفى الليلة الأخيرة من السفر أقيمت حفلات الوداع ، فاجتمع البيض فى صالات الرقص ، وأخذوا يغنون ويرقصون على نغمات الموسيقى الصاخبة ، بينما انعزلنا نحن السود فى « كابين » بعيدة مستقلة ، وشرعنا نغنى ونرقص بدورنا . أليست هذه هى بريطانيا التى تصدر الى بلادنا أشياء نعجب بها ، وأشياء أخرى نأسف لوجودها ؟ !

مؤتمر وطنى ، على نطاق ضيق

ثم انخرطنا فى حديث دار حول المستقبل : أين سندرس ، وماذا سنتعلم فى انجلترا ؟ ووقف «أديمولا» الشاب الأسود القصير الذى يزين وجنتيه وشم قبيلته . وسألنا : « هل بينكم من يفكر فى الاشتغال بالسياسة عندما يعود الى وطنه ؟ » .. فاندفعت أجيبه على الفور : « أما من ناحيتى فلن أفكر فى الأمور السياسية حتى أشعر بأننى قد كونت نفسى تماما » ، وهنا أردف « أديمولا » يقول : « ان بعض قادتنا وزعمائنا يدمرون بلادنا .. انظروا مثلا الى الطريقة

التى يريدون أن يحكموا بها شعبنا . انهم فى نظرى مجرمون يستحقون السجن المؤبد ! »

.. ثم تحدث « أوكولى » ـ الفتى الأسود ذو العوينات السميكه ، الذى يتجه الى انجلترا لدراسة علوم الهندسة فى جامعاتها ـ فقال : « اننى أوافق على ذلك ، فأنا أعتقد أن علينا معشر الشباب أن نبدأ على الأقل فى الحديث عن مستقبل بلادنا ، وأن نقرأ كل ما نستطيع قراءته عن المواقف السياسية فيها ، فى الوقت الذى ندرس فيه فى جامعاتنا . »

كيف نؤدب الرجل الأبيض ؟

وعندئذ نهض «أبايا» ، الشاب العريض المنكبين ، وقال : « ليست هناك سوى طريقة واحدة لمعاملة الرجل الأبيض . أتدرون ما هى ؟ » .. فأجبناه جميعا بصوت واحد : «ماهى يا صديقنا ؟ » ، فقال ، وشفتاه الغليظتان تختلجان من الغضب : « هى أن نقنعه ـ بطريقة عملية ـ بأن فى استطاعتنا أن نضربه على أم رأسه ! » .. وعندئذ انفجرنا جميعا ضاحكين . وبعد برهة من الصمت انبعث صوت زميلى « صامويل » يدعونا الى التزام الهدوء والحرص على أن نشعر ركاب السفينة الآخرين بأننا قوم نعرف أرقى أنواع السلوك الاجتماعى .. فقد كنا فى ساعة متأخرة من الليل .

وهرع الجميع الى حجرات النوم بعد ليلة صاخبة معربدة .. ولكن « أبايا » استطرد يقول : « أننى أعتقد يا أخوانى أن كل الدول الأفريقية ستحصل على الحكم الذاتى ، ان آجلا أو عاجلا ، فاننا معشر الأفريقيين من عنصر ممتاز .. انظروا الى خصائصنا الجسمية .. أليس فى شعرنا المجعد وشفاهنا الغليظة دليل على أن مرحلة التطور فى حياتنا أكثر تقدما من المرحلة التى وصل اليها البيض ؟ واذا كان هدف

الحضـارة هو تحقيق التناسـق الاجتماعى ، فمن اذن أكثر حضـارة : الافريقيون أم الأوربيون ؟ .. انظروا الى أرقام الطلاق والمصابين بالجنون والذين يرتكبون جرائم الانتحار فى أوربا ،لتعرفوا ما حققته حضارتهم التى يتشدقون بها ! »

وبعدمناقشة طويلة ، امتدتالى ساعة متأخرة من الليل ، قررنا أن ننصرف الى فراشنا بعد أن عقدنا العزم على تدعيم أواصر الاتصال بيننا فى لندن .

الرجل الأبيض يكنس الشوارع !

وفى اليوم التالى وصلنا الى ليفربول . ووقعت أعيننا ـ لأول مرة ـ على الارض الموعودة ، فراعنـا منظر المبـانى الشـاهقة ، وحركة المواصلات المزدحمة .. وبينما كنا فى انتظار القطار الذى سيقلنا الى المناطق التى تقرر أن نقيم فيها ، رأينا منظرا أثار دهشتنا ، وعقد ألسنتنا ، لغرابته : لقد رأينا رجلا أبيض يمسك بيديه مكنسـة طويلة ، ينظف بها أرض الشارع ! وتعجبنا جميعا ، اذ كيف يوجد على ظهر الأرض رجلأبيض يقوم بأعمال الخدم والعبيد ؟ ! لقد عهدنا الرجل الأبيض فى بلادنا حاكما أرستقراطيا ، أو صـاحب مصنع أو مزرعة ، أما كناسا يزيل غبار الشوارع ، فهـذا جانب لم نكن نعتقد أن الأبيض من أهله .

الانجليزى يعامل كلبه كما يعامل ابن عمه !

ثم ركبت القطار الى (يوركشير) ، حيث استقر بى المقام هناك ، فى أحد البيوت المعدة لنا . وفى هذه المدينة استطعت أن أختلط بالناس فى كل مكان ، فاكتشفت أشياء لم يـكن لى عهد بها من قبل .. فالانجليز فى بلادهم يختلفون تمـاما عنهم فى خارجها . .أما الشيء الذى أثار اهتمامي ـ ولا شك

أنه أثار اهتمام كل الافريقيين الذين عاشوا فى انجلترا - فهو روح الفردية عند الشعب الانجليزى . ذلك لأن روابط الأسرة تكاد تكون معدومة بينهم ، فقد يتزوج المواطن الانجليزى دون أن يحضر زفافه أحد من أفراد عائلته ! . . وتذكرت على الفور مجتمعنا الأفريقى المتماسك ، الذى لايمكن للفرد فيه أن يقدم على خطوة ترتبط بدور هام فى حياته ، دون أن يستشير الكبار فى أسرته . . ولا تكاد تقع كارثة لأحد منا حتى يحضر الجميع لمواساته ومساعدته ، ولذلك كنا نضحك من أعماق قلوبنا عندما نسمع الأساتذة الانجليز يتحدثون عن الروابط العائلية . . وكانت النكتة الشائعة بيننا هى أن الانجليزى يعامل كلبه كما يعامل ابن عمه ، ويعامل ابن عمه كما يعامل ابن رجل غريب عنه !

وقد قضيت العام الأول فى يوركشير على ما يرام ، وكنت أقوم فى آخر كل أسبوع بنزهة خلوية ألتقط خلالها صورا لكل ما كان يروق لى من مناظر طبيعية جميلة . وحرصت على التردد على بيت الشباب ، حيث كنت أقابل عددا كبيرا من الطلبة الذين تتباين اتجاهاتهم وميولهم . وكنت أجد لذة فى الحديث اليهم والجلوس معهم .

ذات الشعر الذهبى ، التى أوقعتنى فى شباكها

وعلى مائدة بحانة يرتادها الطلبة الأفريقيون ، رأيت فتاة شقراء ، ذات شعر ذهبى أصفر ، يتدلى على ظهرها فى خصلات خفيفة ، تزداد جمالا كلما داعبتها النسائم الرقيقة . وكانت تتلفت فى بطء ، وتوجس بنظراتها خلال موائد الجالسين ، لكننى لم أستطع أن أتبين تفاصيل وجهها تماما . والحق يقال أننى قابلت مجموعة كبيرة من الشقراوات ، راقصتهن وضحكت معهن ، ولكنى لم أتأثر بواحدة منهن مثلما تأثرت

بهذه الفتاة . لقد كانت « جريتا » ــ وهذا أسمها ــ تجلس على قيد خمس ياردات منى ، وجذبت نظرى عيناها الزرقاوان الهادئتان ، فأحسست حين التقت بهما عيناى ، برعشة تسرى فى كل كيانى .. لكنى تمالكت نفسي ، وجمعت كل شجاعتى ، ثم انتقلت أليها لأحييها .

وحين ابتدرتها قائلا : « سعدت صباحا يافتاتى » ، توقعت الصمت من جانبها ، فالشقراوات ينظرن دائما الى أمثالنا من السود نظرة ازدراء وأنفة .. لذلك كانت دهشتى عظيمة ، حين أجابتنى بصوت موسيقى هادىء : «سعدت صباحا» . وحينئذ وجدت الفرصة مواتية للحديث معها ، فقلت لها : « اننى اعتذر عن وقاحتى ، وأرجو قبول عذرى .» ، غير أنها أطرقت بعينيها الى الارض ، وأدارت وجهها بعيدا عنى ، فأحسست بشعور الاستياء ينتابنى ، وخيل الى أنها تريد منى أن أبتعد عنها ، فسارعت أقول : « ربما أخطأت .. هل تسمحين لى بالانصراف ؟ » .. وعندئذ رفعت رأسها محملقة فى وجهى ، ثم سألتنى : « أين تعلمت اللغة الانجليزية بهذه الطلاقة ؟ » .. فأجبتها على الفور : « تعلمتها فى احدى مدارس (سونجهاى) ، بمستعمرة (غرب أفريقيا) البريطانية .. ان الكثيرين فى مثل هذه المدن يتحدثون الانجليزية ، وربما بطلاقة أكثر منى ، كما لا بد تعرفين» .. فأجابت : « صدقنى ، لا أعرف ، فأنا من (بريتوريا) ، وليست لى معرفة كبيرة بما فى منطقتكم » . وعندئذ أحسست بالاطمئنان والراحة ، فقلت لها : « اذن كلانا من أفريقيا ! .. عالم صغير ، أليس كذلك ؟ » ، فابتسمت فى هدوء وتثاقل ، ثم أردفت قائلة : « ان (جنوب أفريقيا) بلاد تختلف عن بلاد (غرب أفريقيا) » ، فأجبتها : «ليس الاختلاف بين المنطقتين كبيرا أو أساسيا .»

خلاف حول المبادىء

وشعرت حينئذ بالسرور والفرحة ، لأن تطرق المناقشة بيننا على هذه الصورة قد خلق موضوعا لحديث يهم كلا منا على السواء . والتقطت هى خيط المحاورة لتقول لى : « ان هناك كثيرين من البيض فى جنوب أفريقيا لا يؤمنون بمبدأ التفرقة العنصرية ، وأنا من بينهم ! »

وفى هذه اللحظة أدركت أن فى هذه الفتاة شيئا يدعونى الى الاعجاب بها . ثم استطردت قائلة : « وليس معنى هذا أنه لا توجد أسباب تاريخية وراء فكرة العنصرية ولكن .. » .. فقلت فى لهجة حماسية : « ان رئيس وزرائكم أكثر الناس تعرضا لكراهية الأفريقيين ومقتهم ، وأؤكد لك يا صديقتى أنه لا يوجد فى أفريقيا كلها شخص يهتم بالبحث عن الاسباب التاريخية لفكرة التفرقة العنصرية . وكل ما نعرفه عن هذا الرجل الذى يرأس حكومة بلادكم أنه شخص يعمل على خلق روح التفرقة بين شعبى وشعبك ، لأنه من المؤمنين بسمو عنصر من الناس على عنصر آخر ، لا يفرقهما سوى اختلاف لون البشرة . ونتيجة لهذه السياسة التى يحاول بها بث روح العداوة بين الابيض والاسود ، قام بعض الافريقيين فى غرب أفريقيا بالاعتداء على بعض الهولنديين الذين كانوا فى زيارة خاطفة لبلادهم ، كما أن أحد القسس من الهولنديين أيضا لم يستطع أن يمكث فى بلادنا الا تحت حماية البوليس ، ولا أدرى لماذا نحس معشر الافريقيين جميعا بأن أول دولة ستتعرض لهجوم الولايات الافريقية المتحدة ، عندما تقوم ستكون دولة أتحاد جنوب أفريقيا ! »

اقتناع .. بعد شك !

وهنا لزمت « جريتا » الصمت هنيهة ، ثم قالت فجأة : « ان ما تقوله يا صديقى لشىء مؤلم حقا ، ولا أستطيع أن أنكر أن الكراهية ، بسبب العنصرية ، أمر كله شر ، بغض النظر عمن يقوم به أو يوجه اليه » .. ثم حدقت فى بعينيها الجميلتين وقالت : « اننى أنتمى الى أسرة من (البوير) ، ولو رآنى أحد من أفراد جماعتى البويريين أتحدث اليك الآن ، أو حتى سمعوا بما أقوله لك ، لألهبوا ظهرى بسياطهم . ولقد جئت الى هنا لأتأكد بنفسى من أنه لم يعد لديهم سند معقول فى التعصب لأفكارهم ، ضد ثقافتكم ، ومواهبكم العقلية ، بعدما حققتم لانفسكم المزيد من التقدم . لقد جئت الى هنا لأتعرف على أكبر عدد ممكن من الطلبة الافريقيين الذين يدرسون فى جامعة لندن .. ولكن ألست معى فى أن ما تقوله أنت الآن يساعد على اقناع شعبى بأن العنصرين لا يمكن ـ ولا ينبغى ـ أن يعيشا سويا ؟ »

والى هنا أحسست بالخجل، فاستدركت قائلا : « معذرة يا سيدتى ، وأرجو قبول عذرى ، اذا كان قد بدر منى ما خالف دعوتك ، وأحب أن أؤكد لك أن معظم أفراد شعبى فى غرب أفريقيا أناس يحبون السلام ويدينون بالتسامح »

وطال بنا الحديث ، فأتيح لكل منا أن يكتشف فى الآخر أشياء كثيرة .. علمت أنها يتيمة الأبوين ، وأن أباها الذى كان يمتلك مزرعة كبيرة قد توفى قبل أن تشب عن الطوق ، وأنها قد حضرت هنا بصحبة أخيها وصديق له ، للدراسة فى جامعة لندن . وفى نهاية الحديث وجهت الى دعوة للحضور الى مسكنها ، وزيارة أخيها « جان » وصديقه « فردريك » ، وقالت لى : « اننى أفضل أن تأتى بنفسك ،

وتتحدث اليهما ، **حتى تقنعهما بأنكم معشر السود قوم جديرون بالثقافة والرقى . »** .. ووجدت فى هذه الدعوة فرصة أتيحت لى لمقابلتها مرة ثانية ، فلبيتها بسرعة ، وذهبت الى المنزل حيث التقيت بجان وفردريك . وهنا طلبت الى أن أقدم لهما نفسى ، فقلت: « أننى كامارا كيزيمى كامارا » ، ثم قدمت هى نفسها قائلة : « أما أنا فأدعى « جريتا هالس » ، وأننى لسعيدة لأن أقدم اليك أخى « جان » ، وخطيبى فردريك هيرتوج » .

وانتهت هذه المقابلة ، وانصرفنا على أن نلتقى فى موعد آخر ، فى بار (رويال كيزويك) . وكنت أعتقد أن هذا البار قد يكون محرما على أمثالنا من السود ، الا أننى حين ذهبت اليه وجدته مزدحما بالزبائن من كل جنس . وقد وصلت فى الموعد المحدد ، فلمحت جريتا جالسة فى ركن قصى من المقصف. وأحب أن أقول منذ البداية ان أى شخص يستطيع أن يتحكم فى حواسه الخمس كان لا بد أن يفكر مرتين على الاقل فى المحافظة على مثل هذا الموعد ، واذا كان من الضرورى أن أعترف هنا بالحقيقة ، فأننى أقول بصراحة ، ودون التواء ، ان ذهابى الى بار (رويال كيزويك) هذه المرة لم يكن القصد منه ـ مطلقا ـ استمالة هؤلاء الى آرائى ، فيما يتعلق بقضية التفرقة العنصرية، وانما كان ـ ببساطة ـ لرؤية جريتا مرة أخرى والجلوس معها !

لون بشرتى يسبب لى المتاعب

ولقد ارتديت يومها ملابس السهرة الانيقة التى اعتدت أن أرتديها فى حفلات (ساجريسيا) ، فبدوت شخصا يستحق اهتمام كل من يراه ، والواقع أن ملابسى لم تثر نظرات الآخرين بقدر ما أثارهم لون بشرتى . وذهبت الى جريتا حيث كانت

تجلس ، فوجدتها تحتل المائدة بمفردها . وحين حييتها ابتدرتنى قائلة : « ان أخى جان سيحضر بعد قليل ، أما خطيبى فردريك فلن يحضر ، وأخشى ألا يكون موافقا تماما على الموضوع من ألفه الى يائه ! »

وتمالكت نفسى ، حتى لا أظهر لجريتا مدى ما أشعر به من غيرة قاتلة من فردريك ، الا أننى أحسست فى الوقت نفسه بما يشبه الانتصار عليه ، فقلت لها : « هونى الامر على نفسك يا عزيزتى ، فهذا لن يعجل بنهاية العالم ! » .. غير انها استدركت قائلة : « لا ، يا كامارا ، أننى أعلق أهمية كبيرة على مقابلتك لفردريك ، فهو سينتهى من دراسته بعد أربعة أسابيع ، ثم يعود الى وطنه ، وقد لا تتاح لكما فرصة أخرى للقاء والمناقشة فى هذا الموضوع الحيوى » . فقلت لها ـ رغبة منى فى ادراك مدى حبها لفردريك ! ـ : « أيزعجك أن تتزوجيه اذا لم يقتنع بآرائى فى التفرقة العنصرية ؟ » ، فأجابتنى وعلى شفتيها ابتسامة باهتة : « نعم ، هذا بالضبط ما أفكر فيه .. فان والده كان يمتلك مزرعة كبيرة فى جنوب افريقيا ، وقد اعتاد أن يعامل السود هناك معاملة وحشية فظة. وكان هذا السلوك من جانبه يثير ثائرة هؤلاء السود ويغضبهم منه ، حتى أنهم كانوا يحرقون مزارعه ، ويتلفون محصولاته . وقد حدث فى أحد الأيام أن اشعلوا النار فى سيارته فأصيب اصابة بالغة أدت فى النهاية الى وفاته بعد ذلك ، ولعل هذا هو سبب كراهية فردريك لكل من هو أسود ! »

النبى الذى صعد الى الجبل !

فقلت لها بعد أن وضعت يدى على يدها : « اذن خذينى معك الى حيث يوجد فردريك وجان ، فاننى أحب أن أتحدث

اليهما ! » .. وشعرت فى هذه اللحظة بأننى سأكسب ـ من غير شك ـ جولة النصر الثانية مع جريتا . وسرنا سويا وقلبى يضطرب ، دون أن أستطيع تحديد معالم الدوافع التى سببت هذا الاضطراب فجأة ، حتى وصلنا الى الحجرة التى يقطنها فردريك وجان . وطرقت جريتا الباب بقوة ، فانفتح عن ذلك الشاب الطويل القامة ، العريض المنكبين ، فحيته جريتا بابتسامة جادة رزينة ، ثم قالت له بعد أن أشارت الى بيدها : « هذا هو كامارا .. النبى الذى صعدت به الى الجبل ! ولاشك يا فردريك أنك تعرف من هو كامارا ، ولماذا جاء معى الى هنا ! » .. فأجابها بعد أن حدجنى شزرا بعينين تشع منهما روح الحقد والكراهية : « ألم أقل لك يا جريتا اليوم أننى لم أقطع ستة آلاف ميل لكى أصادق الزنوج الذين ركلتهم بقدمى فى جنوب أفريقيا ! ؟ »

وأحسست بالدم يغلى فى عروقى ، ورذاذ شرر أحمر يتطاير أمام عينى ، وأدركت أن هناك شيئا واحدا يجب أن أنفذه بأقصى سرعة ، فقلت له : « ليس من الذوق أن أركلك بقدمى هنا فى حضرة جريتا ، وحديثك معنا بهذه الطريقة يدل على أنك لم تستفد كثيرا مما تعلمت ! » . ثم هرعت خارجا والدنيا تزمجر من حولى ، واتجهت من فورى الى مبنى بيوت الشباب ، حيث انتحيت مكانا هناك على شاطىء النهر ، ودفنت وجهى بين راحتى ، ورحت أسرح مع أفكار لا حصر لها ، كانت تصطرع كلها داخل عقلى ..

وبينما أنا كذلك اذا بى أفاجأ برجل يربت على كتفى قائلا لى : « ان جماعة من كيزويك يريدون مقابلتك ، وأرجو الا تستبقيهم هنا طويلا ، فالوقت ـ كما تعلم ـ متأخر بعض الشىء » .. ونهضت لأقابل جريتا وأخاها الذى ابتدرنى قائلا : « اننا آسفان كثيرا لما حدث اليوم ، فسلوك فردريك

معك كان - بالفعل - خشنا وجافا ، ولعلك تلتمس له العذر بعد أن سمعت من جريتا ما روته لك عن قصة والده مع السود. أضف الى هذا أن فردريك شديد الغيرة على جريتا ، وقد اشتعلت نار غيرته أكثر حين رآها تتلطف معك على هذا النحو، وتؤيد أفكارك فيما يتعلق بمسألة التفرقة العنصرية !»

وقلت لجان بعد أن لمست فيه هذا الموقف الطيب : « أرجوك يا جان ، لا تعتذر لى بأكثر مما فعلت .. واننى أؤكد لك ، صراحة ، أننى لا أحمل ضغينة لأى مخلوق ، مهما يكن لونه أو جنسيته ، أو مستواه الثقافى » .. فضحك جان ثم نظر الى فى أدب قائلا : « أظن أنه ليس هناك مانع من أن تتفضل لتتناول طعام العشاء معنا هذه الليلة فى الفندق الذى ننزل فيه ، ولن يكون معنا فردريك بالطبع ، لأنه انتقل هذا الصباح الى فندق آخر » .

واختلست نظرة الى جريتا فى هذه اللحظة ، فوجدتها ترمقنى بعينين معبرتين تعلنان تأكيدها لدعوة أخيها ، فقلت بعد أن أحسست بهدوء أعصابى : « اننى أشكر لكما هذه الدعوة ، وأعدكما بالحضور كما أردتما » .. ثم انصرفت جريتا وأخوها ، واستسلمت أنا لأحلامى وأفكارى سابحا فى عالم الحب ، محاولا مقاومة روح الكراهية التى ملأت قلبى ضد فردريك ، الذى غدا غريمى فى أكثر من ميدان .. لقد كنت أكرهه لأنه كان شديد الاحتقار لى ولأبناء جنسى ، وكنت أكرهه كذلك لأننى كنت أعتقد أنه غير جدير بأن يكون زوجا لهذه الانسانة الفيلسوفة ، التى ملكت على كل أحاسيسى ومشاعرى !

يفسخ خطبته ، لاختلاف وجهات النظر !

والتقينا حول مائدة العشاء ، ودار حديث طويل عن

فردريك وميوله العنصرية ، ثم اتفقنا أنا وجريتا على اللقاء فى الصباح . وكان يوما جميلا رائعا حقا ، بل لعله كان أسعد يوم فى حياتى . فقد سرنا سويا ، وتناولنا فى أحاديثنا كل ما يدخل السرور والبهجة على النفوس ..

وتوطدت العلاقة بينى وبينها ، فكانت تزورنى فى مسكنى الخاص ، وكنت ـ بدورى ـ أتردد كثيرا على الفندق الذى تقيم فيه .. كان كل منا يكتشف فى الآخر ـ يوما بعد يوم ـ شيئا جديدا .. وكنا نكتشف سويا ، أحيانا ، بعض أسرار الطبيعة وألغازها .. وفى لحظة من لحظات اللقاء قالت لى ، ومسحة من الحزن الخفيف تعلو وجهها : « ألا تعلم يا كامارا أن فردريك قد فسخ خطبته منى ؟.. لقد قال لى أن اختلاف وجهتى نظرنا ـ حول التفرقة العنصرية ـ اختلاف جوهرى لا يمكن للحياة الزوجية أن تسير معه ؟ ! » . وحين خطرت فى ذهنى فكرة الزواج منها بعد أن تخلى عنها فردريك ، تذكرت على الفور ذلك التعهد الكتابى الذى أخذته علينا حكومة سونجهاى بألا نتزوج فى الخارج دون موافقتها . فأحجمت قليلا ، ورأيت من الاصوب أن أدع التفكير فى هذا الموضوع الى وقت آخر .

وارتبط كل منا بالآخر ، حتى لم نعد نطيق الفراق يوما واحدا . وفى أحدى ليالى الصيف جلسنا نتحدث ، حتى لم يبق على اشراقة الصباح سوى ذوبان تلك السحابة الرقيقة من عتمة الليل . وغلبنا النوم ، فأمسكنا عن الكلام ، وحين طلع الفجر كان كل منا مستيقظا فى مكانه يسبح فى تأملاته وأفكاره دون أن ينبس ببنت شفة .. كنت أفكر فى بلادى أفريقيا ، وتطير خيالاتى لتتركز أحيانا على فتاة سوداء صغيرة ، كانت تحلى جيدها بالعقد الاحمر الجميل ، وتغنى

بصوت مرتفع ، وهى تستحم تحت رذاذ المطر الافريقى المتساقط .

أما جريتا فقد كانت ـ كما أظن ـ تفكر هى الاخرى فى بلادها أفريقيا ، ولكن أفريقيتها كانت تختلف من غير شك عن أفريقيتى .

وتقدرون .. فتضحك الأقدار !

وذات يوم طلبت جريتا الى أن نخرج سويا فى نزهة خلوية ، فلبيت دعوتها عن طيب خاطر ، واحتوانا شارع طويل كنا نقطعه ، وقد تأبطت ذراعها .. وكنت أريد أن أقول لها شيئا يعتمل فى صدرى ، وكنت أشعر بأنها هى الاخرى كذلك . ثم سمعنا خلفنا صوت سيارة قادمة من بعيد ، أخذ نداء بوقها يعلو أكثر فأكثر ، وظلت تقترب منا حتى أصبحت على قيد خطوات قليلة . وفجأة ندت عن جريتا صرخة مجنونة أفقدتنى وعيى ، وحين أفقت وجدت نفسى راقدا فى سرير باحدى المستشفيات ، فسألت ذلك الشخص الذى كان يجلس بجوار سريرى ، عن جريتا ، فلم يشفنى باجابة قاطعة ، بل راح يتجنب المناقشة معى ، وهنا أحسست بقلبى يضطرب فى سرعة ، وأخذت الاوهام والمخاوف تنتابنى بشكل مزعج ، وظلت حياتى مرتبطة لمدة أسبوع كامل بخيط واهن يتأرجح بين الأمل واليأس : **ترى هل أصابها مكروه ؟ هل قضت السيارة الملعونة التى كان يقودها ذلك السائق الطائش على هذه الفتاة الحلوة الطيبة ؟ ..** وأخيرا علمت ، فى يوم مشئوم ، أن جريتا قد قضت نحبها ، وأنها قد ماتت ولن تعود ! .. ثم بدأ رجل البوليس الذى سمح له الطبيب بالتحدث الى يستجوبنى ويوجه الى بعض الاسئلة بشأن الحادث ، بعد أن أخبرنى أن ادارة المباحث

تتعقب السائق الذى دهمنا بسيارته ، فذكرت له على الفور اسم فردريك ، وشرحت له قصة علاقتى بجريتا وأخيها جان ، وخطيبها السابق فردريك ، منذ اليوم الاول الذى تقابلنا فيه نحن الثلاثة . وتركنى رجل البوليس والشكوك تساوره فى صحة ما أقول .. لقد خيل الى أنه كان يظن أننى لازلت فى حالة هذيان !

وعلمت ـ للأسف ، فيما بعد ـ أن فردريك قد نجح فى اقناع رجال البوليس بأنه كان فى لندن ليلة وقوع الحادث ، وأنه فوجىء به ، كما فوجىء به كل من يعرف جريتا ، وعزمت على أن أرفع قضية ضد فردريك بعد خروجى من المستشفى ، أوجه اليه فيها تهمة قتل جريتا عمداً مع سبق الاصرار !

وذات يوم ، كنت راقداً فى سريرى بالمستشفى ، أعانى الوحدة والمرض ، واذا بصديقى « صامويل » يدخل على ، بعد أن ظل يبحث عنى فى كل مكان . وبكى كالطفل الصغير حين رآنى على هذه الصورة . وعندما سألنى عن تفاصيل الحادث لم أستطع يومها أن أبوح له بأمر جريتا وقصتها معى ! ..

البحث عن عمل ..

وانتهت فترة اقامتى بالمستشفى فخرجت، بعد أن عقدت العزم على أن أتوجه الى ليفربول للعمل هناك ، ولكى أكون أيضا قريبا من صامويل الذى كان يدرس فى أحد معاهدها . واقتنعت يومذاك بأننى أستطيع فى مثل هذه المدينة ، الحصول على عمل يكفل لى دفع مصروفات الدراسة التى انفقتها فى غير بابها ، حتى أثبت لحكومة سونجهاى أننى جدير فعلا بالمنحة التى منحتنى اياها ..

وبعد ثلاثة أيام من البحث عن عمل ، تحسست جيبى

فوجدت أن ما كان به ، لم يبق منه سوى جنيه واحد ! وكان لونى الأسود هو السبب الرئيسى فى اننى لم أحصل خلال هذه الفترة على أى عمل فى تلك المدينة التى ابتلعت مصانعها كل الأيدى العاطلة .

طالعت الأدب الانجليزى أثناء نوبات الحراسة

ثم وفقت أخيرا الى وظيفة خفير ليلى لحراسة أحد البيوتات التجارية فى شارع (ريجنت) . وقد أتاحت لى هذه الوظيفة الجديدة فرصة قراءة الأدب الانجليزى الكلاسيكى . وكانت الضوضاء فى شارع البرلمان الذى يقع فيه مسكنى مزعجة لدرجة لم أكن أتمكن معها من النوم أثناء النهار ، فعزمت على البحث عن عمل آخر يكون أكثر ملاءمة لى .. الى أن عثرت على وظيفة باحدى الشركات الكبرى .

وفى تلك الاثناء قدمت أوراق الانتساب الى الكلية الملكية فى ليفربول ، وضاعفت جهدى فى المذاكرة والتحصيل ، حتى أصل الى المستوى الذى وصل اليه الطلبة الانجليز أنفسهم .

وعلمت من صديقى صامويل أن الحكومة قد قطعت عنه المنحة الدراسية لأنه فشل فى دراسة الطب التى جاء من أجلها ، وتحول عنها الى دراسة القانون ، وانه يعتمد الآن فى مصروفاته على ما يجود به عليه أقاربه وأصدقاؤه فى غرب افريقيا ، فعرضت عليه قرضا متواضعا يكفيه لمواصلة تعليمه الى أن تحل مسألته بطريقة أو بأخرى ، فقبله بعد تردد منه ، والحاح منى بأخذه .

ونجح بعد قليل فى الحصول على عمل ، ينحصر فى كتابة الاعلانات وبيعها للشركات ، وكانت آماله كلها تتركز — يومذاك — فى الحصول على درجة جامعية من لندن فى القانون ، وكان يدرس فى ذات الوقت علم الاقتصاد فى (نيوكاسل) .

التفرقة العنصرية مرة أخرى

واخيرا ، وبعد خمس سنوات طوال قضيناها فى انجلترا ، تزودنا فيها بالكثير من العلم ، وفهمنا فيها سلوك الشعب الانجليزى ، عدنا الى الوطن الحبيب، فوجدناه يغلى كالمرجل، ورأينا مظاهر الحياة فيه قد تبدلت كثيرا عما كانت عليه من قبل .. فوقفت حائرا مضطربا ، لا ادرى ماذا افعل : هل أوافق على هذا التطور الذى يتسم بطابع المادية الغربيـة وحضـارة أوربا ؟ أم أظل مخلصـا لتقاليد أفريقيـا وتراث اجدادى الأولين !

وكنت قـد عزمت على أن أنسى كل ما يتعلق بجنوب أفريقيا ، وأن أسدل سـتارا كثيفا على اخبارها وما يرتبط بها ، غير أنى وجدت عينى تتركزان فجأة على عنوان ــ بالبنط العريض ــ فى صدر صحيفة بريطانية . ووجـدتنى أنجذب بقوة مغناطيسية الى قراءة هذا الموضوع الذى يتصل بموقف حكومة جنوب أفريقيا من الملونين ، فقد قرأت فيه ان هـذه الحكومة قد حذفت أصـوات الملونين من قائمة الانتخـابات العامة ، بالرغم من معارضة بعض البيض فى جنوب أفريقيـا لهذا القرار . وكان هذا يعنى ــ بالطبع ــ أن الحكومة لاتزال مصرة على ابقاء السـود فى مناطق العزل التى أقامتها لهم ، ووجدت اسماء عدد كبير من أساتذة الجامعة وغيرهم تذيل قرار الاحتجاج ، وتعارض سياسة الحكومة ازاء السود .

وهنا أحسست بثورة عارمة تجتاح كل كيانى ، ذلك لأن هؤلاء السـود الذين يتعرضون لهذا الظلم والاضـطهاد ، ليسوا الا أبناء عمومتنا وخؤولتنا فى العائلة الأفريقية الكبيرة .

وعندما قرأت تعليق رئيس تحرير هذه المجلة الانجليزية اعجبنى قوله : « ان حكومة جنوب أفريقيا تكاد تكون الحكومة

الوحيدة فى العالم التى تطبق سياسة التمييز العنصرى بهذه الصورة ، فحتى بعض الحكومات التى كانت الى عهد قريب تتبع هـذه السياسـة ـ كالولايات المتحدة مثلا ـ تحاول اليوم أن تتجنب تطبيقها بصفة رسمية داخل بلادها » ، ثم ختم المعلق حديثه بقوله : « ان حكومة جنوب أفريقيا تعمل اليوم على ارجاع عقارب الساعة الى الوراء ! » ..

وقلبت صفحات المجلة فرأيت صورة لعدد من **رجال البوليس البيض فى احدى مدن جنوب أفريقيا وهم يرغمون السود على الانتقال من منازلهم ، وفى الصورة ـ أيضا ـ منظر لأحد ضباطهم وهو يحمل امرأة أفريقية ـ تحتج على هذه المعاملة ـ ليضعها فى احدى عربات اللورى ، كما لو كانت حيوانا فى طريقه الى المذبح !**

وقرأت تحت الصورة هـذه العبارة الساخرة : « ما نوع المستقبل الذى تنتظره مثل هـذه المرأة ؟ ! » .. وحينئذ شعرت بأن سحابة كثيفة تحجب الرؤية عن عينى ، فألقيت المجلة الى جوارى ، وأخرجت علبة السجائر ، وبأصابعى المرتعشة من الثورة التى كانت تغلى فى أعماقى ، أشعلت احدى لفائف التبغ ، ونهضت متجها الى شرفتى ، ورحت أنظر الى الأفق اللانهائى الممتد أمامى ، وأفكر فيما يجب على أن أعمله فى هذا الموقف . ثم أخذت أذرع الشرفة بخطوات ثقيلة تشبه دقات الطبول الرتيبة ، وأنا استعرض فى خاطرى صورة لأشجار القطن فى حقول (ساجريسيا) ، وقد كست سطح الأرض بلون لوزاتها البيضاء ، ثم كابوس الليالى الحزينة التى أعقبت مصرع جريتا ..

بين سياسة العنف .. وسياسة السلام

وفكرت فى أن أسرى عن نفسى بالكتابة الى صديقى

« صامويل » ، أعرض عليه المقترحات التى أتخذت بشأنها موقفا معينا ، فيما بينى وبين نفسى ، قوامه أن أكرس كل حياتى وجهودى لخدمة القضية السياسية فى (ساجريسيا) أولا ، ثم فى أفريقيا كلها بعد ذلك . ولكن ما الوسيلة التى سأنفذ بها خططى ومشروعاتى .. هل الجأ الى أسلوب التدمير والعنف ، أم أتبع سياسة البناء والسلام ؟

وأخيرا ، وبعد أن قلبت نتائج الأمور على ضوء هاتين الوسيلتين ، وجدت أن من الخير لبلادى أن أكون فى كفاحى رجل بناء وسلام ، اذ قررت أن أعطى الفرصة لكل طفل أفريقى كى يؤكد وجوده ، ويحدث ثقله فى كفتى ميزان وطنه . **وقررت كذلك أن أمحو خرافة سمو الجنس الأبيض على الجنس الأسود وتميزه عنه ، ووضعت لنفسى شعارا ، التزمته فى كل خطوة من خطواتى ، وهو : « انكار الذات والتضحية من أجل الآخرين مهما كلفنى ذلك من ثمن » !**

وكان الهدف الاكبر بعد ذلك أن أستبدل تعاليم الغرب التى جاءت بها الدول الاستعمارية الى بلادنا ، بنظام الاسلام الذى وفد الينا من الشرق .. وكان الصراع عنيفا وقاسيا بحق . وكتبت الى صامويل أحثه على التعجيل بالعودة ، كى نعمل سويا على انشاء حزب سياسى ، من شأنه أن يحقق أفكارنا .

شغل الفراغ العاطفى

ووجدت بعد ذلك أننى فى حاجة الى من يشغل الركن العاطفى فى حياتى ، فعزمت على الزواج ، وذهبت الى قريتى أطلب من والدى أن يبحث لى عن فتاة مناسبة فى (لوكو) . وكم كانت دهشة الجميع عظيمة اذ رأوا شابا أفريقيا ، تلقى تعليمه العالى فى أوربا ، يتمسك بتقاليد بلاده القديمة الى

هذا الحد ! .. لقد ألفوا دائما أن يروا الكثيرين من أبناء أفريقيا الذين يرحلون لطلب العلم فى أوربا ، يعودون وفى صحبتهم زوجات أجنبيات . ولكننى كنت زعيما لمدرسة — أو كنت أريد أن أكون كذلك — تطالب بوضع « فرملة » لسرعة الانغماس فى كل عادات الغرب وتقاليده .

وعكفت بعد هذا على دراسة كل ما يتعلق بأفريقيا ، واختلطت بالناس فى كل مكان ، **وخلعت الملابس الافرنجية لأرتدى الاثواب الافريقية الفضفاضة ، وحرصت على أن أبدو كذلك أمام الناس فى كل رحلاتى . ولم أكن أتحدث باللغة الانجليزية الا عندما لا يكون هناك مناص من أن أفعل ذلك** . . وأخيرا ، وبعد طول ترقب وتلهف ، تلقيت رد صديقى صامويل بالموافقة على كل ما اقترحته عليه ، مع وعد منه بالحضور حالا . فشعرت بالفرحة تجتاحنى لأن بناء الفكرة قد أخذ يعلو ويتشامخ .

صامويل يلحق بى

وفى اليوم الذى حدده للوصول ذهبت لاستقباله ، فلمحت فى وجهه مظاهر التحمس والتصميم . وفى اليوم التالى لوصوله بدأنا العمل ، بعد أن وضعنا شعارنا الذى سيحدد اتجاه حركتنا ، فكان : « الاتحاد فورا ، والحكم الذاتى فى خلال خمس سنوات » . ثم أخذنا نوالى اصدار النشرات الدورية التى نشرح فيها للجماهير سياستنا وأهدافنا ، وأعلنا عن مشروع تأسيس الحزب الجديد الذى التزمنا بانشائه كنواة لميدان التجمع الكفاحى ، وظللنا نلتقى كل يوم حتى تمكنا فى فترة وجيزة من ابراز فكرة الحزب الى حيز الوجود ، ونظمنا حملة دعائية لنشر أهداف الحزب وبرنامجه ،

والحق أن مساعدة صاموبل الايجابية كانت عاملا هاما وكبيرا فى نجاحنا السياسى فيما بعد . فقد انضم الى الحزب عدد كبير جدا من مختلف أنحاء البلاد ، وكانت الاشتراكات التى كنا نجمعها كفيلة بأن تساعد الحزب على مواصلة نشاطه ، فقررنا نشر التعليم كجزء أساسى من حركتنا ، واعتمدنا فى ذلك على مساهمة أعضاء الحزب وجهودهم .

شريكة حياتى

وأرسل لى والدى خطابا يخبرنى فيه بأن كل الاجراءات الخاصة بزواجى قد تمت ، أما عن الفتاة التى وقع اختيار أهلى عليها لكى تكون شريكة حياتى فى المستقبل ، فهى فتاة سبق لى أن تعرفت عليها من قبل معرفة خاطفة حين كنت فى (لوكو) ، تنتمى الى أسرة طيبة من الاسر العريقة فى قريتى . وكانت على جانب لا بأس به من الجمال .

وفيما كنت أسير الى منزل والدى مساء يوم الجمعة ، أحسست بقلبى ينبض فى حركة مضطربة غير عادية ، وأدركت يومها أن السبب المباشر كان شعورى بأننى على أعتاب حياة جديدة أواجهها لأول مرة ، وأننى سأعاشر فتاة لا أعرف عنها الشىء الكثير ، اختارها الغير لى ، وهو تقليد يختلف تماما عما يفعله الاوربيون فى مثل هذه الحالات . اذ أن عملية الزواج تتم فى أوربا على أسس مادية بحتة . فللزوج شروط وللزوجة كذلك شروط ، أما الزواج لدينا نحن معشر الافريقيين فانه يعتمد أساسا على الارتباط الروحى . فالعروس تهب زوجها كل روحها وكذلك يفعل الزوج بدوره ، وهذا هو سر دوام العلاقة بين العروسين .

اختيارى زعيما للحزب

على أن الحزب سرعان ما تشكل ، وأجمع الناس على اختيارى رئيسا ، مما زاد فى احساسي بالمسئولية .. غير أن الحكومة أحست ـ بدورها ـ بخطورة عملنا ، فألقت القبض على صامويل ـ زميلى فى الكفاح ـ ثم ألقت القبض أيضا ، بعد فترة ، على زوجتى « فاطمة » . لكننى لم أيأس من مواصلة الكفاح ، فقد ازددت اصرارا وعزما على النضال ، غير ملق بالا الى ما قد يعترض سبيلى من متاعب .

وأتيح لى أن أزور جنوب أفريقيا ، وتذكرت عند ذلك قصة جريتا ومصرعها ، ومناوأة فردريك لأفكارنا .. **ورحت أفكر فى فردريك راغبا فى الالتقاء به ، حتى أنتقم منه ، عقابا له على قتله جريتا ، التى كانت تعطف على السود ، ولا تؤمن بسياسة التميز العنصرى** . وكنت أعتقد أن هذا الاجراء من جانبى بالنسبة لقضية جريتا جزء هام من رسالتى التى جئت من أجلها الى جنوب أفريقيا !

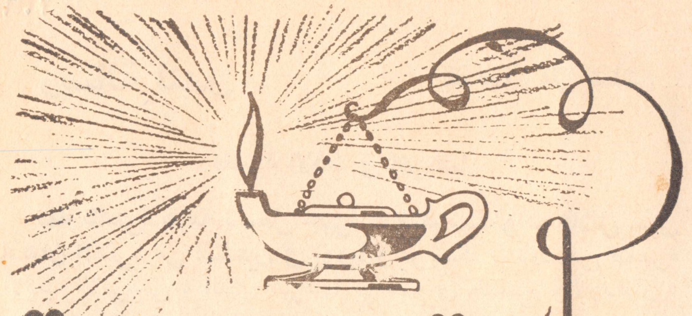
انسانية الافريقى تغلب روح الانتقام !

وأخذت أبحث عن فردريك فى كل مكان حتى عرفت أخيرا أنه يتردد على أحد الأندية . ورأيت أن أسلم طريقة للاقتصاص منه هى أن أعمل فراشا فى هذا النادى ، وبذلك تتاح لى فرصة تنفيذ ما عزمت عليه ! .. وحين كنت أقدم كؤوس الويسكى لفردريك باعتباره أحد أعضاء النادى ، اذا به يصرخ فى وجه السكرتير المسئول عن الادارة متوعدا : « ألم أقل لك أننى أكره هؤلاء السود ، ولا أحب ان أرى واحدا منهم يعمل هنا ؟ » .. وهنا أحسست بالرثاء مرة أخرى لهذا المسكين الذى جرد نفسه من كل شعور بالانسانية !

وفى منتصف الليل خرج ثملا ، تلعب الخمر برأسه ، لا يدري الى أين يمضي ، فتبعته .. وكانت الليلة شديدة البرودة ، والأمطار تهطل بغزارة وعنف . وبعد قليل ، حاول أن يسرع الخطى ، على غير هدى ، فاصطدم بحجر كبير كان يعترض طريقه ، ووقع مغشيا عليه ، **وكادت الأمطار أن تدفنه تحت سيولها المنهمرة ، لتتولى هى عملية الانتقام بدلا منى ، فتوقفت كتمثال من حجر ، لا روح فيه ولا حركة ، وأحسست بعاملين يتصارعان فى أعماقى : عامل الانتقام الذى يدفعنى الى القضاء على هذا الوغد الذى قتل جريتا ، وعامل الرحمة التى تعيش داخل قلوبنا نحن الأفريقيين ، وايماننا بكرامة الانسان من حيث هو انسان .**

وأخيراً – وبدون أن أعى – وجدتنى أنحنى على هذه الجثة وأحملها بين يدى ، ثم أسير بها حتى وصلت الى المنزل الذى عرفت أن فردريك يقيم فيه ، حيث ألقيت به هناك ، وعدت وأنا أشعر بدفء الراحة النفسية . فالشيطان لم يستطع أن ينتصر على ارادة الخير عندى .

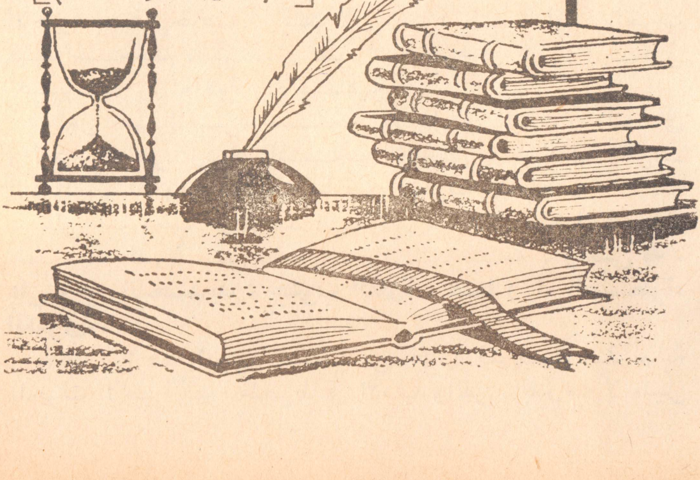
وقلت لنفسى : **لو يعلم الناس أننا جميعا أبناء الله ، وأن التفرقة التى يصطنعوها لخلق حواجز واهية ، ليست الا مظهراً من مظاهر سيطرة الشيطان على الانسان وتمكنه منه .. لو يعلم الناس مثل هذه الحقائق الخالدة لما تطاحنوا ، وتشاحنوا ، وتحاربوا !**



كتب جديدة

من الغرب والشرق

[عرض لأحدث الكتب
أخبار الحركة الأدبية فى العالم]



رسالة لندن

يقدمها : على شلش

قضية الأدب فى أفريقيا

ثمة ظاهرة هامة تشغل حيزا - منذ سنوات قلائل - فى أذهان الكثرة من المثقفين فى أوربا وأمريكا . تلك هى ظاهرة الأدب الافريقى ، الذى شرعت براعمه فى التفتح والازدهار ، فى أعقاب الحرب العالمية الاخيرة بصفة خاصة .

ذلك أن دور النشر الانجليزية - وبالمثل فى فرنسا وأمريكا وروسيا - قد اهتمت بما ينتجه أبناء أفريقيا من أدب وفن ، وراحت تلح عليه ، وتهتم بنشره واذاعته ..

لكن : ما قصة هذا الأدب ؟ أو بالأحرى ما قصة هذه الظاهرة ، التى شغلت الاذهان فى السنوات الاخيرة ؟

أن المتتبع لتاريخ القارة الافريقية ، لا بد أن يصل الى ادراك حقيقة التطور الهائل ، الذى شملها فى أعقاب الحرب الاخيرة بصفة خاصة . ذلك لأن الفترة التالية لهذه الحرب قد سجلت للأفريقيين تطورات باهرة فى شتى الميادين السياسية والثقافية والاجتماعية ..

ولعل أهم ظاهرة تستحق التأمل فى الميدان الثقافى والفكرى ، هى ازدياد النشاط الابداعى - من أدب وفن - ازديادا لم تشهده سنوات ما قبل الحرب الثانية .

على أننا يجب أن نحدد - بداءة - ميدان هذا النشاط الجديد الذى انبثق داخل القارة الشاسعة . **ونعنى به : على وجه التحديد ، جنوب القارة ، فيما وراء الصحراء الكبرى .**

ذلك لأن هذا الجزء الضخم من القارة قد شهد منذ نهاية الحرب الأخيرة نموا ملحوظا فى الأدب والفن ، بدرجة لا مثيل

لها ، خلال النصف الاول من هذا القرن بأكمله . كذلك لأن هذا الجزء – أيضا – لم نعرفه نحن ، قراء العربية ، معرفة حقيقية ، مثلما عرفنا الجزء الشمالى من القارة ، الذى يكتب ويفكر بالعربية فى الغالب . ومن جهة ثالثة ينبع اهتمامنا به ، دفعا لمغالطة خطيرة ، ألح عليها المستعمرون كثيرا ، كى يفصلوا بين شمال القارة وجنوبها . اذ نجد مصطلحا خاصا لدى الاوربيين ، وضع – فى الغالب – لدعم هذه التفرقة الخطيرة .

فهم حين يتحدثون عن الأدب الافريقى يقصدون به – على وجه التحديد – أدب الاقطار الافريقية الواقعة جنوب الصحراء الكبرى . ثم يتبعون ذلك بمصطلح آخر أطلقوا عليه أدب **الكتاب السود** Negro Writers وتلك فى الواقع مغالطة خطيرة ، يجب أن ندفعها عن القارة حين نتناول أدبها . ذلك لأننا نجد – حسب تحديدهم هذا – أن الادب الذى ينتج فى ليبيا ، أو الاقليم المصرى ، أو السودان ، أو الجزائر وغيرها من الاقطار الافريقية ، التى تكتب وتفكر بالعربية منذ مئات السنين .. **هذا الادب ليس أفريقيا ، ومن ثم يعزلونه عن القارة ، حين يتناولون أدبها !**

ومع ذلك نجد مهمتنا ازاء تعريف الناطقين بالضاد بهذا الادب ، مهمة على جانب كبير من الاهمية والضرورة

فالحق أن أفريقيا ، فيما عدا الاقطار الشمالية منها ، قد عاشت طويلا مجهولة بالنسبة لهذه الاقطار . ولم نكن – من قبل – نعرف هذا الادب الا عن طريق مايكتبه الاوربيون عنها .

وتنقسم هذه الكتابات الاوربية الى قسمين . أولهما يتخذ القارة مسرحا وميدانا له ، كما فعل الكثيرون من أمثال دكتور جونسون وفورستر وجويس كارى وهمنجواى من الناطقين بالانجليزية ، أو هيجو وألفونس دوديه وبيير لوتى وألبير كامى

فى الأدب الفرنسى ، وكذلك تاجور فى الادب الهندى . فكل هؤلاء قد اتخذوا القارة مسرحا لأعمالهم المنظومة والمنثورة على السواء .

أما القسم الثانى من هذه الكتابات فقد عالجه الأوربيون والأمريكيون أيضا ، خلال النصف الاول من القرن الحالى . حين راحوا يسجلون القصص والاغانى الشعبية ، التى يتداولها الأفريقيون فى أسمارهم وحياتهم اليومية . ومن الطبيعى هنا أن نجد ، فى الكثير من هذه الكتابات مغالطات وأخطاء ، مقصودة أو غير مقصودة .

ولقد عاشت قارتنا – وبخاصة الجزء الجنوبى منها – وهى لا تكاد تعرف الكلمة المكتوبة ، أو الأدب المكتوب . وانما انصب كل نشاط الاهالى الابداعى على الشفاه ، تنقله من مكان لآخر ، أغان وأنغاما وحكايات .

ورغم قلة الموجود باليد من هذه الحصيلة الضخمة المتناثرة عبر الادغال والرمال ، الا أننا نلمس فيها أصالة ، ورباط دم يربط كل هذه النماذج بمثيلات لها عندنا نحن الذين فصلتنا عنها تاريخ طويل من السيطرة الاستعمارية ، مما يؤكد ، لدينا ، صلة الشعوب الأفريقية ، على اختلاف نحلها وأجناسها . وهى صلة أشد ما تكون نصاعة ووضوحا فى القصص والاغانى الشعبية ، التى تتداول ابتداء من القاهرة فى أقصى الشمال الى كيب تاون فى أدنى الجنوب . **وليس يفصل قصة عن أخرى ، أو أغنية عن أخرى ، الا اختلاف الأسماء والأزياء . وليس يفصل مثلا شعبيا عن آخر ، الا اختلاف اللغة المكتوب بها هذا المثل أو ذاك .**

نعود بعد هذا الى أهم ظاهرة ألمحنا اليها فى بداية هذا الحديث ، وهى ظاهرة اطراد الأدب المكتوب ونموه فى أقطار عديدة من القارة . تبدأ من مدغشقر وكينيا فى الشرق وتصل

الى الكميرون والسنغال فى الغرب ، ومن الروديسيات فى الوسط الى أدنى الجنوب .

وقد بدأ هذا النمو ـ كما قلنا ـ فى أعقاب الحرب الثانية . لكنه اتخذ شكلا غريبا الى حد ما ، مما يؤكد لنا بشاعة الطرق الاستعمارية فى تنظيم ثقافة المستعمرات . اذ فرضت الدول الاستعمارية لغاتها ، وحاربت اللغات القومية فى القارة . ونشأ عن هذا الوضع الخطير ـ الذى تعانيه الجزائر أيضا فى الشمال ـ أن اتجه الكتاب الى التعبير بواسطة اللغات الأجنبية ، وعلى رأسها الفرنسية والانجليزية .

وعرفت أوربا وأمريكا هذه الألوان الجديدة من الأدب عن طريق لغاتها هى . وكذلك عن طريق المؤتمرات الثقافية ، التى عقدها الكتاب والفنانون الأفريقيون فى روما وباريس ولندن ، خلال سنوات متتالية ، كان أقربها فى العام الماضى .

والحق أن هذه المؤتمرات قد كشفت عن خبث الوسائل الاستعمارية فى محاربة الآداب القومية للقارة .

والملاحظ فى هذا الانتاج المتنوع من قصة الى قصيدة الى مسرحية ، أنه يحتفل بقضايا القارة احتفالا كبيرا ، ويلح على تفهم الواقع الأفريقى وتصويره ، والكشف عن أعماقه ، التى لا يزال بها أثر من الرواسب التى بثها الاستعمار عبر تاريخه الطويل فى القارة .

وماذا عن الشعر فى أفريقيا ؟ ..

انه يشكل جانبا حيويا من جوانب الحياة اليومية لسكانها الذين يزيدون على مائتى مليون نسمة . وهو مرتبط أشد الارتباط بأصالة هؤلاء السكان ، وقوة احساسهم بضرورة النغم فى تشكيل حياتهم . فالمرء ـ كما يقول أحد كتاب غانا ـ يسمع موسيقى حيثما ذهب : اذ يجد الأم تغنى حين تجلب الماء من البئر ، أو حين تطحن الاذرة ، أو حين تهدهد

طفلها . كذلك يجد المرء البائع الجائل يستعين بالاغنية لجذب انتباه زبائنه . كما يمارس الرجال الموسيقى بأنفسهم فى الحانات ، أو ينصتون اليها ، وهى تتسلل من الآلات الموسيقية التى يحملها الموسيقيون الجائلون .

فاذا أضفنا الى ذلك ما نعرفه عن القبائل الكثيره من استخدام الطبول فى تبادل الرسائل واذاعة الأخبار ، وكذلك الأغانى الجماعية التى تؤدى استجلابا للمطر أو الخير ، وما يصدر عن الغابة وجداول الماء من حفيف ، وهسهسات ، وخرير منظم موقع ، اذا أضفنا هذا كله لتحققنا من أن الأنغام تمتزج بالطبيعة والانسان ، وتحل فيهما . كلما توغلنا فى القارة .

ولئن كان ذلك هو حظ الشعر فى قارتنا ، فما بالنا بالنثر ؟ .. طبيعى أن يتأخر النثر فى بلاد لم تعرف الكلمة المكتوبة الا حديثا ، ومع ذلك فقد أتاحت لنا دور النشر الاوربية الاطلاع على ألوان من القصة والرواية ، ذات طعم خاص ، لا تجده فى أى من الآداب الاخرى .

على أننا يجب أن نفرق ــ بادىء ذى بدء ــ بين نوعين مختلفين من الكتابة القصصية : أولهما هو النوع الشعبى ، أى الحكاية التى لا تنتمى الى مؤلف معين ، ويكون القصد من تأليفها ابراز قيمة ، أو حكمة ، أو متعة ، الى غير ذلك مما تتقبله الأسمار . وهذه الحكايات ــ أيضا ــ تؤلف لكى تسمع ، أى أن ينصت اليها جمع ، أو عدد من الافراد . وهى ــ لهذا ــ تختلف اختلافا كبيرا عن القصة المكتوبة بأشكالها الحديثة .

ولقارتنا رصيد ضخم من الحكايات والأقاصيص الشعبية وهو رصيد عريق ، يعادل ــ كما يقول بعض الدارسين ــ التراث الكلاسيكى بالنسبة للآداب الأوربية . وهذا الرصيد

يتخذ مادته — فى الغالب — من الطبيعة ومكوناتها ، وتتناقله الاجيال ، واجدة فيه متعة وتسلية .

ولقد ظل الاهتمام بجمع هذه القصص الشعبية وتسجيلها مقصورا على الأقطار التى تحضرت ، واتصلت بالحضارة الغربية . كما هو الحال فى أقطار كالسودان والاقليم المصرى وشمال القارة .

أما فيما وراء الصحراء الكبرى ، فقد ظلت هذه الحصيلة حبيسة على شفاه الرواة الى عهد قريب ، عندما اهتم الاوربيون بجمعها وتسجيلها من بيئاتها المختلفة . بقصد الاستفادة منها فى العلوم الحديثة ، وعلى الأخص علم الانثروبولوجيا (علم وظائف الانسان) .

ووصلت الينا هذه القصص والحكايات الشعبية فى النهاية مجمعة — بعد تسجيلها — فى مجموعات باللغات الاوربية ، ومنقولة عن لغات وطنية ، كالحوصا واللغة السواحلية .

ولقد فطن الكتاب الافريقيون المحدثون الى أهمية هذا التراث الشعبى . اذ أكدوا فى مؤتمرهم بروما عام ١٩٥٩ على أهمية جمعه وتنسيقه . كما شرعوا — بالفعل — فى الاستفادة منه . ففى نيجيريا قاص شاب يسمى **آموس توتولا** ، ألح كثيرا على القصص والاساطير الشعبية ، وأعاد كتابة بعضها من جديد ، كما غير فى دلالات البعض الآخر ، لدرجة أن أحد النقاد الروس وصف أعماله بأنها ((**تطوير للأسطورة البطولية**)) ذات الموضوع الواحد .

أما النوع الثانى من الكتابة القصصية ، فهو النوع الحديث المكتوب . وينقسم بدوره الى رواية وقصة وأقصوصة . وهذه الالوان — بشكلها الحديث — تعتبر حديثة النشأة فى كثير من أقطار القارة .

غير أن المتتبع للحركة الأدبية في هذه الأقطار الواقعة جنوب الصحراء ، يجد فى السنوات الاخيرة اهتماما كبيرا بالقصة والرواية والأقصوصة . كما يلحظ أن هذه الحركة تبرز فى أقطار مثل الكميرون والسنغال ونيجيريا وغانا وغرب أفريقيا ، وتقل فى أقطار أخرى كفينيا وكينيا والصومال واتحاد الجنوب .

ومن بين الكتاب الذين لمعوا فى السنوات الأخيرة كاتب شاب من الكميرون اسمه **مونجو بوتو** . وقد نجح فى تصوير مجتمعه والأخطار المحدقة به . ففى روايته : ((**يسوع يومبا الفقير**)) تناول موضوع ارساليات التبشير ، ونقد فكرتها نقداً عنيفا ، رغم أنه تعلم فى احداها . وفى روايته الأخرى : ((**رسالة مكتملة**)) عالج موضوع التقاليد القديمة واصطدامها بالأفكار والمعتقدات الحديثة .

وفى الكميرون أيضا جيل كامل من الكتاب ، يقف على رأسه — الى جوار مونجو بوتو — كتاب شبان آخرون من أمثال فرديناند أيونو وبنيامين ماتيب . كما نجد فى السنغال عبد الله سادجى وعثمان سمبين . وفى نيجريا **آموس توتولا وشنوا أشيب** ، وفى الغرب **وليام كونتون ، الذى أثار اعجاب الدوائر الأدبية الانجليزية بروايته الأخيرة : ((الأفريقى)) ، التى نقدمها لك فى هذا العدد .**

وفى المسرح أيضا نجد حركة ناشئة نشطة ، لكنها لا تعادل حركة القصة والرواية ..

غير أن أهم مشكلة تواجه الكتاب الافريقيين الآن ، هى مشكلة استخدام اللغات الوطنية فى التعبير الأدبى ، بدلا من الانجليزية أو الفرنسية ..

ان نمو النشاط الأدبى المكتوب وازدياده ، فيما وراء الصحراء الكبرى ، يؤكد ايمان هذا الجزء الضخم من القارة

بالكلمة المكتوبة ، وضرورتها فى معركة التحرر التى تخوضها أقطار كثيرة فى الوسط والجنوب ، **كما يؤكد وحدة الوسائل والغايات بين الشمال والجنوب ، بين الشمال المتحضر والجنوب الذى شرع فى الأخذ بأسباب الحضارة والمدنية .**

رائعة الأدب التركى المعاصر

صدرت عن دار كولينز وهارفيل ترجمة لرواية : « صفرى محمد » ، للروائى التركى المعاصر **ياشار كمال** ، فى ٣٥١ صفحة ، وقد قام بترجمتها الى الانجليزية ادوارد روديتى ، الذى عاش فترة من حياته فى تركيا .

وياشار هو أكبر روائى تركى معاصر . وقد نال جائزة الدولة للأدب فى بلاده على روايته هذه ، التى بيع منها — منذ ظهورها فى عام ١٩٥٨ الى الآن — أكثر من ٣٥ ألف نسخة ، رغم أن معدل الامية فى تركيا يصل الى ٩٨٪ كما يقول معلق « التايمز » الأدبى !

ورواية : صفرى محمد — وهى الرواية الاولى له — تدور أحداثها فى قرية تركية صغيرة ، حيث تعيش أرملة فقيرة مع ابنها الوحيد محمد ..

وينشأ الفتى فى جو قاس ، تزيده حدة سطوة اقطاعى ، يسيطر على القرية وخمس أخرى من القرى المجاورة .. ولا يلبث محمد أن يضيق بالحياة فى القرية ، فيفر منها وقد ازداد بغضا للأغا الاقطاعى . **(فى تركيا يطلقون لقب أغا على كل رجل ثرى)** لكنه يصمم — فى الوقت نفسه — على الانتقام من الأغا ، وتحرير الفلاحين من سطوته ..

غير أن البوليس يشرع فى مطاردته ، ولا يلبث أن يقع فى قبضته . لكنه ينجح ذات ليلة فى الفرار ، وبصحبته محبوبته هاتشيه ، التى كان ابن عم الأغا قد خطبها الى نفسه ..

وتستمر المطاردة ، الى أن ينجح البوليس فى القبض على هاتشيه . فيزج بها فى السجن .. ويضطر محمد الى الانضمام لعصابة من قطاع الطرق ، فيجد فيهم رفقاء طيبين .. **وتذيع شهرته ، ويغدو مثل روبين هود فى العصور الوسطى . فهو لا يقتل أو يسلب لمجرد اشباع رغبة فى نفسه** ، وانما هو يسلك سبيلا . رأى أنها من الممكن أن تخلص الفلاحين المساكين من العبودية والسخرة .

غير أنه يفشل فى قتل الأغا ، ثم ينجح بعد ذلك فى تخليص هاتشيه بمعاونة القرويين المعجبين ببطولته وشجاعته .

ويعود محمد بهاتشيه ، فيعيش معها فى مغارة سرية بأحد الجبال . لكن البوليس لا يكف عن مطاردته ، الى أن ينجح أخيرا فى قتل هاتشيه ..

ويجد محمد نفسه وحيدا بلا حبيب ، سوى طفل صغير كان قد رزق به من هاتشيه . ويعود مرة أخرى الى حياة العصابات ، وقد تملكته رغبة عارمة فى قتل الأغا بأى ثمن .

وفى النهاية ينجح فى الانتقام من الطاغية العجوز ، فيصفو الجو فى القرية ، ويتنفس الفلاحون الصعداء .

ان محمد نمط انسانى خارق : **يضحك وقت الشدة ، ويصوب الرصاص على ثقب الابرة ، فلا يعجز عن اصابته . لكنه أيضا على شيء من الحكمة والفلسفة** . ومن هذا نجد أن المؤلف قد قصد ، بتصويره لشخصية محمد ، أن يعكس روح تركيا الجديدة ، التى تكافح الاقطاع والتقاليد العقيمة الموروثة .

ولعل من أسباب ذيوع هذه الرواية ، واهتمام الدوائر الأدبية فى انجلترا بها ، هو هذه المشاهد العديدة ، الحافلة بصور الشخصيات الشعبية والجو الشعبى الخالص ، الذى يفوح فى كل صفحة من صفحاتها ..

رسالة نيويورك

يقدمها : على شلش

العبقرية الرقيقة التى أنجبتها الهند

سانتا راما رو فنانة هندية ، تشتغل بالصحافة والتأليف الروائى والمسرحى .. ولدت بمدينة مدراس . وكان أبوها يعمل فى السلك السياسى الهندى ، فأتاح لها ذلك زيارة عدد من أقطار أوربا وأمريكا وأفريقيا والاقامة فيها ، مما ساعدها على تنمية مواهبها الأدبية والفنية .

وفى سن الشباب التقت «سانتارأما» بشاعر بلادها العظيم رابندرا نات تاجور — وكان فى أواخر حياته آنذاك — فأعجبت به ، وتعلقت بأدبه وفنه ، واستطاعت أن تدرس شخصيته عن قرب ، فكان لها — من هذا وذاك — نصيب لا بأس به من معرفة قدره ، واقتدار طيب على التعريف به ، انسانا وفنانا .

وفى هذا الشهر الذى احتفل فيه العالم اجمع بالذكرى المئوية لميلاد شاعر الانسانية ، عهدت مجلة «الايف» الامريكية الى مواطنته سانتا راما بكتابة تحقيق شامل عن حياته وأدبه ، صدرته بهذا العنوان الذى جعلناه على رأس الكلام .

وقد رأيت — استكمالا لما قدمناه فى الصفحات الماضية من حديث عن حياة تاجور وأدبه — أن ننقل ، هنا ، أهم ماجاء بهذا التحقيق الجاد الطريف من آراء وزوايا جديدة ، تجلو ما قدمناه ، وتضيف اليه :

• منذ نحو ١٣٠ عاما سافر الى أوربا ثرى هندى من أثرياء البنغال . وكانت ترافقه حاشية مؤلفة من ٣٠ شخصا من الأصدقاء والخدم والطهاة ..

وزار الرجل انجلترا ، وحل ضيفا على الملكة فيكتوريا . ثم تابع رحلته الى فرنسا ، حيث استضافه الملك لويس

فيليب .. ومن طريف ما يروى عنه – فى رحلته تلك – أنه كان يهوى الشمبانيا ؛ ويفضلها على ما عداها من شراب . ومن ثم كانت تعبأ خصيصا له ! .. **كان الرجل يدعى الأمير دواركا نات ، ومع ذلك خلف بعد وفاته دينا يقدر بنحو ١٠ مليون روبية !**

• **وجاء** ابنه دبندرانات من بعده ، فلقب بالمهارشى (أى القديس) لانه كان بسيطا فى حياته ، زاهدا ..

وقد قام دبندرانات بتسديد ديون أبيه .. الأمير المسرف . واتبع فى ذلك خطة لم يحد عنها ؛ خلاصتها التقشف والامتناع عن الملذات والكماليات ..

وأنجب دبندرانات ولده الرابع عشر – وهو أصغر اولاده – رابندرانات منذ ١٠٠ سنة .

• **وهكذا** نشأ رابندرانات تاجور فى أسرة متقشفة بسيطة .. وقد كتب عن ذلك يقول :

« كنا نرتدى أبسط الملابس وأرقها . وقد مضى علينا حين من الدهر قبل أن نشرع فى ارتداء الجوارب . وكان من الكماليات ، بالنسبة لنا ، أن تحتوى جراياتنا من الطعام على رغيف من الخبز وقطعة من الزبد ملفوفة فى ورقة موز !! »

على أن أسرة تاجور لم تكن – مع هذا – لتضن على أفرادها بالرعاية ، اذ كان يقوم على خدمة الاولاد وتربيتهم عدد كبير من الخدم والمعلمين . وكان يختلف الى دارهم الموسيقيون الجائلون من حين لآخر ، فيقيمون بالدار أياما ، ثم يرحلون .

يقول تاجور مصورا علاقته بأحد هؤلاء الموسيقيين :

« اعتدت فى الفجر أن أنزع عنه ناموسيته ، لأرغمه على أن يغنى لى » ..

وكثيرا ما كان أطفال الدار — بما فيهم تاجور — يلعبون بالدمى. ويمثلون أدوارا ساذجة ، يقتبسونها من المسرحيات . لكنهم كانوا ممنوعين من اجتياز البوابة الحديدية الكبيرة التى تنتصب أمام فناء الدار ..

• **نظم** تاجور الشعر فى سن الثانية عشرة أو الثالثة عشرة على وجه التقريب . **وأطلع أبوه على شعره ، فأعجب به ، ومنحه — عند ذاك — مكافأة قدرها ٥٠٠ روبية .**

وفى عامه الثانى والعشرين أصدر أول ديوان شعرى جدى بعنوان : « أغانى الصباح » .. وفى ذات السنة تزوج من فتاة فى الثانية عشرة من عمرها ..

وهو لم يكن من الشعراء الذين يمتنع عنهم شيطان الشعر اذا امتنعوا — بدورهم — عن تهيئة الجو له . فقد كان يكتب الشعر وينظمه فى أى وقت ، وفى أى مكان ، بلا قيد أو شرط . يقول أنيل تشاندار الذى رافقه سنوات طويلة :

« لقد شاهدته يكتب أعظم القصائد ، وهو جالس فى استراحة محطة قطار ! »

وقد كان الشعر والموسيقى يشكلان لديه شيئا مرنا ، قابلا للتحسين والتغيير . ولم يكن يهمه فى ذلك أن يكون العمل قد طبع أو نشر أم لا . لدرجة أن سكرتيره قد احتج عليه يوما بقوله :

« لكنك لا تستطيع أن تغير تلك القصيدة .. ان آلافا من تلاميذ المدارس قد حفظوها عن ظهر قلب ! » . فأجابه تاجور — باحتداد — قائلا : **« ومن علمهم أن الشعر شكل ميت جاف ؟ ! » .**

• **تذكر** ابنته الكبرى أنه كان يحب الشيكولاتة والموز ، وأنه كان يستيقظ مبكرا فى الفجر ، فيتناول افطاره المكون من اللبن المحفوظ والخبز ، وأنه كان يحب الاطفال حبا جما فلا يسرى الضيق الى نفسه اذا ما تجمعوا حوله ـ كما كان يحدث فى الغالب ـ وحالوا بينه وبين الحركة .

• **كان** عليه ذات مرة أن يقوم برحلة الى كالكوتا .. وتمت ترتيبات السفر ، وجىء بالتذاكر ، واستعدت الحاشية لركوب القطار ، فاذا بتاجور يلاحظ ـ فى طريقه الى المحطة ـ أن الشمس تبدو مشرقة بديعة على غير العادة . وعند ذاك تساءل فجأة : « لماذا ترغموننى على السفر الى كالكوتا ؟ » **ثم أصر على العودة الى شانتينكيتان ، لكى يتأمل الشمس فى هدوء !**

• **كان** يحتقر المال ، وينفق كل ما ملكته يداه .

• **ألف** كتابا فى الطبيعيات فى سن الخامسة والسبعين .

• **لم** يدخن قط .

• **يجد** الزائر لمتحف تاجور الملحق بشانتيكيتان ، كل ما خلفه الشاعر العظيم : صوره ، رسومه ، آخر ما خطه قلمه من رسائل ، الكتب التى تلقاها من «البرت شفايتزر» ، النعلين اللذ ن كان يستخدمهما فى آخر أيامه ، المدالية الذهبية لجائزة نوبل ، مكتبه ، قلمه .. و .. وأشياء أخرى لا حصر لها ، توحى للزائر ـ فى النهاية ـ بأن صاحبها قد استمتع بحياته غاية الاستمتاع !

من الكتب العربية

شجرة الحضارة

عرض وتعليق بقلم : ثروت أباظة

كتاب جليل لعالم أمريكى معروف هو الدكتور « **رالف لنتون** » ، نقله الى العربية **الدكتور أحمد فخرى** . وقد قال المترجم فى مقدمته انه لو شاء أن يختار عنوانا آخر غير شجرة الحضارة لاختار « قصة الانسان منذ فجر ماقبل الحضارة » . وأعتقد أن هذا العنوان يعطى فكرة واضحة عن هذا الكتاب الكبير .

وقد تناول الكاتب البحوث مستقصيا الحضارات العالمية الكبرى فسار مع الانسان حتى أصبح مجتمعا ، ثم ألقى أضواءه على الحضارات فى مختلف منابتها . كما دار المؤلف بأنحاء العالم ، لم يفلت من بين يديه خيط كان لا بد له أن يتقصاه ، ولم يغفل ظاهرة انسانية كان لها أدنى أثر فى تطور حياة الانسان . ولا عجب فالمؤلف توج حياته الطويلة فى خدمة العلم بهذا الكتاب العظيم . فهذا الكتاب وليد خبرة أربعين عاما قضاها الدكتور لنتون فى دراسة الانتروبولوجية — « علم وصف الانسان » — « والأثنولوجيا » (علم الآثار وعلم أصول السلالات البشرية) . وقد بسط المؤلف علمه الذى توافر له على مدى هذه السنين الطويلة ، ولم يكتف بهذا بل مد نظره الدقيق العالم الى ما كتبه العلماء الآخرون ، ثم ألقى بعد ذلك بنظرته الخاصة حول ما تناوله من موضوعات ، وهى نظرة عمقها المراس الطويل والدربة البارعة على الاستاذية والصدق .

والكتاب يقع فى أجزاء ثلاثة من القطع الكبير ، ويتراوح

عدد صفحات كل جزء بين الثلاثمائة والخمسمائة . فالاحاطة به فى هذه العجالة أمر عسير . ولكنى أعتقد انه يعنينا خاصة من بين فصوله الكثيرة فصلان :

الفصل الأول عن **الحضارة المصرية** ، والثانى عن **الحضارة الاسلامية** . وقد كانت مؤسسة فرانكلين موفقة غاية التوفيق أن توسع لفضيلة الأستاذ الشيخ « محمد محمد المدنى » أستاذ الشريعة الاسلامية أن يعقب على ما جاء فى الكتاب عن الحضارة الاسلامية. فالذى لاشك فيه أن المراجع الاسلامية التى أتيحت للدكتور المؤلف غير كافية . وهذا امر يؤسفنا غاية الأسف قصور المجال فيه ، فان تقارب الثقافات بيننا وبين العالم كان يحتم على القائمين على شؤون التاريخ أن يكثروا من ترجمة المؤلفات الاسلامية حتى يجد أمثال هؤلاء العلماء من المراجع ما يهىء لهم الطريق الواضح يسيرون فى هديه الى الطريق الصحيح .

ونعود الى كتاب الحضارة وهذين الفصلين اللذين رأيت أنهما يتصلان بنا أكثر من غيرهما من فصول الكتاب . فنجد ان المؤلف لم يراع الترتيب الزمنى للحضارات . بل انني فى الواقع لم أتبين الترتيب الذى نهج عليه فى ذكر الحضارات . فهو قد ذكر الحضارة الاسلامية فى الفصل السابع والعشرين الواقع فى آخر الجزء الثانى من الكتاب بينما تناول الحضارة المصرية فى الفصل التاسع والعشرين الذى يقع فى الصفحات الأولى من الجزء الثالث . وأجدنى مضطرا أن أخالف المؤلف فى هذا الترتيب ..

الحضارة المصرية القديمة

كان المؤلف مشرفا من مرتفع على الحضارات ؛ فهو يبدأ حديثه عن الحضارة المصرية بقوله بعدمقدمة قصيرة : « فلقد اقترض الاغريق جيران مصر الآسيويون من حضارتها — دون

تحفظ أو خجل – الشيء الكثير . ولكنهم أخذوا ما استطاعوا رؤيته دون أن يكبدوا أنفسهم مشقة فهمه . وبالرغم من أن الحضارة المصرية قد استمدت جذورها من نفس المصدر الذى استمدت منه حضارات جنوب غربى آسيا فى العصر النيوليتى ، (وهى الحضارات التى كانت الأصل الذى تفرعت منه حضارات أوراسيا) ، فان الحضارة المصرية اتخذت فى تطورها سبيلا خاصا بها ، يشعر به الدارس الحديث كما شعر به من قبل الكتاب الكلاسيكيون الذين استطاعوا أن يلاحظوا المصريين فى حياتهم اليومية . **وقد ذكر ((هيرودوت)) أن المصريين من أغرب المخلوقات البشرية ، وأنهم كانوا يفعلون عكس ما يفعله الناس ، وأنهم ذهبوا فى ذلك الى أنهم كانوا يدخلون المنازل لقضاء الحاجة بدلا من أن يستخدموا الشارع لهذا الغرض كما يفعل المتحضرون ، أى الاغريق !!**

وبهذه اللمحة الهينة ينصف المؤلف المصريين من التقليد ، ثم هو فى ذكره لما أورده هيرودوت ، يبين كيف كان المصريون سباقين فى الحضارة وفى شعورهم بانسانيتهم . والمؤلف لا تفوته السخرية من هذه المقارنة التى عقدها هيرودوت بين المصريين وبين من كان يظنهم هيرودوت متحضرين !

وفى مكان آخر من الحديث عن الحضارة المصرية يصف المؤلف وادى النيل فيقول أن الخمسمائة الميل الأولى من وادى النيل ليست الا أخدودا لا يزيد اتساعه عن اثنى عشر ميلا ، أما فى المائة والخمسة والسبعين من الاميال التالية ، فان الوادى يصبح شبيها بمروحة منشورة تتخللها المستنقعات ويسير فيها النهر بطيئا فى فروع متعددة ، وتتبخر مياه الفيضان بسرعة ، وبالرغم من أن الوثائق المصرية القديمة قد ذكرت سقوط بعض الأمطار من آن لآخر فى مناطق لا تسقط فيها الأمطار فى الوقت الحاضر ، فان

الزراعة لا يمكن مزاولتها دون تنظيم للرى . وقد قامت فى مصر قبل فجر التاريخ الحكومات التى استطاعت تنظيم العمل الجماعى اللازم لحفر القنوات وبناء السدود ، والتى كانت تملك الحق فى تسوية المنازعات التى لا يمكن تفاديها حول حقوق الماء .

ويمضى المؤلف فى تناول **العادات المصرية** فى افاضة وصدق حتى يصل الى هذه المنطقة التى حار فيها المؤرخون جميعا : كيف استطاعت مصر ان تبلغ ذلك المدى المذهل من التقدم ؟ ويعترف المؤرخ الكبير بعجزه هو ايضا عن أن يدرك ذلك السر الكبير ، فنجده يقول : « وتميزت الفترة التى أعقبت توحيد شطرى مصر مباشرة بالتقدم الحضارى السريع ، اذ أن مصر كانت ما بين عام ٣٢٠٠ وعام ٢٥٦٠ ق . م . مركزا لاحدى القفزات الحضارية التى ما زالت معرفة أسبابها من المشاكل الرئيسية التى تواجه الباحثين فى تطور الحضارات » .

ويتناول المؤلف بتفصيل دقيق هذه الفقرة الحضارية التى حققتها مصر . ويقع هذا الفصل فيما يقرب من اربعين صفحة : أراها مغنية كل الغناء لمن يريد أن يتبين هذه العلامة الكبرى من علامات الحضارة فى تاريخ العالم .

الحضارة الاسلامية

وننتقل بعد ذلك الى الاسلام . . قد قدم المؤلف للحديث عن الاسلام بحديث عن العالم الذى ظهرت فيه الرسالة . والواقع أن المؤلف تناول البحث من الناحية العلمية الخالصة ، فاذا قدرنا قصور المراجع التى استطاع أن يرجع اليها ، الى جانب المراجع المغرضة التى هاجم بها الاسلام أعداؤه فى اللغات الأجنبية . واذا قدرنا ايضا أن الناحية العاطفية لم تكن ذات شأن فى البحث ـ بل لعل العاطفة ان تدخلت كانت فى الناحية المضادة للاسلام ! ـ اذا قدرنا هذا

جميعا استطعنا أن نقول في انصاف أن الرّجل لم يتجن فيما قال، أو انه على الأقل لم يقصد الى التجنى . بل لقد كان فى حديثه عن النبى « عليه الصلاة والسلام » يحيطه بكثير من التوقير العفيف ، البعيد عن الحقد .

فهو يقول عن نزول الوحى : « فعندما بلغ الاربعين من عمره بدأ يحس بعدم الرضا عن حياته الهادئة الرضية ، وكان يذهب الى كهف خارج مكة ليتفرغ للتأمل . وجاءه الوحى فى صورة أحلام وأصبح مقتنعا أن الله قد إختاره ليكون وسيلة لهداية الناس » .

وأعتقد أن هذا الأسلوب يعتبر غاية فى النزاهة من رجل لا يؤمن بالدين الحنيف .

واننى حين قرأت تعليقات فضيلة الشيخ محمد المدنى وجدت أغلبها يصحح وقائع تاريخية ، أو يبين مواضعات اجتماعية عربية لم يستطع المؤلف أن يتبينها فى المراجع الهزيلة التى بين يديه . والواقع أننى لم أجد بين التعليقات ما يمس العقيدة الا رد فضيلة الشيخ المدنى على المؤلف فى النص رقم ١٨ . وقد قال المؤلف فى هذا النص : « وبالرغم من أن محمدا لم يعش طويلا ليضع حدا نهائيا لكل ما استجد من مشاكل ، فانه وضع أسس عقيدة ونظام قانونى . أتمهما من جاءوا بعده ... ألخ . »

وقد أجاب الشيخ المدنى على ذلك بأن العقائد هى الحقائق الايمانية التى لا يكون المسلم مسلما الا بها ، كاعتقاد وحدانية الله ونبوة محمد والبعث والدار الآخرة . ورأى فضيلة الأستاذ أن هذه العقائد لا اختلاف فيها ولا يستطيع أحد أن يكملها . ثم تناول فى بحث مفصل الخلافات التى نشبت بعد وفاة الرسول (صلعم) وفرق بينها وبين هذه العقائد . ورأى أن المؤلف لم تقم فى ذهنه الفروق الواضحة بين العقيدة

الايمانية وبين الاحكام الأخرى التى اختلف حولها الفقهاء . ولعل الدارس للقانون يستطيع أن يدرك هذا الفارق مما عرفة عن الأحكام الآمرة التى لا سبيل الى تناولها بغير الطاعة ، وبين الأحكام المفسرة التى وضعت لتسهيل المعاملات ، والتى يستطيع المتعاملون ان يأخذوا بها أو يتفقوا على غيرها .

وعلى أى حال فقد وقف المترجم موقفا جليلا من هذا الفصل عن الحضارة الاسلامية ، فكان يسعف القارىء بالرأى الإسلامى فى هامش الصفحة فى تفصيل يدل على الايمان العميق والدراسة الوافية .

ولا شك أن الدكتور أحمد فخرى قد وفق فى هذا العمل الضخم من ترجمة الكتاب والتعليق عليه ، وهو توفيق لا ينتظر غيره من أستاذ جليل له ما للدكتور أحمد فخرى من علم وماض وتفهم .

كما أعتقد أن مؤسسة فرانكلين قد وفقت فى اختيار هذا الكتاب للترجمة فهو يفتح آفاقا من التاريخ لا غنى عنها للمثقفين .

ولا أريد أن أختم هذا المقال قبل أن أعود باللائمة مرة أخرى على جميع الجهات الاسلامية التى لم تهتم بترجمة المؤلفات الاسلامية العربية الى اللغات الاجنبية ، حتى تتيح لأمثال هؤلاء المؤرخين ولغيرهم من الباحثين أن يجدوا من المراجع ما يجعلنا نصب اللوم عليهم أن أخطأوا . فاننا الآن لا نملك حين نقرأ عن ديننا ومجتمعنا الاسلامى معلومات خاطئة فى كتبهم ، لا نملك الا أن نقول لهم « كان الله لكم فأنتم لا تعلمون . والجرم جرمنا نحن فى أنكم لا تعلمون » .

رجال "أرامكو"



تحتاج صناعة الزيت الى كثير من المعلومات . فسجلات الضغط والحرارة التى تؤخذ من المناطق التى تحتوى على الزيت داخل الارض هامة جدا . وتظهر هذه المعلومات الحالات التى بموجبها تعرف نسبة انتاج الزيت فى باطن الارض .

والسيد عبد الرحمن سليمان العجاجى هو المشرف على الموظفين الذين يقومون بهذه القياسات . ومن عمله فحص الالات ومعرفة دقتها بمقاييس ثابتة كما يظهر فى الصورة .

وقد التحق السيد عبد الرحمن فى شركة ارامكو فى عام ١٩٤٨ ، فعمل فى فرقة قياس الحرارة والضغط ، ثم فى مراكز فرز الغاز من الزيت حتى أصبح مشغلا أعلى خارج الورشة . وفى اوائل هذا العام عاد الى العمل فأصبح مشرفا بقياسات الحرارة والضغط.

وقد درس السيد عبد الرحمن سبع سنين فى بلدة ظرما فى نجد. وبعد ان التحق بشركة ارامكو واصل دراسته خلال ساعات العمل وبعدها فى مدارس الشركة ، حيث درس الجبر والهندسة والعلوم الطبيعية بالاضافة الى اللغتين العربية والانجليزية فساعدته هذه الدروس على التقدم المستمر .

وقد سافر السيد عبد الرحمن أخيرا الى الولايات المتحدة الامريكية اذ مهدت له الشركة السبيل ليعمل هناك لمدة سنة يتمرن خلالها على أعمال تسجيل الحرارة والضغط فى حقول متعددة للزيت وسيعود الى ارامكو حاملا معه مزيدا من المعلومات والخبرة فى هذا الباب .

أرامكو : شركة الزيت العربية الأمريكية

الظهران - المملكة العربية السعودية

ايديال
ثلاجة ٩ قدم



ثلاجة
العمر



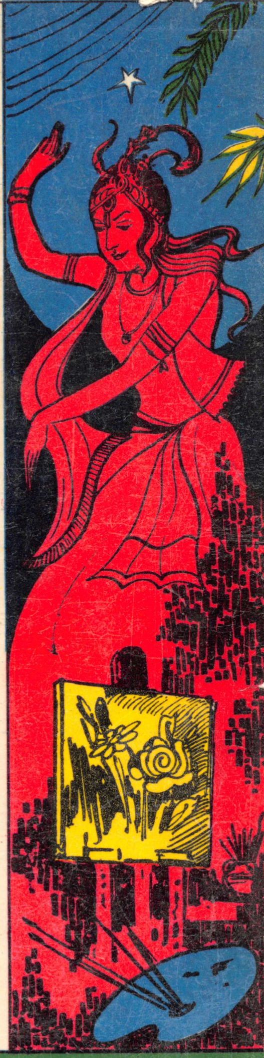
كتابى يحتفل بذكرى "تاجور"

يحتفل العالم هذه الأيام بذكرى مرور مائة عام على مولد أديب الهند الكبير "رابندرانات تاجور"، الذى أذاع صيت الهند الحديثة فى أربعة أركان الأرض خلال نصف القرن الأخير - مثله مثل "غاندى" سواء بسواء!. وتوجت مواهبه بمنحه جائزة نوبل فى الأدب، وهى الجائزة العالمية التى تكلل هامة حاملها بأكاليل الغار.

- وقد كان "تاجور" فنانا واسع الأفق متعدد الجوانب، فهو لم يكن أديبا، وشاعرا، فحسب - يكتب القصة، والمسرحية، والحكمة المأثورة، وينظم الشعر - وإنما جمع إلى جانب ذلك دراية وإنتاجًا رفيعا فى كل من فنون: الرسم، والموسيقى، وغيرها..

ويسر (كتابى)، بهذه المناسبة، أن يشارك الدولة الصديقة - الهند - كما يشارك العالم بأسره، احتفالاته بذكرى "تاجور" فيقدم لك فى هذا العدد سيرة حياته الحافلة، وباقة من أروع نماذج إنتاجه الأدبى.. إلى جانب باقة منوعة من نماذج الآداب الاسيوية والافريقية الأخرى.

فتعال نستمتع معًا بقراءتها، ونتذوق روعتها..



اقرأ بانتظام
مطبوعات
يصدرها حلمى مراد
السلسلة الشقيقة
كتابى